



شرح التفتازاني

العلامة سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله

المتوفى ٧٩٢ هـ

على

الأحاديث الأربعين النووية

للإمام يحيى بن شرف بن مري بن حسن النووي

المتوفى ٦٧٦ هـ

تحقيق

محمد حسن محمد حسن إسماعيل

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب :٧١ – ٧٢].

أما بعد:

فهذا كتاب نفيس، حوى كثيراً من الفوائد الجليلة على كتاب الأحاديث الأربعين للشيخ أبي زكريا يحيى بن شرف النووي رحمه الله تعالى، وهو شرح الشيخ سعد الدين مسعود بن عمر بن عبدالله الهروي الخراساني التفتازاني.

وقد وجدته مطبوعًا بهامش شرح الشيخ محمد البركوي على الأحاديث الأربعين، فأفردته بالإخراج عنه حتى يعم النفع به بعد أن كان في طي النسيان وأسميته :

"شرح التفتازاني على الأحاديث الأربعين النووية".

وقد حاولت جاهدًا إخراجه في أبهى صورة وأفضلها، من تخريج للآيات الواردة فيه ، وكذلك الأحاديث التي قد حواها هذا الشرح النفيس، وكذلك بعض التعليقات التي قد تتعلق بما يخص الاعتقاد الصحيح ؛ حيث إن الشارح رحمه الله تعالى كان من أهل العلم المتسبين إلى

التصوف وأهله، وقد أجال فكره وقلمه في معانيهم محاولاً تفسير كلماهم بما يوافق الطريق القويم والصراط المستقيم، واتبعت في تعليقاتي طريق السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

هذا ولما للشيخ شرف الدين أبي يحيى زكريا بن شرف النووي من مترلة عظيمة بين أهل العلم ، وضعت ترجمة مفصلة بعض الشيء عنه وعن حياته وعلمه ومكانته بين العلماء.

ثم ثنيت بعد ذلك بترجمة مختصرة للشيخ التفتازاني حسبما تيسر لي من مصادر، رحم الله الجميع وجمعنا وإياهم في مستقر رحمته ودار كرامته مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقًا.

والله أسأل أن يوفقنا إلى صالح الأعمال، ويهدينا سواء السبيل، إنه نعم المولى ونعم النصير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

محمد حسن محمد حسن إسماعيل
الشهير بـ"محمد فارس"



ترجمة الإمام النووي

مولده ونشأته:

هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام أبو زكريا النووي الدمشقي، ونوى من أرض حوران، من أعمال دمشق، وكان جده الأعلى حزام، نزلها على عادة العرب، فأقام بها، ورزقه الله تعالى ذرية كثيرة.

ولد سنة (٦٣١هـ) في نوى، وتولى والده الصالح رعايته وتأديبه، ونشأه تنشئة طيبة، فحضه منذ الصغر على طلب العلم، لما لاحظ فيه من مخايل النجابة والذكاء، والاستعداد الفطري.

قال الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي: رأيت الشيخ وهو ابن عشر سنين بنوى، والصبيان يُكرهونه على اللعب معهم، وهو يهرب منهم، ويبكي لإكراههم، ويقرأ القرآن في تلك الحال، فوقع في قلبي محبته، وكان قد جعله أبوه في دكان، فجعل لا يشتغل بالبيع والشراء عن القرآن، فأتيت معلمه، فوصيته به، وقلت له: إنه يرجى أن يكون أعلم أهل زمانه وأزهدهم، وينتفع الناس به فقال لي: أمنجم أنت؟ فقلت: لا، وإنما أنطقني الله بذلك، فذكر ذلك لوالده، فحرص عليه إلى أن ختم القرآن، وقد ناهز الحلم.

ولما كانت بيئته في نوى لا تشبع نهمه العلمي، فقد قدم به والده إلى دمشق سنة ٦٤٩هـ، وكان عمره تسع عشرة سنة. وكانت دمشق إذ ذاك موئل العلماء، ومنهل الفضلاء، ومهوى أفئدة طلاب العلم، وكان فيها من المدارس التي يدرس فيها مختلف أنواع العلم ما يزيد على ثلاث مائة مدرسة.

ومنذ أن حط رحله فيها التقى بالشيخ عبد الكافي بن عبد الملك الربعي، (المتوفى سنة ٦٨٩هـ) وأطلعه على دخيلة نفسه، وما ينتويه من طلب العلم، فأخذه، وتوجه به إلى

حلقة العالم الجليل الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم بن الفركاح (المتوفى سنة (٦٩٠هـ) فقرأ دروسًا ، وبقي ملازمه مدة .

ثم إنه التمس من شيخه هذا مكانًا يأوي إليه ، ويسكن فيه ، فدله على شيخ المدرسة الرواحية الإمام الفقيه كمال الدين إسحاق بن أحمد بن عثمان المغربي، فتوجه إليه ولازمه، وأخذ عنه، وسكن المدرسة الرواحية(١).

وقد ذكر المؤلف رحمه الله أنه بقي نحو سنتين لا يضع جنبه على الأرض، ويتبلغ بشيء من القوت يسير، وحفظ "التنبيه" في نحو أربعة أشهر ونصف، ثم حفظ ربع العبادات من "المهذب" في باقي السنة، وهو يشرح ويصحح على شيخه الكمال المغربي، وقد أعجب به شيخه أيما إعجاب لما رأى من دأبه وحرصه وانصرافه إلى طلب العلم، فأحبه محبة شديدة، وجعله معيد الدرس في حلقته لأكثر الجماعة.

شيوخه:

أما شيوخه الذين تلقى عنهم وسمع منهم خلال إقامته في دمشق، فقد كانوا من خيرة علماء عصرهم، وممن برعوا في مختلف العلوم وأصناف المعارف، كالفقه، والحديث، وعلم الأصول، وعلم العربية، وغير ذلك من الاختصاصات، قارنين إلى ذلك سيرة حميدة، وأخلاقًا نبيلة، كان لها أوضح الأثر فيمن أخذ عنهم.

فقد أخذ الفقه قراءة وتصحيحًا وسماعًا وشرحًا وتعليقًا عن جماعات:

١ - الشيخ الإمام المتفق على علمه وزهده وورعه وكثرة عبادته وعظم فضله، وتميزه في ذلك على أشكاله، أبو إبراهيم إسحاق بن أحمد بن عثمان المغربي، ثم المقدسي، المتوفى سنة ٦٥٠هـ.

---

(١) كانت هذه المدرسة لصيقة الجامع الأموي من جهة بابه الشرقي، وبانيها هو زكي الدين أبو القاسم التاجر المعروف بابن رواحة المتوفى سنة ٦٢٢هـ: انظر ترجمته في الشذرات. وكان يدرس فيها نخبة ممتازة من أهل العلم والفضل، كابن الصلاح، وبهاء الدين السبكي، وولي الدين السبكي، والكمال بن الزملكاني، وصفي الدين الأرموي، وشمس الدين المقدسي. انظر (الدارس) للنعيمي ص ١، ٢١، ٣٢، ٣٩، ١٣٠، ١٣٥، ٢٦٨.

٢- أبو محمد عبد الرحمن بن نوح بن محمد بن إبراهيم بن موسى المقدسي، ثم الدمشقي، الإمام العارف الزاهد العابد الورع المتقن، مفتي دمشق في عصره، المتوفى سنة ٦٥٤هـ.

٣- أبو حفص عمر بن أسعد بن أبي غالب الربعي الإربلي، معيد الباذرائية.

٤- أبو الحسن سلار بن الحسن الإربلي، ثم الحلبي، ثم الدمشقي، المجمع على إمامته وجلالته وتقدمه في المذهب الشافعي على أهل عصره، والمرجوع إليه في حل مشكلاته، المتوفى سنة ٦٧٠هـ.

وأخذ الحديث عنه:

١- الحافظ المتقن المحقق الزاهد الورع إبراهيم بن عيسى المرادي الأندلسي، ثم المصري، ثم الدمشقي، المتوفى سنة ٦٦٨هـ، وقد لازمه نحو عشر سنين.

٢- أبو إسحاق إبراهيم بن أبي حفص عمر بن مضر الواسطي، سمع منه جميع "صحيح مسلم"، ووصفه بقوله: الشيخ الأمين العدل الرضي.

٣- الشيخ المحدث الحافظ المتقن زين الدين أبو البقاء خالد بن يوسف بن سعد النابلسي، المتوفى سنة ٦٦٣هـ.

٤- شيخ الشيوخ عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصاري، الحموي، الشافعي، المتوفى سنة ٦٦٢هـ.

٥- أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، المتوفى سنة ٦٨٢هـ، وهو من أجلّ شيوخه.

٦- قاضي القضاة عماد الدين أبو الفضائل عبد الكريم بن عبد الصمد بن محمد الحرستاني، خطيب دمشق، المتوفى سنة ٦٦٢هـ.

٧- كبير المحدثين ومسندهم الإمام تقي الدين أبو محمد إسماعيل بن أبي إسحاق إبراهيم بن أبي اليسر التنوخي، المتوفى سنة ٦٧٢هـ.

٨- الإمام المحدث الكبير الضياء بن تمام الحنفي.

٩- المفتي جمال الدين عبد الرحمن بن سالم بن يحيى الأنباري، ثم الدمشقي، الحنبلي، المتوفى سنة ٦٦١هـ.

١٠- مسند الوقت زين الدين أبو العباس أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي، النابلسي، المتوفى سنة ٦٦٨هـ.

وله شيوخ آخرون قرأ عليهم علم الأصول والنحو واللغة وغير ذلك من العلوم.

منهم القاضي أبو الفتح عمر بن بندار بن عمر بن علي بن محمد التفليسي الشافعي، قرأ عليه "المنتخب" للفخر الرازي، وقطعة من "المستصفى" للغزالي.

ومنهم أبو العباس أحمد بن سالم المصري النحوي اللغوي، المتوفى سنة ٦٦٤هـ، قرأ عليه "إصلاح المنطق" لابن السكيت، وكتابًا في التصريف، وغير ذلك.

ومنهم العلامة جمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني، إمام النحاة، المتوفى سنة ٦٧٢هـ.

ومنهم الحافظ المؤرخ شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي، المعروف بأبي شامة، المتوفى سنة ٦٦٥هـ.

سماعاته: كانت مسموعاته على المشايخ كتب السنة التالية:

الجامع الصحيح للبخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وجامع الترمذي، وسنن ابن ماجه، وسنن النسائي، وموطأ مالك، ومسند الشافعي، ومسند أحمد، ومسند الدارمي، ومسند أبي يعلى، وصحيح أبي عوانة، وسنن البيهقي، وشرح السنة للبغوي، وعمل اليوم والليلة لابن السني، والجامع لآداب الراوي والسامع للخطيب البغدادي، والأنساب للزبير ابن بكار، وأجزاء كثيرة غيرها.

المدارس التي درس فيها:

ولي رحمه الله مشيخة دار الحديث الأشرفية بعد الإمام أبي شامة سنة (٦٦٥هـ) إلى أن مات، وهي في دمشق جوار باب القلعة الشرقي غربي العصرونية، بناها الملك الأشرف من ملوك الدولة الأيوبية (٥٧٩-٦٥٣هـ) وقد نشر بها علمًا جمًا، وأفاد الطلبة، وحدث بالصحيحين سماعًا وبحثًا، وبقطعة من سنن أبي داود، وصفوة التصوف، والحجة على تارك

المحجة، وشرح معاني الآثار للطحاوي، وكان ينوب بالمدرسة الركنية التي بناها ركن الدين منكورس عن القاضي شمس الدين بن خلكان مؤلف "وفيات الأعيان" وقال القطب اليونيني: إن الشيخ باشر الإقبالية والفلكية[1].

صفاته العلمية والخلقية:

لم يكد الإمام النووي يستقر في المدرسة الرواحية حتى أقبل على طلب العلم بنهم وشغف، وجد واستعداد وهمة لا تعرف الكلل والملل، فكان يقرأ كل يوم أحد عشر درسًا على العلماء شرحًا وتصحيحًا: درسين في "الوسيط" للغزالي، وثالثًا في "المهذب" للشيرازي، ودرسًا في "الجمع بين الصحيحين" للحميدي، وخامسًا في "صحيح مسلم" ودرسًا في "إصلاح المنطق" لابن السكيت، ودرسًا في "اللمع" لابن جني، ودرسًا في أصول الفقه في "اللمع" للشيرازي، و"المنتخب" للفخر الرازي، ودرسًا في أسماء الرجال، ودرسًا في أصول الدين، وكان يعلق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل، وإيضاح عبارة، وضبط لغة.

وما كان ينام من الليل إلا أقله، وإذا غلبه النوم استند إلى الكتب لحظة، ثم انتبه، وضرب به المثل في إكبابه على طلب العلم ليلاً ونهارًا، وهجرة النوم إلا عن غلبة، وضبط أوقاته بلزوم الدرس أو الكتابة أو المطالعة، أو التردد على الشيوخ، حتى إنه إذا مشى في الطريق كان يشتغل في تكرار ما يحفظ، أو يطالع ما يحتاج إلى مطالعة، واستمر على ذلك ست سنين.

وكان قوي المدرك، حاضر البديهة، تنثال عليه المعاني انثيالاً في وقت الحاجة إليها، يتعمق في المسائل العلمية، ولا يكتفي بدراسة ظواهرها، ولا يتقلد قول الغير فيها إلا بعد التحقق من صحة دليله، وجودة مترعه.

وكان رحمه الله يتمتع بحافظة قوية، مستوعبة، أتاحت له السيطرة الفكرية على ما يقرأ، بحيث يربط أقصاه بأدناه، وأوله بآخره، وأجزاءه بعضها ببعض.

وكان رحمه الله تتمثل فيه الآداب الذي ذكرها في كتابه "المجموع" (١/٤٦-٤٨) لمن ينصب نفسه للتعليم وهي:

---

(١) انظر ذيل مرآة الزمان (٣/٢٨٣، ٢٨٤).

١- أن يقصد بتعليمه وجه الله، ولا يقصد توصلاً إلى غرض دنيوي كتحصيل مال أو جاه، أو شهرة أو سمعة، أو تميز عن الأشباه، أو تكثر بالمشتغلين عليه، أو المختلفين إليه. ولا يشين علمه وتعليمه بشيء من الطمع في رفق تحصل له من مشتغل عليه من خدمة أو مال أو نحوهما، وإن قل، ولو كان على صورة الهدية التي لولا اشتغاله عليه لما أهداها له.

٢- أن يتخلق بالمحاسن التي ورد الشرع بها، وحث عليها، والخلال الحميدة، والشيم المرضية التي أرشد إليها من التزهد في الدنيا، والتقلل منها، وعدم المبالاة بفواتها، والسخاء والجود ومكارم الأخلاق، وطلاقة الوجه، والحلم والصبر، وملازمة الورع والخشوع والسكينة، والوقار والتواضع، والإقلال من المزح، وملازمة الآداب الشرعية الظاهرة والخفية.

٣- الحذر من الحسد والرياء والإعجاب، واحتقار الناس وإن كانوا دونه بدرجات.

وطريقه في نفي الحسد أن يعلم أن حكمة الله تعالى اقتضت جعل هذا الفضل في هذا الإنسان، فلا يعترض ولا يكره ما اقتضته الحكمة.

وطريقه في نفي الرياء أن يعلم أن الخلق لا ينفعونه ولا يضرونه حقيقة، فلا يتشاغل بمراعاتهم، فيتعب نفسه، ويضر دينه، ويحبط عمله، ويرتكب سخط الله، ويفوته رضاه.

وطريقه في نفي العجب أن يعلم أن العلم فضل من الله تعالى ومعه عارية، فإن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فينبغي ألا يعجب بشيء لم يخترعه، وليس مالكًا له، ولا هو على يقين من دوامه.

وطريقه في نفي الاحتقار التأدب بما أدبنا الله تعالى، قال تعالى: ﴿**فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى**﴾ وقال تعالى: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ فربما كان هذا الذي دونه أتقى لله تعالى وأطهر قلبًا، وأخلص نية، وأزكى عملاً.

٤- دوام مراقبته لله تعالى في علانيته وسره، محافظًا على قراءة القرآن والأذكار والدعوات، ونوافل الصلوات والصوم وغيرها، معولاً على الله في كل أمره، معتمدًا عليه، مفوضًا في كل الأحوال أمره إليه.

٥- أن يستمر مجتهدًا في الاشتغال بالعلم قراءة وإقراء، ومطالعة وتعليقًا ومباحثة ومذاكرة وتصنيفًا، ولا يستنكف من التعلم ممن هو دونه في سن، أو نسب، أو دين، أو في

علم آخر، بل يحرص على الفائدة ممن كانت عنده، وإن كان دونه في جميع هذا، وينبغي ألا يمنعه ارتفاع منصبه وشهرته من استفادة ما لا يعرفه، فقد كان كثير من السلف يستفيدون من تلامذتهم ما ليس عندهم.

٦- ينبغي أن يعتني بالتصنيف إذا تأهل له، فبه يطلع على حقائق العلم ودقائقه، ويثبت معه، لأنه يضطره إلى كثرة التفتيش والمطالعة والتحقيق والمراجعة والاطلاع على مختلف كلام الأئمة ومتفقه، وواضحه من مشكله، وصحيحه من ضعيفه، وجزله من ركيكه، وما لا اعتراض عليه من غيره، وبه يرتفع عن الجمود على محض التقليد، ويبلغ منزلة الأئمة المجتهدين أو يقاربهم، وليحذر كل الحذر أن يشرع في تصنيف ما لم يتأهل له، فإن ذلك يضره في دينه وعلمه وعرضه، ولا يخرج تصنيفه من يده إلا بعد تهذيبه وترداد نظره فيه وتكريره وليراع في تصنيفه وضوح العبارة، والإيجاز غير المخل، وليتطرق إلى المواضيع التي لم يسبق إليها، ويعم الانتفاع بها، وتدعو الحاجة إليها.

٧- وينبغي له أن يحرض طلابه على الاشتغال في كل وقت، ويطالبهم في حفظ ما يلزم حفظه، وينير أذهانهم بطرح الأسئلة المهمة عليهم، فيثني على المجتهد منهم والنابغة فيهم ترغيبًا له، وشحذًا لهمم الآخرين، ويوجه إلى المقصر منهم اللوم غير المنفر ويبسط له ما أشكل عليه ليتضح له، وعليه أن ينصفهم في البحث، فيعترف بفائدة يقولها بعضهم وإن كان صغيرًا، ولا يحسد أحدًا منهم لوفرة تحصيله، وحدة ذهنه، وحضور بديهته، فإن الحسد حرام لغير طلابه، وهنا أشد، فإنه بمنزلة الولد، وفضليته يعود إلى معلمه منها نصيب وافر، فإنه مربيه، وله في تعليمه وتخريجه في الآخرة الثواب الجزيل، وفي الدنيا الدعاء المستمر، والثناء الجميل.

٨- ومن أهم ما يؤمر به ألا يتأذى ممن يقرأ عليه إذا قرأ على غيره، وهذه مصيبة يبتلى بها جهلة المعلمين لغباوتهم، وفساد نيتهم، وهو من الدلائل الصريحة على عدم إرادتهم بالتعليم وجه الله.

ويعد الإمام النووي ممن تقلد مذهب الشافعي وارتضاه، وقيد نفسه بالتخريج على أصوله، وهو من كبار الحافظين للمذهب، العارفين بأدلته، القائمين بتقريرها، وهو محرره، ومهذبه، ومنقحه، ومرتبه.

وربما نلمح عنده استقلالاً فكريًا في بعض المسائل التي يعرض لها، فإنه ينتهي فيها إلى رأي يخالف فيه إمامه، أو يرجح قولاً من أقواله، لأنه اعتضد بالحديث الصحيح. فقد جاء في شرحه لصحيح مسلم (٢٥/٨) وهو يتحدث عن مسألة قضاء الصوم عن الميت: وللشافعي في المسألة قولان مشهوران، أشهرهما: لا يصام عنه، ولا يصح عن ميت صوم أصلاً، والثاني: يستحب لوليه أن يصوم عنه، ويصح صومه عنه، ويبرأ به الميت، وهذا القول هو الصحيح المختار الذي نعتقده، وهو الذي صححه محققو أصحابنا، الجامعون بين الفقه والحديث لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة.

وقد يعرض أقاويل العلماء في المسألة بما فيهم الإمام الشافعي، ويقول: ولكن الحديث كذا، واتباع الحديث أولى.

وحين أورد في "المجموع" رأى ابن الصلاح في الأخذ بالحديث الصحيح إذا خالف قول الشافعي، علق عليه بقوله: وهذا الذي قاله متعين حسن.

تلك هي أهم خصائصه العلمية.

أما الجانب الخلقي من شخصيته، فقد كان رحمه الله على جانب عظيم من التقوى والإنابة، فهو كما سبق أن أشرنا منذ نعومة أظفاره كان يستشعر خشية الله، فينفر عن اللهو، وينصرف عن اللغو، ويملأ فراغه بقراءة القرآن والأعمال الصالحة التي تقربه إلى الله.

وكان رأسًا في الزهد، قدوة في الورع، يتقلل من الدنيا، ويعرض عن مفاتنها ومتعها، ولا يتناول منها إلا ما يقيم أوده، ويعينه على القيام فيما هو آخذ بسبيله.

قال الإمام الذهبي في "العبر" (٣١٣/٥): ولي دار الحديث، وكان لا يتناول من معلومها شيئًا، بل يتقنع بالقليل مما يبعث به إليه أبوه، وكان لا يأخذ من أحد شيئًا، ولا يقبل إلا ممن تحقق دينه ومعرفته، ولا له به علاقة من إقراء وانتفاع به.

وقال في حقه أيضًا: كان عدم الميرة والرفاهية والتنعم، مع التقوى والقناعة والورع والمراقبة لله تعالى في السر والعلانية، وترك رعونات النفس، من ثياب حسنة، ومأكل طيب، وتجمل في هيئة، بل طعامه جلف الخبز بأيسر إدام، ولباسه ثوب خام، وسختيانة لطيفة.

هذا ما كان يأخذ به نفسه، ولكنه في باب الفتيا ينهج منهج القصد والاعتدال فقد علق على حديث عائشة المخرج في مسلم (١٤٧٤) (٢١): كان رسول الله ﷺ يحب

الحلواء والعسل. فقال: فيه جواز أكل لذيذ الأطعمة والطيبات من الرزق، وأن ذلك لا ينافـــي الزهد والمراقبة، لا سيما إذا حصل اتفاقًا.

وكان رحمه الله يسدي النصح للعظماء والكبار بأسلوب تلمح فيه عزة المؤمن، ونزاهة القصد، وكمال الشفقة للمنصوح، وله في ذلك مواقف رائعة مدونة في الكتب التي ألفت في مناقبه تستوجب الإكبار والإعجاب، وتصلح أن تكون مثلاً أعلى للاحتذاء.

وكان رحمه الله يشتد في الإنكار على من يبتدع في الإسلام ما لا يرضاه الله ورسوله، ولا يحابي في ذلك أحدًا كائنًا من كان، رائده الإخلاص في طلب الحقيقة، فقد قال في "الأذكار" ص ١٣٦: اعلم أن الصواب المختار ما كان عليه السلف رضي الله عنهم السكوت في حال السير مع الجنازة، فلا يرفع صوتًا بقراءة ولا ذكر ولا غير ذلك، والحكمة فيه ظاهرة، وهي أنه أسكن لخاطره، وأجمع لفكره فيما يتعلق بالجنازة، وهو المطلوب في هذا الحال، هذا هو الحق، ولا تغترن بكثرة من يخالفه، فقد قال أبو علي الفضيل بن عياض رضي الله عنه ما معناه: الزم طرق الهدى، ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة، ولا تغتر بكثرة الهالكين. وأما ما يفعله الجهلة من القراءة على الجنازة بدمشق وغيرها من القراءة بالتمطيط وإخراج الكلام عن موضوعه، فحرام بإجماع العلماء، وقد أوضحت قبحه، وغلظ تحريمه ، وفسق من تمكن من إنكاره فلم ينكره في كتاب "آداب القراء" والله المستعان، وبه التوفيق.

وقد قال المحدث أبو العباس بن فرح: كان الشيخ محيي الدين قد صار إليه ثلاث مراتب، كل مرتبة منها لو كانت لشخص، شدت إليه آباط الإبل من أقطار الأرض، المرتبة الأولى: العلم والقيام بوظائفه، والثانية: الزهد في الدنيا وجميع أنواعها، الثالثة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

مؤلفاته:

وقد ألَّف النووي رحمه الله كتبًا كثيرة في علوم شتى، في الفقه، والحديث والمصطلح، والتراجم، وكلها تتميز بالتحقيق والإتقان، والاستيعاب الشامل، والاستدلال الكامل، والأسلوب السهل الواضح مما يندر أن يجده القارئ عند غيره من علماء عصره، حتى إن مالك شيخ النحاة كان يشتهي أن يحفظ أحد كتبه لعذوبة ألفاظه، ونصاعة بيانه إلا أنه عاقه

عن ذلك كبر سنه، وهذا ما حدا بطلبه العلم من مختلف البلاد الإسلامية أن يقبلوا على اقتناء تصانيفه، وتدارسها، والانتفاع بما فيها.

تآليفه في الفقه:

١ - روضة الطالبين:

وهو من الكتب الجامعة المعتمدة في المذهب الشافعي، اختصره من "الشرح الكبير" للإمام الرافعي، وزاد فيه تصحيحات ودقائق واختيارات حسان، ابتدأ تأليفه في شهر رمضان سنة ٦٦٦هـ، وفرغ منه في شهر ربيع الأول سنة ٦٦٩هـ، وقد طبع في دمشق في اثني عشر مجلدًا.

٢ - المنهاج:

وهو كتاب لطيف الحجم، يقع في مجلد واحد، يكثر تداوله بين العلماء والطلبة، وهو عمدتهم في معرفة المذهب، اختصره من كتاب "المحرر" للرافعي، وزاد عليه تصحيحات واختيارات.

وقد فرغ من تأليفه في رمضان سنة ٦٦٩هـ. وقد طبع عدة طبعات، وعندنا منه نسخة خطية نفيسة، على هوامشها تعليقات كثيرة، بخط مغاير للأصل.

٣ - الإيضاح في المناسك:

وهو كتاب يشتمل على كل ما يحتاجه الحاج مع فوائد كثيرة قيمة، وقد شرحه علي ابن عبد الله بن أحمد الحسني، المتوفى سنة ٩١١هـ، وعلق عليه حاشية نفيسة الفقيه ابن حجر المكي الهيتمي المتوفى سنة ٩٧٤هـ.

٤- المجموع:

شرح فيه "المهذب" لشيخ الشافعية في عصره أبي إسحاق الشيرازي، وقد وصل فيه إلى أثناء كتاب الربا، فعاجلته المنية دون إكماله، طبع في تسع مجلدات ضخام، وقد وصفه الحافظ ابن كثير في "طبقات الشافعية" له، فقال:

"سلك فيه طريقة وسطة حسنة مهذبة سهلة جامعة لأشتات الفضائل، وعيون المسائل، ومجامع الأوائل، ومذاهب العلماء ومفردات الفقهاء، وتحرير الألفاظ، ومسالك الأئمة الحفاظ، وبيان صحة الحديث من سقمه، ومشهوره من عكسه، وبالجملة فهو كتاب ما رأيت على منواله لأحد من المتقدمين، ولا حذا على مثاله متأخر من المصنفين".

٥- الفتاوى المسماة بالمسائل المنثورة:

وهي من جمع صاحبه الملازم له علاء الدين بن العطار، وفيها علم جم، وآراء سديدة.

تآليفه في الحديث والمصطلح

١- شرح صحيح مسلم:

وهو شرح نفيس، يتداوله العلماء، وينقلون عنه، ويفيدون منه، ولا سيما الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" ضمنه كما يقول في مقدمته :

جملاً من علومه الزاهرات، من أحكام الأصول والفروع والآداب والإشارات، والزهديات، وبيان نفائس من أصول القواعد الشرعيات، وإيضاح معاني الألفاظ اللغوية، وأسماء الرجال، وضبط المشكلات، وبيان أسماء ذوي الكنى، وأسماء آباء الأبناء والمبهمات، والتنبيه على لطيفة من حال بعض الرواة وغيرهم من المذكورين في بعض الأوقات، واستخراج لطائف من خفيات علم الحديث من المتون والأسانيد المستفادات، وضبط جمل من الأسماء المؤتلفات والمختلفات، والجمع بين الأحاديث التي تختلف ظاهرًا، ويظن بعض من لا يحقق صناعتي الحديث والفقه كونها متعارضات، وأنبه على ما يحضرني في الحال في الحديث من المسائل العمليات، وأشير إلى الأدلة في كل ذلك إشارات، إلا في مواطن الحاجة إلى البسط للضرورات، وأحرص في جميع ذلك على الإيجاز وإيضاح العبارات.

وهو آخر ما ألف كما يتبين من الشرح نفسه، فقد جاء فيه (١٢/٥٧):

وقد أوضحت هذا في جزء جمعته في قسمة الغنائم حين دعت الضرورة إليه في أول سنة أربع وسبعين وستمائة.

٢- رياض الصالحين.

٣- الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار.

وهو مثل "رياض الصالحين" كثير التداول ، وواسع الانتشار، لا يكاد يخلو منه بيت مسلم، ذكر فيه الأحاديث الواردة فيما ينبغي أن يقال من الأذكار والدعوات في اليوم والليلة، وفي مختلف المناسبات، وقال: إنه أسقط الأسانيد رغبة في الاختصار، وذكر بدلاً منها ما هو أهم منها، وهو بيان صحيح الأحاديث وحسنها، وضعيفها، ومنكرها، فإنه مما يفتقر إليه عامة الناس، وهو أهم ما يجب الاعتناء به، ثم ضم إلى ذلك جملاً من النفائس من علم الحديث، ودقائق الفقه، ومهمات القواعد، ورياضات النفوس، والآداب التي تتأكد معرفتها على السالكين، وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات.

٤- الخلاصة في أحاديث الأحكام:

وموضوعه الأحاديث التي يحتج بها الفقهاء، ولا سيما الشافعية منهم، وقد وصل فيه إلى أثناء الزكاة، و لم يكمله، وقد قالوا في وصفه: إنه لا يستغني المحدث عنها والفقيه، ولو كملت كانت في بابها عديمة النظير.

٥- الأربعين النووية:

جمع فيها أربعين حديثًا التزم فيها الصحة، وشرحها شرحًا لطيفًا، وهو كتابنا هذا.

٦- الإرشـــاد في مصطلح الحديث: اختصره من "مقدمة ابن الصلاح" المشهورة في علوم الحديث، ثم اختصره بكتاب سماه: "التقريب والتيسير في معرفة سنن البشير النذير" وهو كتاب لطيف الحجم، جمع فيه أمهات فن المصطلح، وبالغ في اختصاره بعبارة واضحة من غير إخلال بالمقصود، ليسهل حفظه على طلبة العلم، وقد شرح هذا الكتاب الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي بكتاب سماه: "تدريب الراوي في شرح النواوي" وهو شرح حافل، ضم كثيرًا من نفائس علم المصطلح.

في التراجم واللغة

١ - تهذيب الأسماء واللغات:

وهو يتألف من قسمين : الأول يتضمن تراجم الرجال والنساء وغيرهما ممن ورد لهم ذكر في مختصر المزني، والمهذب، والتنبيه، والوسيط، والوجيز، وروضة الطالبين.

والقسم الثاني: شرح فيه الألفاظ الغريبة الموجودة في تلك الكتب الستة، وضبطها ضبطًا متقنًا، ونبه مع ذلك على كثير من المعاني اللطيفة، والمسائل الحقيقية بأوضح عبارة، وضبط فيه من حدود الألفاظ الفقهية ومجامعها ما يصعب تحقيقه إلا على النادر من أهل العناية، كضبط حقيقة الهبة، والهدية، والصدقة، والفرق بينها، وما يتعلق بالألفاظ الجامعة، وعرف المواضع والبلاد، وحدد أمكنتها، ونبه على ما يشتبه منها.

٢ - طبقات الفقهاء:

هو في تراجم العلماء المنتسبين إلى الشافعي، اختصره من كتاب ابن الصلاح، وزاد عليه أسماء نبه عليها في ذيل كتابه، ومات وهو مسودة، فقام بتبييضه الحافظ المزي صاحب "تهذيب الكمال"، ولم يطبع بعد.

٣ - تحرير ألفاظ التنبيه:

وقد جاء في مقدمته بعد أن أبان عن قيمة كتاب "التنبيه" والنوع الثاني: بيان لغاته: وضبط ألفاظه، وبيان ما ينكر مما لا ينكر، والفصيح من غيره، وقد استخرت الله الكريم الرءوف الرحيم في جمع متخصر أذكر فيه إن شاء الله تعالى اللغات العربية والمعربة، والألفاظ المولدة، والمقصورة والممدودة، وما يجوز فيه المذكر والمؤنث، والمجموع والمفرد، والمشتق، وعدد لغات اللفظة، وأسماء المسمى الواحد المترادفة، وتعريف الكلمة وبيان الألفاظ المشتركة ومعانيها، والفروق بينها، كلفظة الإحصان، وما اختلف فيه أنه حقيقة أو مجاز كلفظة النكاح، وما يعرف مفرده، ويجهل جمعه، وعكسه، وما له جمع، وما له جموع، وبيان جمل ما يتعلق بالهجاء، وما يكتب بالواو والياء والألف، وما قيل جوازه بوجهين أو بثلاثة كالربا، وأنبه فيه على جمل من مهمات قواعد التصريف المتكررة، وأذكر فيه جملاً من الحدود الفقهية المهمة، كحد المثلي، وحد الغصب ونحوهما، والفرق بين المتشابهات كالهبة والهدية وصدقة التطوع، وكالرشوة والهدية، وبيان ما قد يلحن فيه، وما أنكر على المصنف

عنه جواب، وما لا جواب عنه، وما غيره أولى منه، وما هو صواب وتوهم جماعة أنه غلط، وما ينكر من جهة نظم الكلام وتداخله، والعام والخاص وعكسه، وبيان جمل مهمة ضبطناها عن نسخة المصنف من جهة نظم الكلام وتداخله، والعام والخاص وعكسه، وبيان جمل مهمة ضبطناها عن نسخة المصنف وهي صواب وفي كثير من النسخ خلافها، وبيان ما أنكر على الفقهاء وليس منكرًا، وبيان جمل من صور المسائل المشكلة مما له تعلق بالألفاظ، وغير ذلك من النفائس المهمات، كما ستراها في موضعها إن شاء الله تعالى واضحًا، وألتزم فيه المبالغة في الإيضاح مع الاختصار المعتدل، والضبط المحكم المهذب، وقد أضبط ما هو واضح، ولكن قد يخفى على بعض المبتدئين، ومتى ما ذكرت فيه لغتان أو لغات قدمت الأفصح، ثم الذي يليه، إلا أن أنبه عليه، وما كان من لغاته ومعانيها غريبًا أضيفه غالبًا إلى ناقله، وهذا الكتاب وإن كان موضوعًا للتنبيه على ما في "التنبيه" فهو شرح لمعظم ألفاظ كتب المذهب وعلى الله اعتمادي.

وله رحمه الله مؤلفات أخرى، منها ما كمل، ومنها ما لم يكمل، لم أنشط لوصفها في هذه المقدمة.

في سنة ست وسبعين وستمائة قفل راجعًا إلى نوى بعد أن أقام في دمشق نحوًا من ثمانية وعشرين عامًا، وبعد أن رد الكتب المستعارة من الأوقاف، وزار مقبرة شيوخه، فقرأ ودعا وبكى، وزار أصحابه الأحياء وودعهم، فمرض بنوى، وتوفي رحمه الله ليلة الأربعاء في الرابع والعشرين من رجب، ودفن بها، ولما بلغ نعيه إلى دمشق ارتجت هي وما حولها بالبكاء، وتأسف عليه المسلمون أسفًا شديدًا، ورثاه جماعة يبلغون عشرين نفسًا بأكثر من ستمائة بيت. رحم الله تعالى الإمام النووي رحمة واسعة وجزاه عنا خير الجزاء.



ترجمة شارح الأربعين

اسمه:

هو: سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله الهروي الخراساني، العلامة الفقيه الأديب الحنفي الشهير بالتفتازاني.

مولده:

ولد سنة (٧٢٢ هـ).

مصنفاته:

من تصانيفه :

١ – أربعين في الحديث.

٢ – إرشاد الهادي في النحو.

٣ – الإصباح في شرح ديباجة المصباح في النحو.

٤ – تركيب الجليل في النحو.

٥ – التلويح في كشف حقائق التنقيح في الأصول.

٦ – تهذيب المنطق والكلام.

٧ – شرح الأحاديث الأربعين النووية (وهو كتابنا).

٨ – شرح منتهى السؤال والأصل لابن الحاجب (قيد الطبع بتحقيقنا).

٩ – مفتاح الفقه.

١٠ – المطول في المعاني والبديع.

١١ – رسالة الإكراه، وغيرها كثير.

وفاته:

توفي بسمرقند في المحرم سنة (٧٩٢ هـ) [١].

---

(١) انظر مصادر ترجمته في : الدرر الكامنة (١١٣/٦)، طبقات المفسرين (٣٠١/١)، هدية العارفين (٤٢٩/١ – ٤٣٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة صاحب الشرح(١)

الحمد لله رافع أعلام الملة الزاهرة بلوامع آيات الكتاب ومحكم مباني أحكام الشريعة الغراء بقواطع فصل الخطاب، الذي جلا بأنوار صحاح الأحاديث النبوية أعاجيب جلابيب العمى، وجعل حسان الأخبار الأحمدية مفاتيح السعادة ومعالم عوالم الهدى.

والصلاة والسلام على من أشرقت من مشكاة مصابيح رسالته المغارب والمشارق، وابتسمت بأزهار نبوته رياض الشرع الفائق، محمد جامع الأصول الربانية، وعمدة الأحكام السبحانية، وعلى آله وصحبه الذين كل شهاب ثاقب مستضاء بأنوراه، ونجم ساطع يقتدى بتجليته، ويهتدى بآثاره، ما وفق مسلم لشرح السنة، وأيد الدين بأطراف الأسنة.

أما بعد:

فإن العلم مفتاح خزائن المعارف، ومصباح أرواح ذوي العوارف، ومطالع طوالع الأنوار اللاهوتية، ومواقف جواهر الأسرار الملكوتية، كشاف أستار عرائس الحقائق ، ينابيع نفائس لطائف الدقائق، منهاج بهاج لأرباب العرفان، سراج وهاج لأصحاب الإيقان، بدائع فوائده كافية لطلاب لباب التنزيل، وروائع فوائده شافية عن تعطش الأكباد إلى عجاب التأويل.

أنواع المطالب فيه محصلة، وأقسام الفوائد فيه مفصلة، لا يدرك الواصف المطري خصائصه، وإن يكن سابقًا في كل ما وصفا، ماذا أقول، وكل ما أنا قائل في نعت غرته أقل خصاله، سيما علم التفسير الكاشف عن بدائع معاني البيان الرباني، الواصف بحكمته منطق كل فقيه سبحاني.

ثم أحاديث من أودع في فوائده علم هيئة الملكوت، ووضع في صدره أصول كلام الجبروت، ولله در من قال فيه، ونثر الدر من فيه: الشيخ نجم الدين الكبرى، قدس سره:

---

(١) هذا العنوان والعناوين التي بدايتها : "الكلام على...." جميعها وضعتها من عندي تميمًا للفائدة.

إذا ذكرت بحار العلم يومًا فقول المصطفى لا غير تجري
هو البحر المحيط وما عداه فأنهار صغار منه تجـــري

فطوبى لمن وفق لاقتباس أنواره، واقتناص لطائف أسراره، مولعًا على التشبث بأذيال جلاله، منهومًا إلى الشرب من زلال سلسال نواله، ولما هداني الله لتحصيل الفضائل، وشغفني بمحاسن الخصائل، صرفت ربيع الشباب نحو الطلب، وأرخيت عنان الإرب في مضمار الأدب، وطفقت أقتبس الأنوار من كل مصباح، وأقتطف الأزهار من كل أُقاح، مقبلاً إلى اقتناء الفنون العربية، والارتقاء إلى العلوم الشرعية، حتى جذبتني جواذب التوفيق إلى تحصيل بعض ظواهرها، إذ لست من أهل التحقيق.

فبينما قضيت منها الوطر، وأجلت في إحداق التميمات النظر:

رماني الدهر بالأرزاء حـــتى فؤدي في غشاء من نبـــال
فصرت إذا أصابتني ســـــهام تكسرت النصال على النصال

وذلك بسبب استيلاء عوارض تحصل للقلوب من سماعها الأقراع، وتشمئز منها الطباع، وتمجها الأسماع، بحيث سد على أبواب الفتوح، وسلب مني الروح والروح، ولله در من قال:

لله داء في الفؤاد أجنه يزداد داء كلما داويته

فما السبب لتلك الحال، قول من قال:

ألا موت يباع فأشـــــتريه فهذا العيش ما لا خير فيـــــه
ألا رحم المهيمن روح عبد تصدق بالوفاة على أخيـــــه

فلما اشتد بي الحال، وامتد ورود وفود البلبال على البال، رأيت أن أتوسل إلى معالي حضرة الرسول، وأستشفع بجاهه لخلاصي من تلك البلية القتول[1]، بأن أجمع من كتب المحدثين المحققين ما يستعان به على حل الأربعين، الذي ألفه الإمام النفاع، خاتمة المجتهدين بالإجماع، محيي الدين بن زكريا النووي قدس الله تربته، ونور بفضله روضته.

---

(١) المذهب الحق في مسألة التوسل بالأموات: هو أنه لا يجوز التوسل بالأموات حتى الأنبياء، ولو كان هذا جائزًا لفعله صحابة النبي ﷺ، لكنهم لم يفعلوه، يراجع في ذلك الرسالة النفيسة لشيخ الإسلام ابن تيمية: "قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة".

فجاء بحمد الله تعالى: شرحًا وسطًا، يحل وجيز مبانيه، ويظهر غزير إيضاح الفوائد البيانية البديعة مقاصده، ويبسط معانيه، روضة مزهرة بحقائق العرفان، متحليًا بالتهذيب والتبيان، حاويًا لغرائب النكات العربية تلخيصًا للقواعد الشرعية، مجردًا عن الزوائد، مهذبًا بجلائل الفوائد، تيسيرًا على الطلاب، وتقريبًا للفهم على الأحباب، والمرجو أن يعمل به كل أواب منيب، وينتفع به من له في الآخرة نصيب، وأن يفرج عني أنواع الغواية، ويفرح قلبي بالرعاية والعناية، وهو حسبي ونعم الوكيل.

صلى الله على سيدنا محمد، صلاةً وسلامًا دائمة صيبه وعلى آله وأصحابه، تحية من عند الله مباركة طيبة.



[إسناد المصنف لكتاب الأربعين النووية]

وقبل الشروع أذكر إسنادي لهذا الكتاب:

أخبرني السيد العالم العلامة مفتي العالم، سيد الملة والدين، أحمد بن السيد عبدالوهاب المصري المحمدي، سماعًا عليه، قال: أخبرني والدي عن المصنف سماعًا، في طريق مكة، كلما أذكر الحاء في مثل هذا المقام، أريد به التحويل، أي حول من هذه إلى أخرى، وأخبرني الشيخ الوالي العارف، أستاذ المحدثين، عفيف الملة والدين، محمد بن سعيد الكازروني، سماعًا عليه وإجازةً، قال: أخبرني الحافظ جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكي المربي، إجازة خاصة، قال: أخبرني الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي.

[ترجمة المصنف للإمام النووي]

وذكر الإمام الإسنوي رحمه الله تعالى: أنه ولد في العشر الأول من المحرم، سنة إحدى وثلاثين وستمائة، بنوى -قرية من قرى دمشق- وقرأ بها القرآن، وقدم دمشق سنة تسع وأربعين، وقرأ التنبيه في أربعة أشهر ونصف ، وحفظ ربع المهذب بقية السنة، ثم مكث قريبًا من السنتين لا يضع جنبه على الأرض، يقرأ اثني عشر درسًا من العلوم، وكان آمرًا ناهيًا، سامرًا في العبادة والتصنيف، صابرًا على خشون العيش، لا يدخل الحمام ولا يأكل إلا مرة ومما يؤتى به من عند أبويه بعد العشاء، ولا يشرب إلا شربة عند السحر، ولم

يتناول فواكه الشام لشبهة فيها، و لم يتزوج، وحج مرتين، وتولى دار الحديث الأشرفية، سنة خمس وستين، و لم يأخذ من معلومها شيئًا، يلبس ثوب قطن وعمامة سحنانية، وفي لحيته شعرات بيض، وعليه سكينة ووقار في البحث، و لم يزل على ذلك إلى أن سافر إلى القدس ثم عاد إليها فمرض عند أبويه، وتوفي ليلة الأربعاء، رابع عشر رجب سنة ست وسبعين وستمائة، ودفن ببلده، طيب الله مضطجعه، وجعل الفردوس مرتعه.

وروي أنه أنشد عند الوفاة هذه الأبيات:

تباشر قلبي في قدومي عليهم ... وبالسير روحي يوم سيري إليهم

وفي رحلتي يصفو مقامي وحبذا ... مقام به حط الرحال لديهم

ولا زادني إلا يقيني بأنهم ... لهم كرم يغني الوفود عليهم

وهذا أوان الشروع في المقصود بعون الله الملك المعبود.

الكلام على مقدمة المصنف

قال رحمه الله ورضي عنه:

« بسم الله الرحمن الرحيم »

«بسم الله»: أي: باسم المعبود بالحق، الواجب الوجود، المبدع للعالم.

و"الباء" للالتصاق أو الاستعانة، والجار والمجرور متعلق بفعل مؤخر لإفادة اختصاص جعل التسمية مبدأ له، ولأن ما هو السابق في الوجود يستحق السبق في الذكر، ولذا قال المحققون: "ما رأينا شيئًا إلا ورأينا الله تعالى قبله".

و"الاسم": أحد الأسماء العشرة التي بنوا أوائلها على السكون، فإذا ابتدئ بها زيدت همزة، وأصله: "سمو" من السمو، لأنها رفعة للمسمى وشعار له.

و"الله": أصله "إله" حذفت الهمزة وعوضت عنها اللام، وهو اسم لكل معبود حقًا كان أو باطلاً، ثم غلب على الأول ، من "أله" إذا عبد، فهو مألوه، أي: معبود، أو أله إذا تحير لتحير العقول في معرفته، أو أقام في المكان لدوام وجوده، أو لا وأبدًا، أو فزع، فألهه، أي: أمنه. أو من الوله، وهو ذهاب العقل في ساحل بحر العرفان، سواء الواصل والواقف في ظلمات الجهالة والخذلان، أو المحبة الشديدة، فأبدلت الواو همزة، إذ عباده يحبونه لذاته وصفاته وأفعاله:

أحبك حبين: حب الهوى ... وحب لأنك أهل لذاك

فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواك

وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك لي الحجب حتى أراك

أولاه: ارتفع عن الحدثان، أو احتجب عن إدراك عيون الأعيان، أو من: ألهت إلى فلان، أي: سكنت إليه، أو أله الفصيل: إذا ولع بأمه.

وأما "الله" فمختص بالمعبود بالحق المستحق أزلاً وأبدًا لئن يعبد، وكل ما سواه عابد له.

"**الرحمن**": الشامل الرحمة لجميع الخلق بإفاضة أصول النعم وجلائلها وما يتوقف عليه بقاؤهم.

"**الرحيم**": الخاص الرحمة بالمؤمنين بالهداية، وما يتوقف عليه سعادهم، وهي إرادة الخير لأهله وترك عقوبة من يستحقها، وأصلها: رقة القلب والانعطاف، فإطلاقه على الله مجاز باعتبار تشبيه فعله بفعل الملك العاطف، أو باعتبار الغاية، أي: غاية فعله بهم، غاية فعل العاطف من الإحسان.

فعلى الأول استعارة مصرحة، وعلى الثاني: مجاز مرسل، باعتبار العلاقتين.

فإن قلت: ما فائدة لفظ "اسم"؟

وهلا قيل: بالله الرحمن الرحيم؟

ولما قطع همزه في النداء ووصلت في غيره؟

وما الحكمة في تقديم الرحمن والعادة الترقي؟

فالجواب: أما عن الأول: فليعلم أن التبرك كما يكون بذكر اسم خاص من أسمائه، يكون بذكر لفظ دال على اسمه، وليتميز التيمن الذي باسمه عن اليمين التي تكون بذاته لا اسمه، ذكره القاضي في التفسير.

وعن الثاني: فلأن الهمزة أجلبت في النداء للتعويض واضمحل عنها معنى التعريف، لأنه أغنى عنه التعريف النداء، بخلاف غيره، فإنها لم تخلع عنه، كذا في الكشاف واللباب.

وعن الثالث: فلأن الرحمن يتناول عظائم النعم، وأصولها، فأردفه بالرحيم، كالتتميم ليتناول ما رقّ منها ولطف، كذا في الكشاف.

أو لأنه مركوز في الجبلة: أن عظائم النعم ليست إلا منه، فلو اقتصر على الرحمن لاختتم أن يطلب منه الشيء اليسير، فكمل بالرحيم، قال تعالى: «**يا موسى، سلني حتى ملح قدرك**» ، أو لأنه يناسب لفظ "الله" من جهة الاختصاص والدلالة على زيادة المعنى في سورة الفاتحة.

وما قيل: إن الرحيم أبلغ؛ لأنه من الأمور الغريزة، كشريف وفعلان من الأمور العارضة، كسكران، ممنوع لأن ذلك إنما يكون إذا كان من باب فعل بالضم لا من صيغة فعيل، لجواز أن يكون من باب فعل، كالرحيم من رحم.

قال أهل التحقيق: لما ثبت أن اسم الشيء ما يعرف به فأسماء الله هي الصور النوعية التي تدل على صفات الله وذاته، وبوجودها على وجوده بتعيينها على وحدته، إذ هي ظواهرها التي بها تعرف.

و"الله": اسم لذات الحق من حيث هي لا باعتبار اتصافه بالصفات ولا باعتبار عدم اتصافه.

و"**الرحمن**": هو المفيض للوجود والكمال على الكل بحسب ما تقتضي الحكمة وتحتمل الفوائد على وجه البداية.

و"**الرحيم**": هو المفيض للكمال المعنوي المخصوص بالنوع الإنساني بحسب النهاية، ولذا قيل: "يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الآخرة".

وفائدة لفظ اسم بقاء هياكل الخلق، إذ لو قيل: "بالله" لذاب تحت حقيقتها الخلائق إلا من كان محفوظًا، وإن يتم به الحق على قلوب أهل معرفته، ولما قدم لفظ اسم الله اضمحلت العقول في بيداء عظمته، وذابت الأرواح في بحار ألوهيته، فأتبعه بالرحمن الرحيم؛ ليسلي قلوب الموحدين، ويشفي صدور قوم مؤمنين، وقدم الرحمن؛ لأنه أدل على الرحمة.

وقيل : الرحمن شراب شوق إشراقه في قدح الرحيم؛ ليتناول العباد حتى إذا أشربوا سكروا، وإذا سكروا طربوا، فطابوا فطاروا فوصلوا واتصلوا فذابوا واضمحلوا في بيداء كشفه واستغرقوا في بحار لطفه، وبقوا بشهوده.

« الحمد لله رب العالمين »

وإنما بدأ بالتسمية وأردفها بالتحميد اقتفاء لما ورد في الأخبار، واقتداء بطريق الأخيار، وأداء لبعض حقوق استغرقته من ضروب الإحسان التي من جملتها هذا التأليف العظيم الشأن، فقال:

(**الحمد**): هو الوصف بالجميل على جهة التبجيل، سواء تعلق بالفضائل أم بالفواضل.

والمدح: هو الوصف به مطلقًا.

والشكر : ما دل على تعظيم المنعم قولاً وعملاً واعتقادًا، فهو أعم منهما من وجهة.

ونقيضهما: الذم والهجو والكفران، وإيثاره على الشكر ليعم الفضائل والفواضل، وعلى المدح ليشعر بأنه فاعل مختار.

وتعريفه للحقيقة دلالة على اختصاص الجنس المستلزم لاختصاص الحامد، أو للاستغراق بقرينة المقام ، والأول أولى.

ولما كان الحمد أشيع وأظهر لخفاء الاعتقاد واحتمال العمل قال النبي ﷺ : «**الحمد رأس الشكر، ما شكر الله من لم يحمده**» .

(**لله**): هو اسم للذات من حيث هي هي، أو باعتبار اتصافه بصفات الكمال، ومن خواصه: أنه يؤكد كل وصف يقارنه مثلاً: مع الرحمن : يؤكد معنى الرحمة، ومع القادر: يؤكد معنى القدرة، وهلم جرًا؛ لأنه أعظم الأسماء، لدلالته على الذات الجامعة لصفات الألوهية. وغيره لا يطلق إلا على آحاد المعاني، فلا يكون في التتريل مكررًا محضًا.

واختار اسم الذات المنبئ عن صفات الكمال، ووصفه بما يتفرع عليهما من الأفعال، إيماءً إلى استحقاقه من جميع الجهات.

هذا وفي كلام الصوفية: أن الحمد كما يكون بالمقال يكون بالفعل ولسان الحال، وهو ظهور الكمالات وحصول الغايات من الأشياء إذ هي ثنية فائحة، ومدح رائقة لمولاها بما يستحقه، فالموجودات كلها مسبحة مترهة عن الشريك، حامدة، إظهارًا لكمالاتها، ومظهريتها للصفات الجلالية والجمالية، كما قال: ﴿**وإن من شيء إلا يسبح بحمده**﴾ [الإسراء: ٤٤]، أي: بلسان فصيح ملكوتي يسمعه كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وبهذا اللسان نطق الحصى في كف المصطفى ﷺ ، وبه تحدث الأرض أخبارها ، وبه تنطق الجوارح، وبه نطقت السموات والأرض حيث قالتا: ﴿**أتينا طائعين**﴾ .

والشكر عبارة عن صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه من النعم الظاهرة والباطنة فيما خلقه لأجله، فإذا سلك هذا المسلك يكون دائمًا في مطالعة أقسام نعم الله وملاحظة دقائق صنعه، وفي أعمال الجوارح في الأعمال الصالحة الكاسبة لأنوار الملكات الحميدة، وشغل النفس بمطالعة النعم يوجب من مزيد محبة النعم، ويقتضي الترقي إلى محبة المنعم، حتى يتجلى فيه نور الوجوب، ويقتدر على التصرف في الخلق بالحق بانفتاح أبواب الغيوب.

(**رب العالمين**): أي: مالك لجميع الخلق ومربيهم لأن الرب مصدر بمعنى التربية، وهي تبليغ الشيء إلى كماله، شيئًا فشيئًا، وصف به مبالغة أو نعت، من : ربه يربه، فسمي به المالك؛ لأنه يحفظ ما يملك، ولا يقال: "الرب" مطلقًا -أي: مفردًا- إلا لله تعالى، ويقال لغيره مضافًا: كرب المال، هذا هو المشهور.

وفيه بحث إذ ورد في صحيح مسلم: «**لا يقل أحدكم ربي؛ بل سيدي ومولاي**»، فلعل الجواز في المقيد بغير أولي العلم، وأما قول يوسف عليه السلام: ﴿**إنه ربي**﴾ فملحق بالسجود في الاختصاص بزمانه.

و(**العالم**): اسم لذوي العلم من الملائكة والثقلين، أو لما علم به الخالق من العلم أو العلامة. وجُمع ليشمل كل جنس مما سمي به، وبالواو والنون لتغليب العقلاء، وهو عبارة عن المخلوقات الغير متناهية، التي لا يحصى عددها.

(قيوم السموات والأرضين، مدبر الخلائق أجمعين)

(**قيوم السموات والأرضين**): أي: خالقهما الدائم والقائم بأمورهما، وهو مبالغة. قائم، وأصله: قيووم، جُعلت الياء الساكنة والواو الأولى ياء مشددة، وهو القائم بذاته المقوم لغيره.

وإنما جمع السماء لاختلافها بالآثار والحركات عند الحس وتباينها في الجنس، كما ورد في كتاب المعراج للأستاذ القشيري:

أن الأولى: موج مكفوف.

والثانية : من النحاس.

والثالثة: من الفضة.

والرابعة: من الذهب.

والخامسة: من الياقوت.

والسادسة: من الزمرد.

والسابعة: من النور.

والعرش: من جوهرة خضراء.

والكرسي: من النور.

أو باعتبار كونها أفلاك الكواكب السبعة السيارة.

وقدمها لشرفها وعلو مكانها.

وإفراد الأرض في القرآن: لاتحادها فيها، وإنما جمعها المصنف إشعارًا بأنها مثلها في العدد فقط، أي: لا هيئة وشكلاً، كما قال: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾.

وفي كل طبقة ما لا يعلمه إلا الله، أو لرعاية الفاصلة.

(**مدبر الخلائق أجمعين**): أي: العالِم بعواقبهم ومقدر أمورهم ومفيض ما يتوقف عليه وجودهم على وفق علم الغيب الذي لا يظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول.

وله مراتب من غيب الغيوب المسمى بالعناية الأزلية، وهو علم الله المحيط بالكل بحضور ذاته لكل العوالم.

ثم غيب عالم الأرواح: وهو انتقاش صورة كل ما وجد وسيوجد من الأزل إلى الأبد في العالم الأول العقلي الذي هو روح العالم المسمى بأم الكتاب على وجه كلي وهو القضاء السابق.

ثم غيب عالم الغيوب: وهو ذلك الانتقاش بعينه مفصلاً، علمًا كليًا وجزئيًا في عالم النفس الكلية التي هي قلب العالم المسمى باللوح المحفوظ.

ثم غيب عالم الخيال: وهو انتقاش الكائنات بأسرها في النفوس الجزئية الفلكية المنطبعة في أجرامها، معينة مشخصة، مقارنة لأوقاتها، على ما يقع بعينه في هذا العالم، وهو المعبر عنه في الشرع بالسماء الدنيا، إذ هو أقرب مراتب الغيوب إلى عالم الشهادة.

قال في الصحاح:

التدبير في الشيء: النظر فيما يئول إليه عاقبته، ثم استعمل في كل تأمل.

(**والخلائق**): جمع خليقة وهي الأشياء المخلوقة، فعيلة بمعنى مفعولة، والتاء للنقل، وإنما جمع ليعلم أن تدبير الكل إليه من العالم العلوي والسفلي من أعلى العرش إلى ما تحت الثرى، لا يشغله شأن عن شأن؛ لأن تدبيره لعالم الأرواح كتدبيره لعالم الأشباح، وتدبيره للكبير كتدبيره للصغير، لا يختلف بالنسبة إلى قدرته أحوال شيء من ذلك في الإيجاد والإعدام والمنع والعطاء.

(باعث الرسل، صلواته وسلامه عليهم)

(**باعث الرسل**): أي: مرسلهم.

(صلوات الله وسلامه عليهم): الرسول: من جمع إلى المعجزة الكتاب المترل.

والنبي : من ينبئ عن الله، وإن لم يكن معه كتاب.

وإنما أمر بأن يدعو إلى شريعة من قبله، كيوشع، كذا في مواضع من الكشاف.

وفيه بحث لأنه غير جامع:

أما أولاً: فلأن الرسول قد يكون ملكًا إلا أن يخصص بالرسول البشري لأنه المتعارف.

وأما ثانيًا: فلأن لوطًا وإسماعيل وأيوب ويونس وهارون كانوا من المرسلين، كما ورد التتريل، مع أهم لم يكونوا أصحاب كتب مستقلة.

فالأولى أن يقال:

الرسول: من جاء إليه الملك ظاهرًا أو أُمر بدعوة الخلق. والنبي: من رأي في النوم أو أخبره رسول بأنه نبي، ذكره الإمام.

أو: الرسول: من بعثه الله بشريعة مجددة، يدعو الناس إليها.

والنبي : يعمه، وهو من بعثه الله لتقرير شرع سابق. قاله القاضي البيضاوي.

وفي مسند أحمد مرفوعًا: «**إن عدة الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، والرسل منهم ثلاثمائة وخمسة عشر**».

والمشهور أن أولي العزم: محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح، الأفضلية بهذا الترتيب، والخاتم من أغلق به باب النبوة.

فإن قلت: سياق الكلام يقتضي أن يكون لتلك الأوصاف مدخل في اقتضاء الحمد؛ لأن ترتيب الوصف على الحكم مشعر بالعلية، كما تقرر في الأصول، فما وجهه؟

قلتُ: أما ربوبيته للكل بالأمداد الرزقية والحفظية فظاهر أنه من المنح الجليلة، فتقتضي الحمد.

وأما قيامه بأمر السماء والأرض، فإنه لولاه لاختل العالم فلا يمكن لهم اكتساب المعارف الإلهية واللطائف اليقينية، إذ صلاح المعاد بانتظام أمر المعاش.

وأما تدبيره لأمور الجمهور، فهو إفاضة وجودهم وصفاقم وجلائل النعم عليهم وما يتوقف عليه بقائهم، ولا يخفى أنه من النعم العظمية أيضًا.

وأما بعثه الرسل؛ فلأن الخلق بسبب احتجاهم بالنشأة عن نور الفطرة، وبعدهم عن الحق لا يمكنهم تلقي المعارف والعلوم من رهم، بل لابد لهم من واسطة تناسب الحضرة الأحدية من وجهة ، والرتبة البشرية من وجه، فيستفيض بسره المشاهد للحق، ويفيض بظاهره المخالط للخلق، وهم الرسل، فكانت بعثتهم من النعم الجسام، والمنن العظام.

« إلى المكلفين لهدايتهم »

(**إلى المكلفين**): أي: العقلاء البالغين، والعقل الذي هو مناط التكليف غريزة يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات، قاله الإمام.

وقد تطلقه الحكماء على جوهر مجرد ليس بحال، ولا محل ولا مركب، ولا مدبر، وعلى النفس الناطقة التي يشير إليها كل واحد بقوله: "أنا"، وهي: جوهر مجرد عن المادة مقارن لها في فعلها، ولها قوتان:

إحداهما: قوة بها تتوجه النفس إلى إدراك حقائق الموجودات والإحاطة بأصناف المعقولات، وتسمى : عقلاً نظريًا.

والأخرى: قوة بها تتصرف بالرأي والرؤية في الموضوعات المادية، وتستنبط صناعات بها ينتظم أمر المعاش، ويسمى عقلاً عمليًا.

وفي كلام بعض الصوفية: إنه جوهر نظري يتميز به الصلاح من الفساد، والخير من الشر، فإن تعلق بالخالق فهو عقل الهداية والمعاد، وإن تعلق بالخلق فهو عقل المغارس والمعاش.

(**لهدايتهم**): إلى ذات الله وصفاته وأفعاله، وهي الدلالة الموصلة إلى المطلوب، تتعدى بنفسها وإلى واللام، ويقابلها الضلالة، كذا في الكشاف.

وهداية الله على أنواع غير محصورة لكنها منحصرة في أجناس مترتبة:

الأول: إفاضة القوى المدركة، ومنه: ﴿**أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**﴾ [طه: ٥٠].

والثاني: نصب الدلائل الفارقة بين الحق والباطل: ﴿**وهديناه النجدين**﴾ [البلد: ١٠].

والثالث: الدعوى بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ومنه: ﴿**وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا**﴾ [الأنبياء:٧٣].

والرابع: كشف السرائر على الضمائر بالوحي والإلهام والحدس والمنام، ومنه: ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والخامس: الإيصال إلى الجنة، ومنه: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ [الأعراف:٤٣].
وهداية الرسل بدلالة العوام إلى الجنة، وبإرشاد الخواص إلى طريق السير في الله، ليمحو عنهم ظلمات أحوالهم، ويميط غواشي أبدانهم، ويستضيئون بنور القدس، ويرونه بنوره في مجامع الأنس.

(وبيان شرائع الدين)

(**وبيان شرائع الدين**): الشريعة لغة: نهج الطريق الواضح إلى الماء.
واصطلاحًا: الطريقة الإلهية المثبتة للأحكام المتضمنة لمصالح العباد وعمارة البلاد والنجاة في المعاد، وشبهت بها لأنها طريق إلى ما هو سبب الحياة الأبدية، هكذا ذكره القاضي في التفسير.
و(**الدين**) لغة: هو الطاعة والجزاء.
وشرعًا: وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى ما هو خير لهم بالذات.
والدين والملة يتحدان ذاتًا، ويختلفان اعتبارًا، فإن الشريعة من حيث إنها تطاع تسمى: "دينًا"، ومن حيث إنها يجمع عليها تسمى: "ملة".
وقوله: "لهدايتم" إشارة إلى البعثة وهي دعوة الخلق إلى الحق وإرشاد الخلائق إلى مصالح المعاش والمعاد، وإعلامهم بما يعجز عن معرفته عقولهم، كالحشر والنشر وأحوال الجنة والنار وتعيين وظائف الطاعات وأوقاتها، وبيان الحدود والأحكام بالدلائل، وذلك لأن الإنسان لما لم يكن بحيث يستقل وحده بأمر معاشه من غذائه ولباسه ومسكنه، بل لا يتم إلا بمشاركة من أبناء جنسه ومعاونة ومعاوضة يجريان بينهما.
والظلم من شيم النفوس، إذ كلّ يشتهي ما يفتقر إليه احتيج إلى عدل متفق عليه، ولما كانت الجزئيات غير محصورة مست الحاجة إلى قوانين كلية، وهي شرائع الدين ولابد لها من شارع ممتاز باستحقاق الطاعة، لينقاد له المكلفون في قبول الشريعة، وذلك باختصاصه بآيات ظاهرة ومعجزات باهرة، دالة على أنه من عند الله، كما أشار إليه المصنف بقوله:

(بالدلائل القطعية وواضحات البراهين، أحمده على جميع نعمه)

(**بالدلائل**): أي: حال كونهم متلبسين بالدلائل، جمع دليل وهو: المرشد لغة.
واصطلاحًا: ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى العلم بمطلوب خبري، والمراد بها: المعجزات الدالة على صدقهم، ليمتازوا باستحقاق الطاعة وتقبل منهم الأحكام، وتطاع شريعتهم مدى الأيام.

(**القطعية**): الموجبة للعلم؛ لأنها تقطع معارضة الخصم إذا حصل القطع والجزم بغلبتها، ويقابلها: "الظنية".

(**وواضحات البراهين**): أي: البراهين الواضحة دلالتها على المقاصد.

قال الزمخشري في الأساس: "البرهان: بيان الحجة وإيضاحها من البرهرهة وهي: البيضاء من الجواري، كما اشتق السلطان من : السليط؛ لإضاءته.

(**أحمده**): أثبت أولاً الحمد لله، وعقبه بأوصاف هي من المواهب وأعظم المنن، وكان كل منها مقتضيًا لتجديد الحمد، فعدل عن الجملة الإسمية إلى الفعلية، وأيضًا: عمم أولاً، ثم خصصه بإسناده إلى نفسه.

وقال: أحمده (**على جميع نعمه**): جمع نعمة، وهي الحالة المستلذة، فأطلقت على كل مستلذة.

وقيل: المنفعة الخالصة عن الضرر، ولذا اختلف في أن الجاحد منعم عليه أو لا، وهي: إما دنيوية، أو أخروية.

والأول: إما وهبي: كخلق البدن والقوى ونفخ الروح وإشراقه بالعقل وما يتبعه.

أو كسبي: كتخلية النفس عن الرذائل وتحليتها بالفضائل.

والأخروية: أن يغفر الله ما فرط منه ويرضى عنه، ويبوأه في أعلى عليين مع النبيين والصديقين.

(وأسأله المزيد من فضله وكرمه، وأشهد أن لا إله إلا الله)

(**وأسأله المزيد من فضله**): أي: من إفضاله وإحسانه، والفضل والفضيلة خلاف النقص والنقيصة، وهي الزيادة على الاقتصاد، فمنه: محمود؛ كفضل العلم والحلم.

ومذموم كفضل الشهوة.

(**وكرمه**): الكرم ضد اللؤم، وهو اجتماع الخير وكثرته، كذا قيل، والتحقيق: أن الكرم يستعمل بمعنى نفي النقائص عن الشيء ووصفه بجميع المحامد، وبمعنى إيثار الصفح عن الجاني، وبمعنى السؤدد الذي يكون عن بذل المعروف.

(**وأشهد أن لا إله إلا الله**): أي: لا معبود بحق إلا هذا الفرد الموجود الحق الجامع لصفات الألوهية، الحاوي لنعوت الربوبية، فالتوحيد لا يحصل إلا بأن يكون الإله، بمعنى:

المعبود بحق، ويجعل (الله) علمًا للذات لا اسمًا لمفهوم واجب الوجود، وألا يلزم الكذب إن أريد بالإله مطلق المعبود، لكثرة المعبودات الباطلة، أو استثناء الشيء من نفسه إن لم يجعل علمًا.

وللإمام الرازي ههنا سؤال مشهور ، وهو: إنه إن قدر لا إله في الوجود إلا الله لجاز أن يكون في الإمكان، وإن قدر في الإمكان يصير المعنى: "لا إله ممكن إلا الله"، فإنه ممكن، وإن قدر لا إله في الوجود والإمكان يصير المعنى: "لا إله ممكن موجود إلا الله" فإنه موجود ممكن.

والجميع باطل؛ فلا يتم بها التوحيد، لكنها كلمة توحيد اتفاقًا.

وجوابه أن يقال: التقدير: "لا إله موجود أزلاً وأبدًا إلا الله، فإنه موجود أزلاً وأبدًا؛ لأنها سالبة ضرورية خارجية، فيكون معناه: "الوجود ضروري السلب عن كل فرد من أفراد الإله حال الحكم وقبله وبعده"، إذ يجب أن يثبت للمستثنى ما نفي عن المستثنى منه، وإذا ثبت أن الوجود ضروري السلب عن جميع أفراد الإله غير الله لم يتصف إله غير الله بوجود أزلاً وأبدًا، وإلا لم يكن وجوده ضروريًا، وإذا كان كذلك يحصل به التوحيد؛ لأن المراد نفي تعدد وجود المعبود بالحق أزلاً وأبدًا.

والشهادة: هي الإخبار بصحة الشيء الناشئ عن العلم، وهي أخص من الإقرار والعلم ؛ إذ العلم قد يخلو عن الإقرار، وهو عن العلم . والشهادة جامعة لهما. و"إن" هي المخففة من المثقلة، والجملة مقول: أشهد.

(الواحد القهار، الكريم الغفار)

(الواحد): المتعال عن التجزئ والانقسام، فإن الواحد يطلق ويراد به عدم الانقسام، ويكثر إطلاق الأحد بهذا المعنى، والله سبحانه من حيث إنه منزه عن التركيب: "واحد"، ومن حيث إنه متعال عن الشبيه: "أحد". ذكره القاضي عياض.

وفي جامع الأصول : إن الأحد بُني لنفي ما يذكر معه من العدد، ويطلق على المذكر والمؤنث.

و"الواحد" : وضع لمفتتح العدد، ولا يستعمل إلا في الإثبات، هذا هو الفرق لفظًا.

وأما معنى: فلأن "الأحد": المنفرد باعتبار الصفات، و"الواحد": باعتبار الذات، ولذا قال بعض الصوفية: "الواحد": المتره عن الشريك، المماثل مع جواز اعتبار الكثرة الاعتبارية بحسب صفاته. و"الأحد": المتره عن التعدد والتكثر فيه بحسب ذاته.

والوصفان سلبيان لازمان له، من غير اعتبار الغير، فإن الأحد نفي اعتبار الغير معه حتى الصفات التي هي اعتبارات. والنسب لا وجود لها في الخارج، كما قال علي كرم الله وجهه: "وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه".

(**القهار**): أي: الذي ما من موجود إلا وهو مقهور قدرته، ومسخر لقضائه، عاجز عن قبضته.

(**الكريم**): أي: المقدس عن النقائص والعيوب.

(**الغفار**): أي: الذي يستر العيوب والقبائح بإسبال الستر في الدنيا وعدم المؤاخذة في العقبى.

(وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وحبيبه وخليله)

(**وأشهد أن محمدًا**): سمي به لكثرة حامديه، أو لكثرة خصاله المحمودة.

(**عبده ورسوله**): جمع بينهما ليدفع الإفراط والتفريط الذي وقع في شأن عيسى عليه السلام، وقدم العبد ترقيًا من الأدنى للأعلى.

وفي كلام الصوفية: إنه لا مقام أشرف من العبودية، إذ بها ينصرف من الخلق إلى الحق، وينعزل عن التصرفات، وبالرسالة من الحق إلى الخلق، ويقبل على التصرفات، لذا قال: ﴿**أسرى بعبده**﴾ [الإسراء:١]، ولم يقل: برسوله، فلا يكون ترقيًا.

والعبد الحقيقي: من يكون حرًا عن الكونين، وهو نبينا ﷺ إذ يقول: «**أمتي أمتي**»، وكل نبي يقول: «**نفسي نفسي**» ، ولأنه هو الذي صحح نسبة العبودية كما ينبغي فأطلق عليه اسم: "العبد" في القرآن ، وقيد لسائر الأنبياء، وهو من قولهم: "طريق معبد": أي مذلل، بكثرة الوطء، فسمي به لذلته وانقياده.

(**وحبيبه وخليله**): أما كونه حبيبًا، فلقوله: «**ألا وأنا حبيب الله ولا فخر**».

وعن الإمام جعفر الصادق أنه قال: "أظهر الله اسم الخلة لإبراهيم، وأخفى اسم المحبة لمحمد، لتمام حبه؛ إذ لا يحب الحبيب إظهار حال الحبيب، لئلا يطلع عليه سواه، وقال لنبيه لما أظهر له حالة المحبة: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾ [آل عمران: ٣١]، إشعارًا بأنه لا طريق إلى محبته إلا باتباع حبيبه".

وأما كونه خليلاً، فلقوله: «**لو كنت متخذًا خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً**»، نفى أن يكون له خليل غير ربه، فثبتت خلته.

إذا تقرر هذا فنقول:

الخليل: هو الصديق المفتقر إليه، والمعتمد في كل الأمور عليه، أو المحب الكامل الموفي بحقيقتها، الذي ليس فيه تقصير ولا خلل، سمي به إبراهيم لأنه إما من: الخَلة -بالفتح- وهي الخصلة، لأنه تخلق بخصال حسنة اختص بها لاختصاص الانقطاع؛ لأنه انقطع إلى ربه بهمة وقصر حاجته عليه حيث قال لجبريل: «**إما إليك فلا**».

أو من التخلل؛ لأن الحب تخلل وسط قلبه، واستولى عليه.

أو من الخُلة -بالضم- وهي الصداقة التي توجب تخلل الأسرار والحاجة لأنه بريء من الافتقار إلى أحد غير الله.

وجميع ذلك موجود في نبينا محمد ﷺ فلا جرم جعله الله خليلاً، وهو أبلغ من الصاحب والرفيق، إلا أنه أعم من الحبيب.

وسمي محمدًا ﷺ : "حبيبًا" لأنه أحاطت المحبة بحبة قلبه، فكأن المحبة جعلت ثلمة في قلب الخليل لما تخللت فيه فصار بها خليلاً، كما يجعل بالخلال فرجة في الأسنان، وملئت قلب الخليل وأحاطت به وشملت جميع وجوده فصار حبيبًا، إذ المحبة مأخوذة من الحبة، وهو خالص كل شيء وداخله، ومنه: "حبة القلب".

هذا تحقيق بديع مجموع من أشتات كلام الأئمة.

وسيجيء معنى المحبة وأقسامها على وجه لم يسبق إليه . وبالله تعالى التوفيق.

فصـــــل

وأما ما يظنه بعض الغالطين: أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله، ومحمدًا حبيب الله، فمن جهله؛ فإن المحبة عامة، والخلة خاصة، والخلة نهاية المحبة، وقد أخبر النبي

ﷺ أن الله اتخذه خليلاً، ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها الصديق ولعمر الفاروق وغيرهم.

وأيضًا: فإن الله ﷻ يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب المتقين ويحب المقسطين، والشاب التائب حبيب الله.

وخلته خاصة بالخليلين.

هذا، قال ابن القيم الجوزي في كتابه "الجواب الكافي عن الدواء الشافي":"وظن أن المحبة أرفع وأن إبراهيم خليل ومحمدًا حبيب غلط وجهل".

(أفضل المخلوقين المكرم بالقرآن العزيز)

(أفضل المخلوقين): لأن الأنبياء أفضلهم، وهو أفضلهم؛ لقوله تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿**ورفعنا لك ذكرك**﴾ [الشرح:٤]، ولأن معجزاته أكثر، ودينه أقوى، وإلا لم ينسخ به سائر الأديان، ولأن أمته أفضل لقوله: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولا شك أن خيرهم بحسب كمالهم في الدين وذلك بكمال نبيهم الذي يتبعونه، والاستدلال بقوله: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»(١) ضعيف؛ لأنه لا يدل على كونه أفضل من آدم، مع كونه أفضل من آدم، بل من أولاده وغير ذلك.

أما قوله ﷺ : «**لا تفضلوا بين الأنبياء**»(٢)، فالنهي عن تفضيل يؤدي إلى الخصومة، أو أن ينتقص المفضول، أو في نفس النبوة لا سائر الفضائل، ﴿**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض**﴾ [البقرة: ٢٥٣].

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك (٦٦٠/٢)ح(٤١٨٩)، وقال: حديث صحيح الإسناد، و لم يخرجاه، وابن ماجه (١٤٤٠/٢)ح(٤٣٠٨)، وابن أبي شيبة (٣٥١/٦)ح(٣١٩٤٩)، وأبو يعلى في مسنده (٢٨١/٧) ح(٤٣٠٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٣٦٩/٢-٣٧٠)ح(٧٩٢).

(٢) لم أجده، وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣٠٥/١)، والشيخ النووي في شرح صحيح مسلم (٣٧/١٥)، والشيخ العظيم آبادي في عون المعبود (٢٧٨/١٢)، والسيوطي في الديباج (٣٥٩/٥)، والمناوي في فيض القدير (٤٢/٣)، والحافظ ابن حجر العسقلاني في تغليق التعليق (٣٤٦/٥).

(**المكرم بالقرآن**): الذي هو أفضل ما عظم به من المعجزات لأنه اطلع بواسطته على أسرار التوحيد، ونعوت الجلال والإكرام وأحوال الملائكة والأنبياء، وعلى كيفية القضاء والقدر، وتعلق أحوال العالم السفلي بالعالم العلوي، وعلى الأحكام الإلهية المقتضية إلى صلاح المعاش والمعاد.

(**والقرآن**): مصدر: قرأ، بمعنى: الجمع، نقل إلى هذا المجموع المقر والمترل على الرسول ﷺ، المنقول عنه فيما بين الدفتين، تواترًا، وهذا هو المراد هنا، وقد يطلق في الأصول على القدر المشترك بينه وبين أجزائه، الذي يحصل به الإعجاز.

(**العزيز**): أي الخطير، الذي يقل وجود مثله وتشتد الحاجة إليه ويعسر الوصول إليه؛ لأنه مصداق ما بين يديه من العلوم النازلة على الأنبياء السابقين، وذلك لأن الغالب على موسى عليه السلام عند الرجوع إلى البقاء بعد الفناء بالوجود الموهوب، قوة النفس وسلطانها، ولهذا أخذ برأس أخيه يجره إليه، وقال عند طلب التجلي: ﴿**رب أرني أنظر إليك**﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وكان أكثر التوراة علم الأحكام التي تتعلق بأحوال النفس وتهذيبها ودعوته إلى الظاهر، والغالب على عيسى عليه السلام: قوة القلب ونوره، ولهذا تجرد عن ملابس الدنيا وأمر بالترهب وقال لبعض أصحابه: "إذا لطمت في خدك فأدر الخد الآخر لمن لطمك".

وكان أكثر الإنجيل: علم تجليات الصفات والأخلاق والمواعظ المتعلقة بأحوال القلب وتصفيته وتنويره.

والغالب على نبينا محمد ﷺ : سلطان الروح ونوره، وقوة التوحيد الشامل لكمال الكل، فكان جامعًا لمكارم الأخلاق متممًا لها، وكان القرآن شاملاً لما في الكتابين من العلوم والمعارف والأحكام مع زيادات في المحبة والتوحيد والدعوة إليه، بل تجلى الحق لعباده في كلامه، ولكن لا يبصرون، قاله الإمام الصادق. فيكون عزيز الوجود، غزير المكارم والجود.

(المعجزة المستمرة على تعاقب السنين، وبالسنن)

(**المعجزة**): هي الأمر الخارق للعادة، الظاهر من نفس خيرة الداعي إلى السعادة، المقرون بالتحدي مع عدم المعارض .

وإعجازه: إما لصرف الله الناس عن المعارضة، وسلبه مقدرتهم عليها، أو عدم ابتذاله بكثرة المداولة، أو لإخباره عن المغيبات مع أن الآتي بالقرآن أمي، أو لكونه بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة، بحيث لا يقدر بليغ على الإتيان بمثله، وهذا هو الحق.

وكما أن الإتيان بأقصر سورة منه فوق حد البشر، فكذلك صف بلاغته فوق طاقة البشر، فدع عنك بحرًا ضل فيه السوابح، ولله در صاحب المفاتح حيث قال: واعلم أن شأن الإعجاز عجيب، يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن والملاحة، فمدرك الإعجاز هو الذوق.

وتأنيثه: إما للمبالغة، أو باعتبار الآيات.

(**المستمرة على تعاقب السنين**): لأن الله تكفل حفظها، فلم تزل طائفة يدرسونه ويحفظونه باحتياط بليغ وجدٍّ كامل، ولم يقدر أحد على تحريف حرف منه، بل لحنه، فبقي بعد ثمانمائة سنة كذلك، فلم يبق للموحد شك في إعجازه بخلاف غيره من الكتب، فإن الله لم يتولَ حفظها، بل استحفظها الأحبار والرهبان فاختلفوا فيما بينهم، ووقع التحريف.

والمكرم (**بالسنن**): جمع سُنة، وهي: الطريقة. وشرعًا: قول رسول الله ﷺ وفعله وتقريره، أو: ما وضعه الرسول فرضًا أو نفلاً، وهي فعلة بمعنى مفعولة، من سنّ الماء يسنه، إذا والى صبه، فكأنه أجراه على نهج واحد.

أو من: سننت النصل، أحددته. أو من: سن الإبل، إذا أحسن رعيها.

(المستنيرة للمسترشدين، المخصوص بجوامع الكلم وسماحة الدين، صلوات الله وسلامه عليه)

(**المستنيرة للمسترشدين**): أي: الهادية المضيئة لطلاب الرشاد، وسُلاّك طريق الحق والسداد، إذ لا محيص من ظلمات البدعة والضلالة إلا بالاستضاءة بأنوار السنة والهدى.

(**المخصوص بجوامع الكلم**): تلميح إلى قوله: «**أوتيت جوامع الكلم**» ، أو: «**بعثت بها**» ، وهو القرآن، جمع الله سبحانه بلطفه معاني كثيرة في ألفاظ يسيرة، أو إيجاز الكلم في إشباع المعاني، فالكلمة القليلة الحروف تتضمن كثيرًا من المعاني، كذا في شرح السنة.

وبلسان العارفين، معناه: بعثت بالسنة، الصفات وكلمات المقامات من بحر الحقائق، يظهر الحق بلساني وبياني بيان الحق الذي تكلم به للخلق، وهو إشارة إلى عين الجمع.

والتركيب من باب القلب أو تضمين معنى التمييز والتعيين، كما في قول الزمخشري: "نخصك بالعبادة".

(**والكلم**): جمع كلمة، وهي اللفظ المفرد، أطلقت على الكلام الكثير المرتبط بعضه ببعض، كالقصيدة. والشهادة: مجازًا مرسلاً من باب إطلاق اسم الجزء على الكل، واستعارة مصرحة لمشابهة المفرد في الوحدة وتركيب "ك ل م" يفيد القوة والشدة، ولذا سميت الكلمة: كلمة؛ لأنها تقرع السمع.

(**وسماحة الدين**): إشارة إلى قوله: «**بعثت بالحنيفية السمحة السهلة**» ، لأنه وضع على الأمم السابقة التكاليف الشاقة، كتعيين القصاص عمدًا كان القتل أو خطأ، من غير مشروع الدية، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض موضع النجاسة من الثوب والجلد من غير إيجاب الغسل، وإذا أذنب أحدهم أصبح مكتوبًا ذنبه على بابه، فيحد وغيرها.

وفي مجيء الصفات لله والرسول ﷺ هكذا مسرودة بلا عطف، إيذان باستقلال كل صفة على حيالها، ولما كانت مستمرة أوردها بجملة اسمية.

(**صلوات الله وسلامه عليه**): الصلاة من الله: الرحمة، ومن الملائكة: الاستغفار، ومن المؤمنين: الدعاء، هذا هو المشهور، قالوا: والتحقيق: أنها تستعمل في قدر مشترك بينها وهو الأمداد، لأن المدد كما يصل من فوق بالإضافة، يصل من تحت بالاستضافة، حتى لا يلزم استعمال المشترك في معانية، وإن جوزه الشافعي.

ومعنى الصلاة عليه: تعظيمه في الدنيا بإعلاء كلمته وإبقاء شريعته، وفي الآخرة: بتعظيم مثوبته.

والسلام: إعطاء السلامة، أي: التعري من الآفات الظاهرة والباطنة.

(وعلى سائر النبيين والمرسلين وآل كل وسائر الصالحين.

أما بعد: فقد روينا عن علي بن أبي طالب)

(**وعلى سائر النبيين**): "السائر" بمعنى: الباقي، من السؤر، بالهمز وهو : البقية، ويستعمل بمعنى الجميع من : سؤر المدينة، لأنه جامع، قاله في الصحاح، لكنه ليس بصحيح، ذكره في النهاية.

(**والنبي**): من النبأ؛ لأنه المنبئ عن عالم الغيب ما تستقل العقول بإدراكه، فعيل بمعنى فاعل، أو من النبوة، وهي الارتفاع، لعلو شأنه، فعيل بمعنى مفعول، واستعمل بمعنى الجميع، قاله في الصحاح.

(وآل كل): أي: أقاربهم أو من اختص بهم من حيث العلم والعمل، وأصله: "أهل" بدليل: "أهيل" و"أهال"، أبدلت إلى : "أول" على خلاف القياس. ثم على "آل" وجوبًا. ولا يستعمل إلا فيما له خطر، فلا يقال: "آل الحائك".

(وسائر الصالحين): جمع صالح، وهو القائم بحقوق الله وحقوق العباد، والصلاح: هو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة، ويقابله: الفساد، أي خروج الشيء عن أن يكون منتفعًا به.

(أما بعد): هو فصل الخطاب الذي أوتي داود عليه السلام في قوله: ﴿**وآتيناه الحكمة**﴾ .. إلى آخره.

(وأما): للتفصيل، يقتضي متعددًا لفظًا أو تقديرًا، وفائدته: المبالغة في الشرط بحصول جوابه، لأنه جعل لازمًا لحصول ما هو واجب الوقوع، ولذا قال سيبويه: "معناه: مهما يكن من شيء"، أي في الدنيا.

(وبعد): ظرف لما في حيز جوابه، وهو قوله: **(فقد روينا)**، بصيغة المجهول مخففًا، أي: روي إلينا سماعًا أو قراءة أو إجازة خاصة أو عامة أو مناولة أو مكاتبة، أو إعلامًا، أو وجادة، أو بصيغة المعروف ليكون قوله "أن" مع صلتها مفعولاً له وجعله مشددًا بعيد، رواية ودراية.

(عن علي بن أبي طالب): هو أول من أسلم من الصبيان وله سبع سنين أو ثمان، شهد المشاهد كلها، إلا تبوك، أخو رسول الله ﷺ وصهره، وبعل سيدة نساء العالمين، وأحد العلماء الربانيين، بل أوحدهم، والشجعان المشهورين، بل أشجعهم، استشهد غداة الجمعة سنة أربعين من ضربة عبد الرحمن ملجم، لسبع بقين من رمضان، ومات بعد ثلاث، وكان له ثلاث وستون سنة، ودفن عند مسجد الجماعة في الرحبة، ما يلي أبواب كندة، قاله الصاغاني، أو في قصر الإمارة عند المسجد الجامع، وغيب قبره وصلى عليه ابنه الحسن، كذا في تاريخ اليافعي.

ومدة خلافته: خمس سنين إلا ثلاثة أشهر، ونقش خاتمه: الملك الله. وكنيته: أبو الحسن، وأبو تراب، كناه النبي ﷺ لما وجده نائمًا بالمسجد وقد علق التراب بجسمه، وقال: «**قم يا أبا تراب**»، ولقب أيضًا: حيدرة.

ومروياته: خمسمائة وستة وثمانون حديثًا.

(وعبدالله بن مسعود ومعاذ بن جبل وأبي الدرداء وعبدالله بن عمر وابن عباس وأنس بن مالك وأبي هريرة)

(وعبدالله بن مسعود): الهذلي، صاحب سواك رسول الله ﷺ وطهوره ونعله في السفر، توفي بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع وهو ابن بضع وستين أو سبعين، ومروياته: ثمانمائة وثمانية وأربعون حديثًا.

(ومعاذ بن جبل): الأنصاري، شهد بدرًا ومشاهد بعدها، وبعث إلى اليمن قاضيًا ومعلمًا، مات في طاعون عمواس بالأردن، سنة ثمان عشرة، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ومروياته: مائة وسبعة وخمسون حديثًا.

(وأبي الدرداء): عويمر بن عامر الأنصاري، كان فقيهًا عالمًا، شهد المشاهد وسكن الشام ومات بها سنة اثنتين وثلاثين، ومروياته: مائة وتسعة وسبعون حديثًا.

(وعبدالله بن عمر) : أسلم مع أبيه وهو صغير ، وكان شديد الاتباع لأفعال رسول الله ﷺ وآدابه ، توفي بمكة سنة ثلاث وسبعين، وولد قبل الوحي بسنة، مروياته: ألفان وسبعمائة وثلاثون حديثًا.

(وعبدالله بن عباس): حبر الأمة وعالمها، رأى جبريل مرتين، ومات بالطائف سنة ثمان وستين وهو ابن سبعين، ومروياته: ألف وستمائة وثمانية وستون حديثًا، وهو أحد العبادلة الأربعة: عبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمرو، وعبدالله بن الزبير. قاله أحمد بن حنبل وسائر المحدثين.

وأما قول الجوهري: أن ابن مسعود أحد العبادلة فأدخله فيهم وأخرج ابن عمر فغلط.

(وأنس بن مالك): ابن ضمضم الأنصاري، خدم رسول الله ﷺ وهو ابن عشر سنين، ودعا له بكثرة المال والولد وطول العمر، فأثمرت أرضه كل عام مرتين، ودفن من صلبه سوى أسباطه: خمس وعشرين ومائة نفس، ومات بالبصرة بعد أن عمر أكثر من مائة، وهو آخر من مات من الصحابة فيها.

ولد قبل الهجرة بعشر، ومات سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث وتسعين، ومروياته: ألفان ومائتا حديث وستة وثمانون حديثًا.

(وأبي هريرة): الدوسي، عبد الرحمن بن صخر، على الأصح من ثلاثة وثلاثين وجهًا، كان في صغره يلعب بهرة، وفي كبره يحسن إليها، فكني بها، أسلم سنة ست ، وكان عريف أصحاب الصفة، ومات سنة تسع أو سبع وخمسين بالمدينة وله ثمان وسبعون سنة، وأحاديثه المرفوعة: خمسة آلاف وثلثمائة وأربعة وسبعون.

(وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم من طرق كثيرات بروايات متنوعات: أن رسول الله ﷺ)

(أبي سعيد الخدري): وأبي سعيد الخدري منسوب إلى خدرة بدال مهملة، اسم قبيلة من الأنصار، كان من الحفاظ المكثرين، والعلماء الصالحين الفاضلين، مات سنة أربع وسبعين وله أربع وتسعون سنة، ودفن بالبقيع، ومروياته: ألف ومائة وسبعون، رضي الله عنهم.

(من طرق كثيرات بروايات متنوعات: أن رسول الله ﷺ): هو أبو القاسم محمد ابن عبدالله، خاتم النبيين، وسيد المرسلين.

حملت به أمه في أيام التشريق في شعب أبي طالب عند الجمرة الوسطى، وولد بمكة عام الفيل، أو قبله بثلاثين أو أربعين يومًا.

ومات أبوه لما أتى عليه شهران أو سبعة أشهر.

ولما بلغ ستًا أو أربعًا ماتت أمه، وكان في حجر جده عبد المطلب ثماني سنين وشهرين وعشرة أيام، فتوفي ووليه أبو طالب وذهب به إلى الشام بعدما تم له اثنتا عشرة سنة وشهران وعشرة أيام، وعاد من بصرى، وخرج إليها مرة أخرى مع ميسرة غلام خديجة رضي الله عنها لتجارة لها.

وتزوجها بعدما بلغ خمسًا وعشرين سنة، وبقيت عنده ثماني عشرة سنة.

ولما بلغ خمس وثلاثين شهد بنيان الكعبة، ولما تم له أربعون سنة بعثه الله رحمة للعالمين، بشيرًا ونذيرًا، فما من شجر ولا حجر إلا سلم عليه: السلام عليك يا رسول الله.

وفرض عليه التوحيد والتبليغ وقراءة القرآن.

ولما أتت عليه إحدى وخمسون سنة وتسعة أشهر، أسري به وخص بالرؤية، وفرض عليه خمس صلوات.

ولما بلغ ثلاثًا وخمسين هاجر إلى المدينة، يوم الإثنين لثمان خلون من ربيع الأول، ودخلها يوم الإثنين.

وأذن له في السنة الثانية بالجهاد، لمن ابتدأ به في غير الأشهر الحُرم والحَرم، ثم أبيح ابتداؤهم فيهما أيضًا، وفرض فيها صوم رمضان.

وأما الزكاة: فقيل: فرضت قبله، وقيل بعده.

وفرض الحج في السنة السادسة أو الخامسة، وفيها بيعة الرضوان.

وفي الثامنة : فتح مكة، وفي العاشرة : حجة الوداع، وكانت وقفة عرفة فيها يوم الجمعة بالإجماع، و لم يحج بعد الهجرة إلا إياها، وقبلها لم تضبط حجاته، واعتمر أربعًا .

وكانت غزواته سبعًا وعشرين، وسراياه ستًا وخمسين.

وتزوج إحدى وعشرين امرأة، طلق ستًا ومات وعنده خمس ، فتوفي عن عشرة لم يدخل بواحدة منهن.

وأولاده ثمانية.

ولما بلغ ثلاثًا وستين اختاره الرفيق الأعلى ، يوم الإثنين، وسط النهار، لثنتي عشرة خلت من أول ربيع الأول، سنة إحدى عشرة، ودفن ليلة الثلاثاء أو الأربعاء.

هذا، وفي كون وفاته يوم الإثنين مع كون وقفة عرفة يوم الجمعة في السنة العاشرة إشكال يعرف بالتأمل.

(قال: «من حفظ على أمتي أربعين حديثًا من أمر دينها بعثه الله يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء »، وفي رواية: «بعثه الله فقيهًا عالمًا»، وفي رواية أبي الدرداء: «وكنت له يوم القيامة شافعًا وشهيدًا»، وفي رواية ابن مسعود: «قيل: ادخل من أي أبواب الجنة شئت»، وفي رواية ابن عمر: «كتب في زمرة العلماء، وحشر في زمرة الشهداء»).

(قال: «من حفظ على أمتي»): أي: لأجل تعليم أمتي رقيبًا عليهم، ففيه تضمين، ويجوز أن يكون حالاً ، أي: من حفظ أربعين مراقبًا إياها بحيث تبقى مستمرة على أمتي.

والحفظ: تارة يقال على قوة النفس التي بها تدبير ما يؤدي إليه الفهم، وتارة لضبط الشيء في النفس، وتارة لاستعمال تلك القوة.

وقال المؤلف: معنى الحفظ: أن ينقل الأحاديث إلى المسلمين وإن لم يحفظها، ولا عرف معناها.

والأمة: جمع لهم، جامع من دين أو زمان أو مكان، تطلق تارة على كل من بعث إليهم، ويسمونها أمة الدعوة، وأخرى على المؤمنين وهم أمة الإجابة، وهذا هو المراد.

وقد يطلق على الواحد تعظيمًا؛ كقوله تعالى: ﴿**إن إبراهيم كان أمة قانتًا**﴾ .

(**أربعين حديثًا**): الحديث ضد القديم، يستعمل في قليل الكلام وكثيره ؛ لأنه يحدث شيئًا فشيئًا. واصطلاحًا: أعم من قول رسول الله ﷺ أو الصحابي أو التابعي وفعلهم وتقريرهم، وإسرار القول ، والمراد هو الأول.

(**من أمر دينها**): أي: مما يتعلق بأمر دينهم، أصولاً وفروعًا.

(**بعثه الله تعالى يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء**): الزمرة: الجماعة من الناس.

والفقه لغة: العلم بفرض المخاطب.

واصطلاحًا: العلم بالأحكام الشرعية الفرعية المكتسبة من أدلتها التفصيلية. والعلم صفة توجب التمييز بين الأشياء، لا تحتمل النقيض .

وفي رواية: «**بعثه الله فقيهًا عالمًا**». وفي رواية أبي الدرداء ﷺ: «**وكنت له يوم القيامة شافعًا وشهيدًا**».

وفي رواية ابن مسعود ﷺ: «**قيل له: ادخل من أي أبواب الجنة شئت**».

فإن قلت: أي مما يقتضي صدر الكلام فلم قدم الفعل والجار؟

فالجواب: أنه إن بقي فيه الاستفهام فيحمل على الحذف، أي: ادخل، من أي أبواب الجنة شئت ادخل، وإلا كما في الحديث: فلا حاجة إلى ذلك، وإن جاز لرعاية حق الصورة.

وأما دخول الجار فبقدر الاستفهام قبله، وخص به لاتحاده بالمجرور، لشدة الاتصال بينهما، فكأنهما كلمة واحدة.

وفي رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما: «**كتب في زمرة العلماء وحشر في زمرة الشهداء**» .

الشهيد: المستشهد المقتول؛ لأنه مشهود له بالجنة، أو لأنه حي عند الله حاضر، أو لحضور الملائكة إياه.

(واتفق الحفاظ على أنه حديث ضعيف وإن كثرت طرقه. وقد صنف العلماء رضي الله عنهم في هذا الباب ما لا يحصى من المصنفات، فأول من علمته صنف فيه: عبدالله بن المبارك، ثم محمد بن أسلم الطوسي العالم الرباني ، ثم الحسن بن سفيان النسائي، وأبو بكر الآجري، وأبو بكر محمد ابن إبراهيم الأصفهاني ، والدارقطني ، والحاكم وأبو نعيم ، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو سعيد الماليني ، وأبو عثمان الصابوني ، وعبدالله بن محمد الأنصاري ، وأبو بكر البيهقي. وخلائق لا يحصون كثرة من المتقدمين والمتأخرين).

(**واتفق الحفاظ على أنه حديث ضعيف**): هو كل حديث لم يجتمع فيه شروط الصحيح والحسن بأن يكون بعض رواته مردودًا بواسطة عدم العدالة أو الرواية عمن لم يره أو سوء الحفظ أو تهمة في العقيدة أو عدم المعرفة بما يحدث عنه أو الإسناد إلى من لا يعرف أو بعلل أخر.

(**وإن كثرت طرقه**): الطرق: جمع طريق، وهو لغة: السبيل. واصطلاحًا: هم الرواة عن الرواة عن الصحابي وإن سفلوا، يقال: هذه رواية أبي هريرة من طريق البخاري ومسلم.

(**وقد صنف العلماء رضي الله عنهم في هذا الباب ما لا يحصى**): الإحصاء : عد الشيء قدرًا ووزنًا وعدًا، وفي الأصل: العد بالحصى؛ إذ كانوا يعتمدونه ، والمراد بذلك المبالغة والإفراط في العد والكثرة.

(**من المصنفات، فأول من علمته صنف فيه**): الأول: هو الفرد السابق، فلو قال: "أول عبد أشتريه فهو حر"، فلو اشترى عبدين في المرة الأولى لم يعتق واحد منهما؛ لفقد قيد الفردية، ولو اشترى في الثانية واحدًا لم يعتق لفقدان القيد السابق.

(**عبدالله بن المبارك**): الإمام المجمع على جلالته وإمامته تستنزل الرحمة بذكره، وترجى المغفرة بحبه، تابع التابعين ، توفي منصرفًا عن الجهاد سنة إحدى وثمانين ومائة وله ثلاث وستون سنة، كان أبوه مملوكًا لرجل من همدان.

(**ثم محمد بن أسلم الطوسي العالم الرباني**): منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون للدلالة على كمال الصفة كما يقال: "شعراني" وهو الكثيف الشعر الشديد المتمسك بدين الله وطاعته، كذا في الكشاف.

وعن المبرد أنه منسوب إلى ربان الذي يربي الناس بالتعليم وإصلاحهم.

وقال الصوفية: إنه الكامل من كل الوجوه، في جميع المعاني، توفي سنة اثنتين وأربعين ومائتين.

(**ثم الحسن بن سفيان الثوري**): محدث خراسان، رحل البلدان وسمع وصنف، وكان له كرامات، توفي سنة ثلاث وثلاثمائة.

(**وأبو بكر الآجري**): محمد بن الحسين، كان ثقة دينًا، وله تصانيف كثيرة، وحدث ببغداد، ثم انتقل إلى مكة واستوطنها فقال: اللهم أحيني في هذه البلدة ولو سنة، فسمع هاتفًا يقول: و لم سنة؟! ولكن ثلاثين سنة، فلما كملت قيل له: قد وفينا لك بالعهد، فمات سنة ستين وثلاثمائة.

(**وأبو بكر ابن إبراهيم العطار**) : مستملي أبي نعيم، كان ثقة، يملي من حفظه ، توفي بأصبهان سنة ست وستين وأربعمائة. (**الأصبهاني**): بالباء والفاء مع كسر الهمزة وفتحها والفتح أفصح.

(**والدارقطني**): أبو الحسين علي بن عمر الحافظ المنسوب إلى واحد من محال بغداد يقال له: دار القطن، ولد سنة خمس أو ست وثلاثمائة، ومات سنة خمس وثمانين وثلاثمائة.

(**والحاكم**): محمد بن عبدالله النيسابوري صاحب المستدرك، ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، ومات سنة خمس وأربعمائة.

(**وأبو نعيم**): محمد بن عبدالله مصنف حلية الأولياء، ولد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، ومات سنة ثلاثين وأربعمائة.

(**وأبو عبدالرحمن**) محمد بن الحسين (**السلميّ**): صاحب الحقائق، وطبقات الأولياء، كان عدلاً، ثقةً، أستاذ أبي القاسم القشيري والشيخ أبي سعيد بن أبي الخير وأثنى عليه الشيخ

عبدالله الأنصاري كثيرًا، وقد طعن فيه ابن الجوزي كما هو دأبه في شأن الأئمة، توفي يوم الأحد ثالث شعبان سنة اثنتي عشرة وأربعمائة.

(**وأبو سعيد**) أحمد بن محمد (**الماليني**): منسوب إلى مالين ، قرية بخراسان، كان ثقة متقنًا ، صنف وحدث ورحل إلى مصر ومات بها في شوال سنة اثنتي عشرة وأربعمائة.

(**وأبو عثمان الصابوني، وأبو عبدالله محمد الأنصاري الهروي**): منسوب إلى الأنصار وهم الأوس والخزرج، ولد سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، كان كثير السهر حدث وصنف قويًا في نصرة الدين، توفي بهرات يوم الجمعة من ذي الحجة، سنة إحدى وثمانين وأربعمائة.

(**وأبو بكر البيهقي**): الإمام الكبير مؤلف شعب الإيمان، ولد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، ومات سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وأورد المصنف لفظة ثم في الأولين لعلمه بالتأخر الزماني فيهما بخلاف البواقي.

(وخلائق لا يحصون كثرة من المتقدمين والمتأخرين.

وقد استخرت الله تعالى في جمع أربعين حديثًا اقتداءً بهؤلاء الأئمة الأعلام وحفاظ الإسلام.

وقد اتفق العلماء على جواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، ومع هذا فليس اعتمادي على هذا الحديث، بل على قوله ﷺ في الأحاديث الصحيحة: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب»، وقوله ﷺ : «نضر الله امرءًا سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها».

ثم من العلماء من جمع الأربعين في أصول الدين، وبعضهم في الفروع، وبعضهم في الجهاد، وبعضهم في الزهد، وبعضهم في الآداب، وبعضهم في الخطب، وكلها مقاصد صالحة رضي الله عن قاصديها)

ولما خصص المشاهير بالذكر عمم وقال: (**وخلائق لا يحصون من المتقدمين والمتأخرين، وقد استخرت الله تعالى**): أي طلبت الخير منه تعالى، كما دل عليه ناقد النقل وقائد العقل، لأنها استشارة للرب، والمستشار مؤتمن.

(**في جمع أربعين حديثًا اقتداء بهؤلاء الأئمة الأعلام**): جمع علم وهو ما يستدل به على طريق من جبل وغيره، سمي العالم به لأنه يهتدي به من مهاوي الضلالة.

(**وحفاظ الإسلام، وقد اتفق العلماء على جواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال**): لا في الوجوب والحرمة ، ومعناه: إذا ثبت مندوب بحديث صحيح أو حسن يجوز لنا رواية حديث في فضيلته والترغيب فيه؛ ليكون كالتابع لا أنه يحتج به في إثبات أمر مندوب، إذ تقرر في الأصول أنه لا يستدل في إثبات الأحكام الخمسة إلا بالصحيح أو الحسن.

(**ومع هذا**) التجويز (**فليس اعتمادي على هذا الحديث، بل على قوله ﷺ في الأحاديث الصحيحة**: «**ليبلغ الشاهد منكم الغائب**»)، أي: ليبلغ من سمع كلامي الغائبين، وهذا تحريض على التعليم والتعلم، فإنه لولاه -أي: كل منهما- لانقطع العلم بين الناس.

(**وقوله ﷺ** : «**نضر الله امرءًا..**): روي بالتشديد والتخفيف، أي: بهجه وحسنه.

(**سمع مقالتي فوعاها**): أي: حفظها بقلبه وداوم عليها و لم ينسها.

(**فأداها كما سمعها**»): من غير تغيير.

وقد استجاب الله تعالى دعائه، فلذلك تجد أهل الحديث أحسن الناس وجهًا وأجملهم هيئة.

وروي عن سفيان بن عيينة أنه قال: ما من أحد يطلب الحديث إلا في وجهه نضرة.

(**ثم من العلماء من جمع الأربعين في أصول الدين**): أي: الإلهيات والنبويات والحشر والنشر.

و"الأصل" لغة: ما يبنى عليه الشيء أو المحتاج إليه أو ما منه الشيء، ويطلق تارة على الدليل، يقال: أصل المسألة كذا، ومنه: أصول الفقه، وعلى الراجح الكثير، كقولهم: الأصل في الكلام: الحقيقة، وعلى الصورة المقيس عليها، وعلى القاعدة المستمرة، كقولهم: إباحة الميتة للمضطر على خلاف الأصل.

(**وبعضهم في الفروع**): أي: الأحكام الفرعية المتعلقة بالعمل.

(**وبعضهم في الجهاد**): مصدر: "جاهدت العدو": إذا قابلته في تحمل الجهد فغلب على قتال الكفار.

(**وبعضهم في الزهد**): ويقال: زهد فيه: رغب عنه، وزهد عنه: رغب فيه.

(وبعضهم في الآداب): جمع "أدب"، وهو حسن الأحوال والأخلاق واجتماع الخصال الحميدة.

(وبعضهم في الخطب، وكلها مقاصد صالحة رضي الله عن قاصديها): جمع خطبة، وهي كلام يلين القلوب القاسية ويرغب الطباع النافرة، مشتق من الخطب؛ لأنه إذا ألم بهم خطب خطبوا له فيجتمعوا ويحتالوا في دفعه.

(وقد رأيت جمع أربعين أهم من هذا كله، وهي أربعون حديثًا مشتملة على جميع ذلك.
وكل حديث منها قاعدة عظيمة من قواعد الدين، قد وصفه العلماء بأن مدار الإسلام عليه، أو هو نصف الإسلام، أو ثلثه، أو نحو ذلك.
ثم ألتزم في هذه الأربعين أن تكون صحيحة، ومعظمها في صحيحي البخاري ومسلم، وأذكرها محذوفة الأسانيد؛ ليسهل حفظها ويعم الانتفاع بها إن شاء الله تعالى. ثم أتبعها بباب في ضبط خفي ألفاظها.
وينبغي لكل راغب في الآخرة أن يعرف هذه الأحاديث لما اشتملت عليه من المهمات، واحتوت عليه من التنبيه على جميع الطاعات والنعت، وذلك ظاهر لمن تدبره، وعلى الله اعتمادي، وإليه تفويضي واستنادي، وله الحمد، وبه التوفيق والعصمة)

(وقد رأيت): من الرأي، أي: حصل لي رأي صحيح للنصح والإعانة على البر والتقوى.

(جمع أربعين أهم من هذا كله، وهي أربعون حديثًا مشتملة على جميع ذلك): الاشتمال في الأصل: أخذ الشملة متلففًا بها، وهو التلبس مع الإحاطة.

(وكل حديث منها قاعدة عظيمة من قواعد الدين): ينبني عليها كثير من المسائل.

(قد وصفه العلماء بأن مدار الإسلام عليه): كحديث: «**إن الحلال بين**» و«**الدين النصيحة**». أو هو نصف الإسلام أو ثلثه، كحديث: «**إنما الأعمال بالنيات**»، وقد نظمه الشافعي رضي الله عنه في قوله:

عمدة الدين عندنا كلمات	أربع فيهن خير البرية
اتق الشبهات وازهد ودع ما	ليس يعنيك واعملن بنية

(**أو نحو ذلك**): وسينكشف عند شرح كل حديث جلية الحالة، بتوفيق الملك المتعال.

(**ثم ألتزم في هذه الأربعين أن تكون صحيحة**): أي: غير ضعيفة، فيتناول الحسن.

(**معظمها**) أي: أكثرها (**في صحيحي البخاري ومسلم. وأذكرها محذوفة الأسانيد**): جمع إسناد، وهو رفع الحديث إلى قائله.

(**ليسهل حفظها ويعم الانتفاع بها إن شاء الله تعالى، ثم أتبعها بباب في ضبط خفي ألفاظها، وينبغي لكل راغب في الآخرة أن يعرف هذه الأحاديث**): المعرفة: تقال لإدراك الجزء، والبسيط والعلم للكل، والجزء والمركب والبسيط. أو للإدراك المسبوق بالعدم أو للأخير من الإدراكين، لشيء واحد، إذا تخلل بينهما عدم.

والعلم على الإدراك المجرد من هذين الاعتبارين.

(**لما اشتملت عليه من المهمات**): وهي بيان العقائد الدينية والقواعد الملية التي هي أصول الشرائع الإلهية.

(**واحتوت عليه**): من حوى، أي: جمع (**من التنبيه على جميع الطاعات**): القلبية والقالبية مما يصلح أمر المعاش، وينجي في المعاد.

(**وذلك ظاهر لمن تدبره**): التدبر: التفكر، وهو: انتقال الذهن من التصديقات الحاضرة إلى التصديقات المستحضرة.

(**وعلى الله**): قدمه لإفادة الاختصاص. (**اعتمادي وإليه تفويضي**): وهو رد الأمر إلى فاعله (**واستنادي**): يقال: "استند": إذا اتكأ على شيء.

(**وله الحمد والنعمة**): بالكسر : العطية، وبالفتح: سعة العيش.

(**وبه التوفيق**): معناه لغة: جعل الشيء موافقًا للآخر. واصطلاحًا: خلق القدرة على الطاعة، ويقابله: الخذلان.

(**والعصمة**): هي فيض إلهي يقوى به العبد على تحري الخير وتجنب الشر، ذكره الراغب في الذريعة، ويقرب منه قول المتكلمين: هي أن لا يخلق الله في العبد ذنبًا.

وقال الحكماء: ملكة تمنع الفجور ويحصل بها العلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات.

الحديث الأول

عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات و إنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

رواه إماما المحدّثين: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري الجعفي، وأبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، في صحيحيهما اللذين هما أصح الكتب المصنفة [١].



الكلام على الحديث الأول

(**عن أمير المؤمنين أبي حفص**): قال المصنف: هو أول من سمي بذلك، يعني من الخلفاء الأربعة، إذ ورد في منتظم ابن الجوزي: إن رسول الله ﷺ بعث جيشًا في السنة الثانية من الهجرة، أمّر عليه عبدالله بن جحش وسماه أمير المؤمنين.

(**عمر بن الخطاب**): الفاروق بين الحق والباطل، كان شديدًا في أمر الله، عاقلاً، مجتهدًا، صابرًا، محتسبًا، جعل الحق على لسانه، واعز الدين به واستبشر أهل السماء بإسلامه، ولو كان بعد رسول الله ﷺ نبي لكان عمر، طعنه أبو لؤلؤة بعدما عاش ثلاثًا وستين سنة.

وكانت وفاته: هلال المحرم سنة أربع وعشرين، وخلافته: عشر سنين وستة أشهر وأربع ليال، ونقش خاتمه: "كفى بالموت واعظًا يا عمر".

وأحاديثه المرفوعة خمسمائة وسبعة وثلاثون.

---

(١) أخرجه البخاري (٣/١)ح(١) بلفظه، ومسلم (١٥١٥/٣)ح(١٩٠٧)، بلفظ: "إنما الأعمال بالنية".

(رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما الأعمال بالنيات): أي: ما الأعمال الشرعية صحيحة بشيء من الأشياء كالشروع فيها والتلبس بها إلا بالنية.

وإنما قيدت بالشرعية؛ لأنه ﷺ بعث لبيان الشرع.

وإنما قيل: صحيحة؛ لأنه قد تقرر أن النفي لا يتوجه إلى الأعيان.

فالمراد نفي الأحكام المتعلقة بوجودها، كالصحة والكمال، أي: لا صحة أو لا كمال إلا بها ، فالشافعية يحملونها على الأول، والحنفية على الثاني، والأول أولى ؛ لأنه لما امتنع الحمل على الحقيقة فالحمل على مجاز أقرب إليها، وهو الصحة أولى كما تقرر في الأصول.

ثم الأعمال: عادية، وعبادية.

والنية شرعت لتمييز الثاني من الأول، وهو ما تعبدنا الله بتركه، كالسرقة والقتل ، ولا يشترط فيه النية وفاقًا، أو تعبدنا بفعله، كالوضوء والصلاة، وتجب فيه النية ركنًا أو شرطًا عندنا، ومنه: البيع والسلم والقرض والهبة والطلاق والخلع إذا عقدت بالكنايات، فإنها تحتاج إليها، لا من حيث إنها محض عبادة أو تعبدنا الله بفعله، المقصود منه: الإزالة والترك، كإزالة النجاسة، فالجمهور من أصحابنا لم يشترطوا فيه النية، نظرًا إلى المقصود منه.

وابن شريح والصعلوكي شرطا نظرًا إلى العقل.

ولفظة: «إنما» لإفادة قصر الموصوف على الصفة أفرادًا، فكأنه توهم أن العمل يحصل بالنية ودونها، كذا قالوا.

وقيل: «إنما » لتأكيد الحكم المذكور، لا للقصر، كما قيل في: ﴿**إنما أنت منذر**﴾ ، وفي قوله: ﴿**إنما حرم عليكم الميتة**﴾ ، لأن المحرمات سواها كثيرة؛ لأن القصر يقتضي أن يكون للمخاطب حكم مشوب بصواب وخطأ، فيثبت صوابه، ويرد خطأه.

والصحابة خالوا الذهن عن ذلك، وتقديره فيهم تكلف، مع أن إفادتها القصر عند الأكثر.

لا يقال: فلا يحتاج إلى التأكيد؛ لأنه لدفع الشك ورد الإنكار، لأنا نقول: قد صرح الزمخشري وعبد القاهر أن له فوائد أخرى غيرهما.

منها: الاهتمام بمضمون الكلام وتقريره وإظهار كمال العناية، كما في: ﴿**إنا فتحنا**﴾ و ﴿**إنا أعطينا**﴾ وكم مثلها.

فإن قلت: لو لم تجعل للحصر لم يعلم عدم صحة العمل بلا نية؟

قلنا: الملازمة ممنوعة، إذ الحصر نشأ من عموم الأعمال إذ معناه كل عمل بنية وهي موجبة كلية فينتفي مقابله، وهي السالبة الجزئية، وهي بعض العمل بغير نية، صرح به في شرح المختصر.

و"الأعمال" جمع محلى باللام فيستغرق كل عمل سواء كان من العبادات أو المعاملات، لأن صحتها مشروطة بالتراضي ونحوه من توجه القلب، وهو أمر باطني يعسر الوقوف عليه، فنية الحكم بالإيجاب والقبول، وكذلك الحكم في سائر العقود والفسوخ، كما نص عليه الفقهاء.

فتخصيصها بالعبادات كما فعله الطيبـــي لا يخلو عن تأمل، نعم قضاء الحقوق الواجبة من الديون والغصوب تبرأ منها ذمة الدائن والغاصب، وإن لم يكن في ذلك نية شرعية، وكذا الطلاق بصرائحه، وإن خلا منها، فلابد من مخصص آخر.

ثم العمل أخص من الفعل وهو كل ما صدر من الحيوان بقصده قلبيًا أو قالبيًا، ذكره الراغب.

فلا يدخل فيه التروك، وذلك كطهارة الخبث، فإن المقصود بالذات عدم ملابسته، كترك الزنا والغصب.

فلا يقال: "الترك: كف النفس"، فيكون من قبل الأعمال حتى يحتاج إلى النية، فيرد سؤالاً، كما علم من شرح مسلم.

نعم يلزم منه افتقاره النية إلى النية، ويتسلسل إلا أن يخصص العمل بالجوارح لتقابلهما في قوله: «**نية المؤمن خير من عمله**» ، أو بالعرف ؛ لأنه لا يطلق العامل على الناوي على أن صاحب القاموس صرح بأنه المهنة، فلا نتناول توجه القلب.

والباء للاستعانة أو المصاحبة ليعلم منه وجوب المقارنة، لكنها توهم، بل تشعر وجوب استصحابها إلى آخر العمل، بل الثاني أولى؛ لأن الاستصحاب حكم لابد منه بأن لا يأتي بمناف؛ لأنه الظاهر من المعية، فالأول أولى.

والنية لغة: القصد.

وشرعًا: توجه القلب نحو الفعل؛ ابتغاء وجه الله، وامتثالاً لأمره، وهي في الحديث محمولة على المعنى اللغوي، ليحسن تطبيقه على ما بعده وتقسيمه بقوله: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ..**» إلخ، قاله القاضي .

وفيه شيء؛ إذ لو حمل على الشرعي لكان أنسب، أو لأنه مبين للشرع، ويحسن التطبيق ثانيًا، إذ المعنى: كل عمل شرعي فهو محسوب بالنية الشرعية، أي: ما يكون لابتغاء وجه الله تعالى، وما ليس كذلك، كالهجرة إلى الدنيا لا يعتد به شرعًا.

على أن قوله: «**فمن كانت**» تفصيل لقوله: «**وإنما لكل امرئ ما نوى**» .

قال بعض المحققين: للنية مراتب ست:

الهاجسة: وهي الخاطر الرباني، فإذا تحقق في النفس سموه: إرادة.

فإذا تردد في الثانية سموه: داعية.

وفي الثالثة: همًا.

وفي الرابعة: عزمًا.

وعند التوجه إلى الفعل وهو خاطر فعل قصدًا، ومع الشروع: نية.

وفي كلام حجة الإسلام: إن النية هي الإرادة الباعثة للقدرة المنبعثة عن معرفة كمال الشيء؛ لأن الأفعال الاختيارية لا تصح إلا بعلم مهيج للإرادة باعثة لقدرة جازمة لها بتحريك الأعضاء، وهي روح العمل، يؤثر بنفسه، بخلاف العمل، فإن المقصود منه تأثيره في القلب ليميل إلى الخير وينفر عن الشر الموصلين إلى الأنس والمعرفة، اللذين هما سبب سعادته في الآخرة، والنية عبارة عن نفس الميل، فعلم سر قوله: «**نية المؤمن خير من عمله**» .

(**وإنما لكل امرئ ما نوى**): إشارة إلى ما تثمره النية من القبول والرد والثواب والعقاب.

ففهم من الأول: أن الأعمال لا تكون محسوبة مسقطة للقضاء، إلا بالنية.

ومن الثاني: إنها إنما تكون مقبولة بالإخلاص مبعدة عن الرياء.

والأول: قصر المسند إليه على المسند. والثاني: عكسه، هكذا أفاده الطيبي.

وفيه أدنى حزازة، وهي: أن اللام تدل على اختصاص المنوي، أي: ما قصده القلب وتوجه إليه، وهو العمل والإخلاص والرياء، ليس هو العمل المنوي، بل كيفيته، أو كيفية النية.

وقال الخطابي في أعلام الحديث واختاره المصنف في شرح مسلم: هذا إشارة إلى إيجاب تعيين المنوي، فلابد أن ينوي في الفائتة من كونها ظهرًا أو عصرًا، ولولاه لدل إنما

الأعمال على الصحة بلا تعيين، أو أوهم ذلك، وكأنه استنبطه من "ما" الموصولة؛ لأنها من المعارف المفيدة للتعيين.

وفيه بحث:

أما أولاً: فلأن مقابلة الجمع بالجمع تقتضي التوزيع، أي مقابلة الإفراد بالإفراد، فالمعنى: كل فرد فرد من الأعمال محسوب بنية ذلك العمل.

وأما ثانيًا: فلأن اللام في قوة الإضافة المفيدة التعيين على أن اللام موضوعة للعهد كما اختاره صاحب المفتاح.

ففهم تعيين المنوي من الأول أيضًا، ولذا قيل: تفصيل وتأكيد لما تقدم.

ويرد عليه: أن الإفادة خير من الإعادة، فلا يبعد حينئذ أن يقال والله أعلم: إن فائدته التعميم المستفاد من لفظة "ما" لأنها من صيغ العموم؛ لأنه لما أشار إلى أن الأعمال الشرعية تتوقف صحتها على النية الشرعية عمم بلفظة "ما" التي للعموم في الأعمال. وأشار إلى أن عمل المرء كل ما نواه سواء كان محمودًا أم لا، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

فيعلم منه: أنه يمكن أن تجعل العادات عبادات، كالمآكل والمشارب والمناكح، إذا نوى بها القوة على الطاعة، وكالطيب إذا قصد به إقامة السنة ودفع الروائح المؤذية عن عباد الله لا استيفاء اللذات أو التودد إلى النسوان.

ففي الجملة: كل عمل صدر عنه لداعي الحق فهو العمل الحق.

روي أن رجلاً من بني إسرائيل مر بكثبان رمل في مجاعة فقال في نفسه: لو كان هذا الرمل طعامًا لقسمته بين الناس، فأوحى الله إلى نبيهم: قل له: إن الله قد صدقك وشكر حسن صنيعك وأعطاك ثواب ما لو كان طعامًا فتصدقت به.

وإن من أكره على الكفر أو الطلاق أو اليمين الغموس فأتى بذلك لا يحكم بكفره وطلاقه وحنثه، وكذلك إن حنث وأول، إلا أن يكون المستحلف القاضي، فإن اليمين على نيته، وأن ما يحتال به في العقود من حيلة واستئصال صرف وربا فهو باطل؛ لأنه إنما قصد به التوصل إلى المحظور، ويترتب عليه المفصل أيضًا.

(**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله**): أي: قصد بهجرته وجه الله والتقرب إليه لا يخلطها بشيء من آرائها، فهو كناية عن تخليص النية أو ذكر الله توطئة لذكر الرسول تخصيصًا له بالله وتعظيمًا للهجرة إليه.

(فهجرته إلى الله ورسوله): كناية عن شرف الهجرة وكونها بمكانة علية أو عن كونها مرضية مقبولة، فلا يتحد الشرط والجزاء، كما توهم.

وتكرير لفظ "الله" و"رسوله" لتعظيم الهجرة، وأنها وقعت موقعها، والمهاجر والمهاجر إليه، وهذا أولى مما قيل: إنه لتعظيم الهجرة.

وهي لغة: اسم من الهجر الذي هو ضد الوصل.

وشرعًا : الخروج من أرض إلى أخرى لله تعالى.

والفعل منها: هاجر، مهاجرة، لا هجرانًا، كذا في الصحاح والنهاية.

وأنواعها خمسة:

الأول: مما نهى الله عنه لقوله ﷺ : «**والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»[١] .

الثاني: هجرة القبائل لتعلم الفضائل.

الثالث: هجرة من أسلم من مكة.

الرابع: من مكة إلى الحبشة.

الخامس: منها إلى المدينة.

وهذا هو المراد هنا؛ لذكر المرأة وحكاية أم قيس ، اللهم إلا أن يقال: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما تقرر في الأصول، قاله الطيبـــي.

وفيه بحث: وهو أن العام لفظ يستغرق جميع ما يصلح له بلفظ واحد، ولفظ "الهجرة" ليس كذلك، فيلزم منه الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو غير جائز، فالأولى أن يقال: هي نقيض الوصلة، فيكون متواطئًا كليًا شاملاً لأفراده، فوجب اعتبار الكل إذ لا مانع.

(ومن كانت هجرته لدنيا): أي: لغرضها ومتاعها، فهي مجاز مرسل من باب تسمية الشيء باسم محله، نحو: ﴿**فليدع ناديه**﴾ فاللام للتعليل، أو بمعنى "إلى" على مذهب الكوفيين ليقابل المقابل.

و**(دنيا)**: تأنيث "أدنى"، وقد وردت على خلاف القياس لانسلاخها عن معنى الوصفية وإجرائها مجرى الأسماء، سميت بها لدنوها إلى الآخرة، والجمع: "دنى" كالكبرى والكبر.

(١) صحيح: أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٢٠٥)ح(٦٩١٢).

(**يصيبها**): حال مقدرة، أي: مقدر إصابتها. (**أو امرأة ينكحها**): من باب عطف الخاص على العام، إشعارًا بأن النساء أعظم ضررًا أو لأن الحديث ورد في زجر مهاجر أم قيس على ما ورد أنه هاجر ليتزوج امرأة يقال لها : أم قيس.

(**فهجرته إلى ما هاجر إليه**): أي: ليست هجرته من الله في شيء، وذلك حظه ولا نصيب له في الآخرة.

وإيراد الموصول لإفادة التحقير ، فعلم أن الطاعات في أصل صحتها وتضاعف فضلها مرتبطة بالنيات، وبها ترفع إلى خالق البريات، فلابد للساعي من تصحيح النية، وللباني من إحكام أساس البنية.

ولذا قدم هذا الحديث الذي قال الشافعي في شأنه: إنه ثلث الإسلام؛ لأن العمل بالجنان أو اللسان أو الأركان، والأول أعز وأشرف؛ لما أنه هو محل نظرات الحق، ومظاهر عطفات الرب، وقد ورد في مسند أبي يعلى الموصلي مرفوعًا: «**إن الله تعالى يقول للحفظة يوم القيامة: اكتبوا لعبدي كذا وكذا من الأجر، فيقولون: ربنا لم نحفظ عنه ذلك، ولا هو في صحيفتنا، فيقول: إنه نواه**» [(١)] .

ونقل الأستاذ أبو القاسم القشيري: إن زبيدة رُئيت في المنام، فقيل لها: ما فعل الله بك؟ فقالت: غفر لي، فقيل لها: بكثرة عمارتك الآبار والبرك والمصانع في طريق مكة وإنفاقك فيها؟ فقالت: هيهات هيهات، ذهب ذلك كله إلى أربابه، وإنما نفعنا منه النيات، فغفر لي بها.

وبلسان العارفين معناه: أن أعمال الظاهر تتعلق بما وقع في القلوب من أنوار الغيوب، وكشف أسرار الحقيقة في الباطن بما بدا من حال الفهم والإلهام إذا انقدح سنًا برق صفة الفعل من زنود الصفات.

والنية: جمع الهم في تنفيذ العمل للمعمول له، وأن لا يسنح في السر ذكر غيره، "وللناس فيما يعشقون مذاهب".

ثم نية العمل من العوام في طلب الأغراض مع نسيان الفضل.

ونية الجاهل: التحصن عن سوء القضاء ونزول البلاء.

---

(١) عزاه الحافظ ابن حجر لابن أبي الدنيا عن عمران الجوني، انظر فتح الباري (١١/٣٢٥).

ونية أهل النفاق: التزين عند الله وعند الناس.

ونية العلماء: إقامة الطاعات لحرمة ناصبها لا لحرمتها.

ونية أهل التصوف: ترك الاعتماد على ما يظهر منهم من الطاعات.

ونية أهل الحقيقة: ربوبية تولت عبودية.

(وإنما لكل امرئ ما نوى): من مطالب السعداء، وهي: الخلاص من الدركات السفلية من: الكفر والشرك والجهل والمعاصي والأخلاق الذميمة وحجب الأوصاف وحجاب النفس، والفوز بالدرجات العلية، وهي: المعرفة والتوحيد والعلم والطاعات والأخلاق المحمودة وجذبات الحق، والفناء عن أنانيته والبقاء بهويته، أو من مقاصد الأشقياء، وهي ما يبعد عن الحق.

(فمن كانت هجرته): أي: خروجه من مقامه الذي هو غاية مرامه، سواء كان متزلاً من منازل النفس أو مقامًا من مقامات القلب إلى الله لتحصيل مراضيه وتحسين الأخلاق، والتوجه إلى توحيد الذات وإلى طلب الاستقامة في توحيد الصفات، وإلى رسوله باتباع أعماله وأخلاقه.

(فهجرته إلى الله ورسوله): فتخرجه العناية الإلهية من ظلمات الحدوث والفناء إلى نور الشهود والبقاء، وتجذبه الجذبات من حضيض العبودية إلى ذروة العندية، ويذهل عن عالم الناسوت، ويفنى في عالم اللاهوت. ويبقى بالحي الذي لا يموت. ورجع إلى الإنس، ونزل محل القدس، بدار القرار، في جوار الملك الغفار. وأشرقت عليه سبحات الوجه الكريم، وحل بقلبه روح الرضى العميم، ووجد فيها الروح المحمدي وأحبابًا. وعرف أن له مثوى ومآبًا. هذا حال أخص الخواص.

وأما العوام: فهجرتهم بسبب الإقامة بشرائط ﴿**جاهدوا فينا**﴾ من الكفر إلى المعرفة، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الجهل إلى العلم ، ومن المعاصي إلى الطاعات، ومن مقابح الأخلاق إلى محاسنها.

وهجرة الخواص: بجذبات ﴿**لنهدينهم سبلنا**﴾ من حجب أوصاف الخلق إلى درجات تجلي صفات الحق.

(ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها): أي لتحصيل شهوة الحرص على المال والجاه والخيلاء، أو لتحصيل لذة شهوتي الفرج والطعام وشهوة الطبيعة الحيوانية المائلة إلى الولد، فيبقى مهجورًا عند الحق في أوطان الغربة وديار الظلمة له نار الفرقة، فالقطيعة نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، لا نار الجحيم التي لا تحرق إلا الجلد ولا تخلص إلى القلب،

فإنها بالنسبة إلى نار فرقة القلوب وحرقة القطيعة عن غيب الغيوب كنسيم الحياة إلى سموم الممات، وأنشد بعض المخلصين شعرًا:

ففي فؤاد المحب نار هوى لحر نار الجحيم أبردها

وقال آخر:

يا غافل القلب عن ذكر المنيات عما قليل ستثوى بين أموات
إن الحمام له وقت إلى أجل فاذكر مصائب أيام وساعات
لا تطمئن إلى الدنيا وزينتها قد حان للموت يا ذا اللب أن يأتي
وكن حريصا على الإخلاص في عمل فإنما العمل الزاكي بنيات

(رواه إماما المحدثين أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه): بباء موحدة مفتوحة، ثم راء مهملة ساكنة، ثم دال مكسورة، ثم زاي معجمة ساكنة، ثم باء موحدة مفتوحة، ثم هاء ساكنة، ومعناه بلسان أهل بخارى: الزارع. كان مجوسيًا، مات على ذلك.

(البخاري الجُعفي): نسبة إلى اليمان بن أخنس الجعفي؛ لأن المغيرة أسلم على يده، ولد سنة أربع وتسعين ومائة، وتوفي سنة ست وخمسين ومائتين وعمره اثنتان وستون سنة.

قال: خرجت كتابي الصحيح من زهاء ستمائة ألف حديث، لست عشرة سنة، وما وضعت فيه حديثًا إلا اغتسلت وصلَّيت ركعتين. وفضائلة أكثر من أن تحصى.

وعدد أحاديث صحيحه: سبعة آلاف حديث ومائتان وخمسة وسبعون، وبإسقاط المكرر : أربعة آلاف.

(وأبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري): منسوب إلى قشير بن كعب ابن ربيعة، بطن من العرب.

(النيسابوري): الإمام النبيل، والبحر الحبر الجليل، ولد سنة أربع ومائتين، وتوفي سنة إحدى وستين ومائتين، وكتابه بعد إسقاط المكرر: أربعة آلاف حديث.

(رضي الله عنهما، في صحيحيهما اللذين هما أصح الكتب المصنفة): وأما قول الشافعي ﷺ: "ما أعلم كتابًا بعد كتاب الله أصح من موطأ مالك". فذاك قبل تصنيف الكتابين، والأول منهما أصح على الأصح. والله أعلم.



الحديث الثاني

عن عمر ﷺ أيضاً قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمّد أخبرني عن الإسلام؟! فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»، قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدّقه، قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»، قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»، ثم انطلق. فلبثت ملياً، ثم قال: «يا عمر، أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم» (رواه مسلم)[١].



الكلام على الحديث الثاني

(**عن عمر ﷺ أيضًا**): مصدر: آض، أي: عادت عنه الرواية عودًا.

(**قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ**): أي: بين أوقات نحن حاضرون عنده، فـ"نحن": مخبر عنه بجملة ظرفية، والمجموع صفة للمضاف إليه المحذوف، و"بين": ظرف زمان بمعنى: المفاجأة، وتضاف إلى المتعدد لفظًا أو معنى، ويتصل بها "ما" ليتهيأ دخولها على الجملتين، ويحتاج إلى جواب يتم به المعنى، "فإذ وما" بعدها جواب له، والعامل فيه معنى المفاجأة.

(١) أخرجه مسلم (١/٣٦-٣٧)ح(٨).

والمعنى: وقت حضورنا مجلس النبي ﷺ ، فاجأنا وقت طلوع ذلك الرجل، فيكون "بينما" ظرف لهذا المقدر، و"إذ" مفعول به بمعنى: الوقت.

(**ذات يوم**): ظرف "عند"، لما فيه من معنى الاستقرار، و"ذات" في الأصل: مؤنث "ذو" قطع عنها مقتضاها من الوصفية والإضافة، وأجريت مجرى الأسماء المستقيمة، فيقال: "ذات قديمة" ونسبوا إليها من غير حذف: التاء، فيقال: "ذاتي"، استعملوها بمعنى الحقيقة، فيقال: "ذات الشيء" أي: ماهيته، وهي في الحديث: صفة، أو من قبيل ذات زيد؛ لئلا يتوهم أن المراد مطلق الزمان.

واليوم: هو المدة من وقت طلوع الشمس إلى غروبها. أو من طلوع الفجر عند الشرع، وجمعه: أيام، وأصله: أيوام، فأدغمت، وربما عبروا به عن الشدة، ويستعمل في مطلق الزمان، كقوله: ﴿**واليوم الآخر**﴾ .

(**إذ طلع**): استعارة تبعية؛ شبه ظهوره بطلوع الشمس في نباهة القدر وارتفاع الشأن، واستعار له الطلوع ثم اشتق منه الفعل .

أو مكنية ، شبهه بها فيما ذكر، وأثبت له الطلوع تخييلاً.

ولما كان فيه تنويه بقدره آثره على "دخل".

(**علينا رجل**): التنوين فيه للتعظيم، وذكر له صفات مخصصة اشتمل بعضها على صيغة المبالغة، والغرض من هذا التمهيد: التقرير والتنبيه على فخامة القصة وغرابتها.

(**شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر**): فيه إرشاد وإشارة إلى استحباب لبس البياض والنظافة في الثياب، وأن زمان طلب العلم أوان الشباب، وقدم البياض على السواد؛ لأنه خير الألوان، وجمع الثياب دون الشعر إشعارًا بأن جميعها كذلك.

(**لا يرى**): بضم الياء، وروي بالنون المفتوحة، كذا في شرح مسلم.

(**عليه أثر السفر**): من نحو غبرة وشعثة ، والأثر: العلامة. والسفر: من السفر، وهو الكشف؛ لأنه يكشف عن أحوال الرجال وأخلاقهم.

(**ولا يعرفه منا أحد**): فحينئذ إما أن يكون ملكًا أو جنيًا؛ إذ لو كان بشرًا من المدينة لعرفناه، أو غريبًا كان عليه أثر السفر، كذا ذكروا.

وإنما لم يقل: ولا يعرف ليتلائم المعطوفان لئلا يتوهم أنه ﷺ لا يعرفه.

وقوله: (**لا يعرفه منا**): أي: معشر الصحابة (**أحد**)؛ و لم يقل: لا نعرفه بصيغة المتكلم لإفادة العموم، إذ يصدق ذلك بأن يعرفه جماعة فقط، وقدم لفظة "منا" للاهتمام.

(**حتى جلس**): أي: استأذن ودنا حتى جلس مائلاً.

(**إلى النبي ﷺ**): ففيه حذف وتضمين. والجلوس والقعود مترادفان، لن ذكر التوربشتي: أن القعود استعمل مع القيام، والجلوس مع الاضطجاع، يقال: قعد عن قيامه، وجلس عن ضجعته، ولفظ الحديث لا يساعده، فتأمل.

(**فأسند ركبتيه إلى ركبتيه**): أي: ركبتي رسول الله ﷺ ؛ لأن الجلوس على الركبة أقرب إلى التواضع وأنسب إلى كمال الأدب، واتصالها أبلغ في الإصغاء وحضور القلب والاستئناس.

وكذا حكمة وضع الكف في قوله: (**ووضع كفيه على فخذيه**): أي: النبي ﷺ ، كما في رواية النسائي [١] .

(**وقال: يا محمد**): ناداه باسمه، إذ الحرمة تختص بالأمة في زمانه، وهو ملك معلم، وما ورد في الصحاح من نداء بعض الصحابة باسمه، فذلك قبل التحريم.

(**أخبرني**): صيغة الأمر للاستدعاء، إذ تقرر أن الرسل أفضل من الملائكة العلوية.

(**عن الإسلام**): هو الانقياد والطاعة لغة [٢] . وشرعًا: ما يجيء. واللام فيه للحقيقة الشرعية، وكذا في أمثاله، وإنما قدم السؤال عنه، وإن كان التصديق مقدمًا بحسب الرتبة؛ لأنه جاء لتعليم الشريعة، فبدأ بالأهم ترقى إلى الأعلى.

(**فقال رسول الله ﷺ : «الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله»**): إشارة إلى التوحيد.

وهو لغة: الحكم بوحدانية الشيء والعلم بها.

واصطلاحًا: إثبات ذات الله بوحدانيته، منعوتًا بالتتره عما يشاهه اعتقادًا، فقولاً وعملاً، فيقينًا وعيانًا، فمشاهدة وعيانًا، فثبوتًا ودوامًا، كما ستقف عليه مفصلاً [٣] .

قال الغزالي: للتوحيد لبان وقشران، كاللوزة، فالقشرة العليا: القول باللسان المجرد. والثانية: الاعتقاد بالقلب جزمًا.

---

(١) أخرجه النسائي (٨/٩٧)ح(٤٩٩٠).

(٢) قال الشيخ البيجوري: "الإسلام" لغة: مطلق الامتثال والانقياد. انظر جوهرة التوحيد (ص٤٧).

(٣) وقال الشيخ البيجوري: هو التصديق بما جاء به النبي ﷺ ، وعلم من الدين بالضرورة. انظر جوهرة التوحيد وعليها البيجوري (ص٤٣).

واللب: أن ينكشف بنور الله سر التوحيد بأن يرى الأشياء الكثيرة صادرة عن فاعل واحد، ويعرف سلسلة الأسباب مرتبطة بمسببها.

ولب اللب: أن لا يرى في الوجود إلا واحدًا، ويستغرق في الواحد الحق غير ملتفت إلى غيره.

(**وأن محمدًا رسول الله**): إيماء إلى النبوة، وهما أصلان متلازمان في إقامة الدين ضرورة توقف الإسلام على الشهادتين.

قال المحققون: فمجرد التوحيد هو الاحتجاب بالجمع عن التفصيل، وهو محض الجبر المؤدي إلى الإباحة، ومجرد إسناد القول والفعل إلى الرسول وسائر الخلق احتجاب بالتفصيل عن الجمع الذي هو صرف القدرة المؤدي إلى التعطيل والثنوية، والجمع بينهما هو الحق المحض.

قال في العوارف: الجمع: اتصال لا يشاهد صاحبه إلا الحق، فمن شاهد غيره فما ثمة جمع، والتفرقة: شهود لمن شاهد بالمباينة. فقوله: ﴿**آمنا بالله**﴾ جمع، ﴿**وما أنزل إلينا**﴾ تفرقة.

وقال الجنيد: القرب بالوجد جمع، وغيبته في البشرية تفرقة. وكل جمع بلا تفرقة زندقة، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل.

(**وتقيم الصلاة**): إقامة الصلاة : تعديل أركانها، وحفظها من الزيغ، من أقام العود: قومه.

أو الدوام والمحافظة عليها من قامت السوق، أي: نفقت؛ لأنه إذا حوفظ عليها كانت كالنافق الذي يرغب فيه، وإذا ضيعت كانت كالكاسد المرغوب عنه. أو التشمر لأدائها، من قام بالأمر.

أو أداؤها، كذا في الكشاف، ولا يخفى أنه على الأول استعارة تبعية ؛ شبه تعديل أركانها بتقويم الرجل العود، واستعير له الإقامة، ثم اشتق منه الفعل، وعلى الثاني: كناية عن الدوام، وعلى الثالث: مجاز في الإسناد بمعنى تجعلها قائمة، فيفيد التشمر، وعلى الرابع كذلك، إذ المعنى: توجب قيامها، فيكون من باب إطلاق بعض الشيء على كله، وإنه لو حمل على الوجه الثاني فقط لكان أولى؛ لدلالته على جميع المعاني.

والصلاة لغة: الدعاء، نقل إلى أفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم؛ لأنه جزؤها.

(**وتؤتي الزكاة**): من زكا: نما أو طهر، وهي اسم للقدر المخرج من النصاب؛ لأنه يزيد بركة المخرج عنه ويطهره، وكتبت بالواو لتفخيمهم إياها لفظًا، كالصلاة.

(**وتصوم رمضان**): الصوم لغة: الإمساك[١]. وشرعًا: إمساك مخصوص بوصف مخصوص في زمان مخصوص[٢].

ورمضان: علم الشهر من رمض: إذا احترق، من الرمضاء، فأضيف الشهر وسمي به لارتماضهم من حر الجوع.

(**وتحج البيت**): الحج لغة: القصد. وشرعًا: قصد بيت الله في وقت معين بشرائط مخصوصة.

والبيت: اسم جنس غلب على الكعبة علمًا، واللام فيه جزء، كما في النجم.

(**إن استطعت إليه**): أي: إلى البيت أو إلى الحج، أي: أمكن لك الوصول إليه، وهي مفسرة بالزاد والراحلة، وهذا يؤيد قول الشافعي: إنها بالمال، ولهذا أوجب الاستنابة على الزمِن الغني[٣]. وقال مالك: إنها بالبدن، فيجب على من قدر على المشي والكسب في الطريق[٤]. وقال أبو حنيفة: بمجموع الأمرين[٥].

والاستطاعة: القدرة، من طاع لك، إذا سهل، تطلق بمعنى سلامة الأسباب وصحة الآلات، وهي قد تتقدم على الفعل وعلى غرض في الحيوان يفعل به الأفعال الاختيارية، ولا يكون إلا مع الفعل، وهي كما فسرت استطاعة خاصة بالمعنى الأول، فلا يرد ما قيل: إن الاستطاعة التي بها يتمكن المكلف من فعل العبادة مشروطة في الكل، فكيف خص الحج بها.

(**سبيلاً**): تمييز عن نسبة الاستطاعة إلى البيت، أي إن استطعت سبيل البيت، فأخر ليكون أوقع، وهو الطريق الذي فيه سهولة، ويستعمل في كل ما يتوصل به إلى شيء، وتنكيره للعموم إذ النكرة في الإثبات قد تفيد العموم، كما في قوله تعالى: ﴿**علمت نفس**﴾، لكنه مجاز.

---

(١) انظر لسان العرب (٤/٢٥٢٩).
(٢) انظر شرح المهذب (٦/٢٤٨).
(٣) انظر شرح المهذب (٧/٧٦)، وهو قول الإمام أحمد، انظر المغني (٣/١٧٧).
(٤) انظر الكافي لابن عبد البر (١/٣٥٦-٣٥٧).
(٥) انظر الفتاوى الهندية (١/٢١٨).

وتقديم "إليه" عليه للاختصاص، أي: سبيلاً ما إلى البيت على أي وجه كان قريبًا أو بعيدًا بشرط اختصاص انتهائه إليه لا إلى غيره.

وإيراد الأفعال على صيغة المضارع لإفادة الاستمرار التجددي المناسب لكل منها، ففي التوحيد المطلوب الاستمرار الدائم مدة الحياة، وفي الصلاة دونه، ثم في الزكاة والصوم دونهما، وقدم الأهم وأخر ما وجب في العمر مرة.

(**قال: صدقت. فعجبنا له**): أي: السائل، والتعجب حالة للقلب تعرض عند الجهل بسبب الشيء؛ (**يسأله ويصدقه**): لأن هذا خلاف عادة السائل الجاهل.

(**قال: فأخبرني عن الإيمان؟**): هو في اللغة: التصديق الذي معه أمن وطمأنينة، وحقه أن يستعمل بـ"على" إلا أنه لما كان متضمنًا لمعنى الاعتراف عدل عنه إلى الباء حيث قال:

(**قال: أن تؤمن بالله**): أي: تعترف بوجوب وجوده واتصافه بصفة الكمال وهي:

إما حقيقية لا يتوقف تصورها على شيء، كالحياة .

أو إضافية يتوقف، كالوجود والقدم.

أو وجودية، وهي صفات الإكرام.

أو ثبوتية، وهي صفات الجلال.

والصفات الوجودية عند الأشعري، لا هو ولا غيره، أي: ليست عين الذات مفهومًا ولا غيره ثبوية، وتنحصر في ثمان، نظمها الشاعر:

حياة وعلم وقدرة وإرادة ... كلام وإبصار وسمع مع البقا[1]

وفي الشرع: تصديق الرسول ﷺ بما علم مجيئه به ضرورة من عند الله، وقيد بها ليخرج بها منكر الاجتهاديات؛ فإنه لا يكفر ، هذا هو المختار عند الأكثر من الأصوليين وغيرهم.

وعند الشافعي -وهو المنقول عن علي كرم الله وجهه-: أنه المعرفة بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان.

---

(١) مذهب أهل السنة والجماعة في الصفات : هو إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ في كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ ، دون تشبيه أو تعطيل أو تمثيل.

ومذهب المعتزلة قريب منه؛ لأنه ذكر في الكشاف: أن الإيمان الصحيح هو: أن يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه، ويصدقه بعمله.

ولعلهم أرادوا بذلك: الإيمان الكامل، ومما يدل عليه وعلى مغايرة العمل للإيمان: أنه لو كان داخلاً في حقيقته لكان التقييد به تكرارًا وليس كذلك، ومما نجده مناديًا على ذلك هذا الحديث، فإنه أجاب عن الإسلام، ثم عن الإيمان، وجعله تصديقًا.

فإن قلت: لو كان كذلك لم يقبل الزيادة والنقصان. وليس كذلك، قال الله تعالى: ﴿زادهم إيمانًا﴾ [الأنفال:٢] ﴿ليزدادوا إيمانًا﴾ [الفتح: ٤]؟

قلنا: لا نسلم ذلك إذ اليقينيات تتفاوت قوة وضعفًا. قال في الكشاف في قوله تعالى: ﴿زادهم إيمانًا﴾ [الأنفال:٢]، ازدادوا يقينًا؛ لأن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه، سلمنا ذلك لكنه إنما يقبلهما باعتبار ثمراته، وهي الأعمال.

قال ابن الصلاح: هذا الحديث بيان أصل الإيمان، وهو التصديق، والإسلام والانقياد، وحكم الإسلام يثبت بالشهادتين، وإنما أضاف إليه الأعمال المذكورة؛ لأنها أظهر شعائره.

ثم الإيمان قد يطلق على الإسلام، كما في حديث وفد عبد القيس، واسم الإسلام يتناول أصل الإيمان، وهو التصديق والطاعات، فإن كل ذلك استسلام، فعلم أنهما يجتمعان ويفترقان، وأن كل مؤمن مسلم من غير عكس، وهذا تحقيق موافق لمذهب جماهير العلماء.

وفي هذه المسألة ستة مذاهب:

الأول والثاني: ما سبق.

والثالث: أنه التصديق والإقرار، وهو مذهب أبي حنيفة.

والرابع: أنه كلمتا الشهادة، وهو مذهب الكرامية.

والخامس: أنه الطاعات فرضًا أو نفلاً. وقيل: الفرض.

والسادس: أنه المعرفة بالله أو بما جاءت به الرسل، ذكره في المواقف.

ثم قال: ووجه الضبط: أن الإيمان إما فعل القلب فقط، وهو المعرفة أو التصديق، وإما فعل الجوارح فقط، وهو إما باللسان وهو الكلمتان، أو غيره وهو العمل بالطاعات، وإما فعل القلب والجوارح معًا، والجارحة إما اللسان أو سائر الجوارح.

ثم التصديق معناه: إذعان النفس وقبولها لما يجب قبوله، وهو تقليدي وتحقيقي وعيني.

أما التقليدي: فظاهر.

والتحقيقي: إما استدلالي أو ذوقي، والذوقي: إما كشفي واقف على حد العلم والغيب أو عيني غير واقف عليهما.

والعيني: إما مشاهدة أو شهود، فالأول: هو الاعتقاد الجازم المطابق الممتنع الزوال، الثابت بالبرهان، وهو أول ما لا بد منه في صحة العمل.

والثاني: الاعتقاد الجازم المطابق الممتنع الزوال، الثابت بالوجدان.

والثلاثة الأول مراتب الإيمان بالغيب، والأخيران علم اليقين.

والرابع: المشاهدة الروحانية مع بقاء الإثنينية، وتسمى: عين اليقين.

والخامس : هو الشهود الحقاني عند تجلي الوحدة الذاتية، وزوال الإثنينية، وتسمى: حق اليقين.

قال الغزالي: من عرف الله بالدليل، وصدقه بالجنان فإن مات و لم يتلفظ مع وجود الإمكان كان مؤمنًا.

هذا والتحقيق أن للإيمان وجودًا عينيًا ووجودًا ذهنيًا ووجودًا لفظيًا.

أما الأول: فهو ما أشار إليه الشيخ الكبير أبو عبدالله بن حنيف في عقيدته من أنه نور يقذف في القلب لا نور الذات، ومعناه عن أصله: نور يقذفه الله الحق من ملكوته إلى قلوب عباده، فباشر إسرارهم وهو متصل بالحضرة، ثابت في قلوبهم، فإذا انكشف جلال الحق له ازداد ذلك النور ، فيتقوى إلى أن ينبسط وينشرح له الصدر، ويطلع العبد على حقائق الأشياء، ويتجلى له الغيب وغيب الغيب، ويظهر له صدق الأنبياء، وينبعث من قلبه داعية الاتباع، فينضاف إلى نور معرفته أنوار الأعمال والأخلاق، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء.

وذلك القذف والكشف يتعلق بمراد الله في أحايين هبوب نسيم الصفات، لا يقدر العبد على كسبه، نعم شرائط مكتسبة كما أشار إليه الشيخ.

أما الوجود الذهني: فملاحظة ذلك النور ومطالعته بالتصديق.

وأما الوجود اللفظي: فهو الإقرار باللسان بالشهادتين.

وكما أن إيمان العوام هو: التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان، فإيمان الخواص: غروب النفس عن الدنيا، وسلوك طريق العقبى، وشهود القلب مع المولى.

وإيمان خواص الخواص: ملازمة الظاهر والباطن في طاعة الله، وإنابة الخلق إلى الفناء في الله، وإخلاء السر للبقاء بالله.

(وملائكته): جمع ملك، وأصله مالك، بتقديم الهمزة من الألوكة، وهي الرسالة، ثم قلب وقدمت اللام، وجمع على فعائل كشمال وشمائل، ثم تركت الهمزة في المفرد لكثرة الاستعمال ونقلت حركتها إلى اللام، والتاء لتأنيث الجمع.

وهي أجسام لطيفة مقدرة على تشكلات مختلفة يجوز عليهم الصعود والنزول بإذن الله تعالى، وذلك بأن نعتقد أنهم معصومون عن المخالفة، ووسائط بينه وبين الرسل، ولكل مقام معلوم، وجزء مقسوم.

فإن قلت: ما الموجب لدخول الإيمان بهم في مفهوم الإيمان الصحيح، مع أن المقصود بالذات: معرفة المبدأ والمعاد؟

فجوابه: أن الناس تنقسم إلى: فطن يرى المعقول كالمحسوس، ويدرك الغائب كالشاهد، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وإلى من الغالب عليهم متابعة الحس ومشايعة الوهم فقط، وهم أكثر الخلق، فلابد لهم من معلم يدعوهم إلى الحق، ويذودهم عن الزيغ، ويكشف لهم المغيبات، ويحل عن عقولهم الشبهات، وما هو إلا النبي المبعوث لهذا الأمر، وهو وإن كان مشتعل القريحة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، يحتاج إلى نور يظهر له الغائب وهو الوحي والكتاب؛ لذلك سمي القرآن : نورًا، ولابد له من حامل وموصل، وهو الملك المتوسط، فالمرء لا يصير مؤمنًا إلا إذا تعلم من النبي ﷺ ما يحققه بإرشاد الكتاب، الواصل إليه بتوصيل الملك، بأن له إلهًا واجب الوجود، فائض الجود إلى غير ذلك، مما ثبت بالشرع.

(وكتبه): جمع كتاب.

وهو لغة: ضم الحروف الدالة على معنى بعضها إلى بعض، مصدر: كتب، أي : جمع.

واصطلاحًا: ما أنزل الله على الأنبياء مكتوبًا على الألواح أو مسموعًا من وراء حجاب أو من ملك مشاهد أو من هاتف، وذلك بأن يعلم أن كلها وحي من الله، مشتمل على أحكامه، ويعتقد أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وهو المكتوب في المصاحف ، المحفوظ في الصدور، والمقروء بالألسنة، وانه مشتمل على متشابه ومحكم بتبيينه.

(ورسله): بأن يعترف بأنهم بلغوا ما أنزل إليهم، وانهم معصومون عن الكبائر والصغائر عمدًا لا سهوًا، بشرط التذكر في الحال، وتنبيه الغير عليه وتقديم الملك رعاية للترتيب الواقع، فإن الله تعالى أرسل الملك بالكتاب إلى الرسول، لا لكونهم أفضل من الرسل؛ لأنه مختلف فيه ولا من الكتب إذ لم يقل به أحد.

أو اتباعًا لترتيب الوجود، فإن الملائكة مقدمة في الخلق، وهذا الترتيب مما تقتضيه حكمة عالم التكليف والوسائط، وإلا «فمقام لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل».

ومعلوم لنبينا ﷺ ، إذ فيه إشارة إلى تمكينه في وقت كشوف المشاهدة، واستغراقه في بحار الوحدة والعدم، حتى لا يبقى فيه أثر البشرية والكونين، وهذا محل استقامته في مشهد التمكين الذي أخبر الله عنه بقوله: ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ [النجم: ٩]، وليس هنالك مقام جبريل وجميع الكروبيين، ولا مقام الصفي والخليل والكليم ومن دونهم من الأنبياء، وكان أكثر أوقاته كذلك، لكن رده الله إلى تأديب أمته في بعض الأوقات ليجري عليها أحكام التكوين، ولئلا يذوب في نيران كبرياء الأزل.

(واليوم الآخر): هو الأبد الدائم الذي لا ينقطع لتأخره عن الأوقات المحدودة، أو يوم القيامة؛ لأنه آخر أيام الدنيا، وذلك بأن يؤمن بوجوده وبما فيه من حشر الأجساد مع الأرواح والمجازاة والمحاسبة والصراط والميزان ودخول الجنة والنار وغير ذلك.

(وتؤمن بالقدر): أعاد العامل إما لبعد العهد، كقول الشاعر:

لقد علم الحي اليماني أنني إذا قلت أما بعد أني خطيبها

أو لشرفه وتعاظم أمره؛ لأنه مجال الأفهام ومزال الأقدام، فلذا اهتم بشأنه، ثم قرره بالإبدال بقوله:

(خيره وشره): بأن يعتقد أن الله قدر الخير والشر قبل خلق الخلائق، وأن جميع الكائنات متعلق بقضاء الله مربوط بقدره، وهو مريد لها، فالطاعات يحبها ويرضاها، بخلاف الكفر والمعاصي. قال الله تعالى: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾، والإرادة لا تستلزم الرضى.

والقضاء: الحكم بنظام جميع الموجودات على ترتيب خاص في أم الكتاب أولاً، ثم في اللوح المحفوظ ثانيًا على سبيل الإجمال.

والقدر: تعلق الإرادة بالأشياء في أوقاتها، وهو تفصيل قضائه السابق بإيجادها في المواد الجزئية المسماة بلوح المحو والإثبات، كما يسمى: أم الكتاب بلوح القضاء، واللوح المحفوظ: بلوح القدر في وجه ، هذا تحقيق كلام القاضي.

ولما كان الإيمان بالقدر مستلزمًا للإيمان بالقضاء لم يتعرض له.

وذكر الراغب أن القدر : هو التقدير، والقضاء: هو التفصيل والقطع، فهو أخص، ومثل هذا بأن القدر ما أعد للبس ، والقضاء بمنزلة اللبس، ويؤيده ما ذكره الحكيم الترمذي أنه كان في البداء علم، ثم ذكر، ثم مشيئة، ثم تدبير، ثم تقدير، ثم إثبات في اللوح، ثم إرادة، ثم قضاء، فإذا قال: كن، فكان على الهيئة التي علم تذكر ثم شاء قدير ، ثم قدر، ثم أثبت ، ثم قضى، فعلم منه أنه ما من شيء حيث استقام في العلم الأزلي إلى أن استقام في اللوح، ثم استبان إلا أن يتعلق به أمور من الله تعالى.

وقال بعض العارفين: إن القدر كتقدير النقاش الصورة، في ذهنه، والقضاء: كرسمه تلك الصورة للتلميذ بالأسرب، ووضع التلميذ الصبغ عليها متبعًا لرسم الأستاذ، هو الكسب والاختيار، وهو في اختياره لا يخرج عن رسم الأستاذ، كذلك العبد في اختياره لا يمكنه الخروج عن القضاء والقدر، ولكنه متردد بينهما.

والخير: ما يصلح به حال الرجل أو يرغب فيه الكل. والشر: بخلافه .

وكل منهما إما مطلق لم يزل مرغوبًا فيه أو عنه، أو مقيد بكونه بالنسبة إلى أحد خيرًا، وإلى آخر شرًا، كالمال، وكما أن الخير ضربان:

أحدهما: أفراده أخروية، وهي النجاة من النار، ودخول الجنة، ثم مشاهدة الجمال الأحدية ومطالعة الجلال الصمدانية.

وثانيهما: أفراده دنيوية، وهي أربعة:

نفسانية، وهي الإيمان وحسن الخلق والحكمة، والعفة والشجاعة والعدالة.

وجسمانية: وهي الصحة وطول العمر والجمال والعبادة.

وخارجية: وهي المال والجاه والأهل والنسب.

والجمع بين الأسباب الداخلة والخارجة: وهي الرشد والدوام والتسديد والتوفيق.

كذلك الشر على هذه الأضرب.

واعلم أن الإيمان بالقدر يستلزم العلم بتوحيد ذات الحق؛ لأن إتقان المقدورات وإحكامها على ما هو حقها في أزمنة وأمكنة مخصوصة يدل على توحد الحكم بتقديرها المقتضي لتوحد المقدر، والعلم بصفاته كسعة علمه ورحمته على العالمين وآثار قدرته وحكمته للمخلوقين، ونفوذ قضائه فيهم، والعلم بكمال صنعه وأفعاله، وأن الحوادث كلها مستندة إلى الأسباب الإلهية، فيعلم أن الحذر لا يقطع القدر ولا ينازع أحدًا في طلب شيء من اللذات، ولا يأنس بها إذا وجدها، ولا يغضب بسبب فوات شيء من المطالب؛ ليكون حسن الخلق طيب العشرة مع الخلق.

قال بعض العارفين: إن الله تعالى قدر وجود الكائنات لمظاهر تجلي صفاته وأسمائه، فكل منها مقدار مقدر لمظاهر تجلي ما علم الله له من الأسماء والصفات، مما يليق به، وهو مستعد له كما قال: ﴿**وإن من شيء إلا يسبح بحمده**﴾ [الإسراء: ٤٤]، فلكل ذرة لسان ملكوت ناطق بالتسبيح والتحميد تنزيهًا لصانعه، وحمدًا له على ما أولاه من مظهريتها للصفات الجمالية والجلالية، فالأشياء كلها مقادير لأسماء الله وصفاته، دون ذاته، فإنه لا يسعها إلا قلب المؤمن: «**لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن**»(١).

ولذا قيل: قلب المؤمن عرش الله. وقال أبو يزيد -قدس الله سره-: "لو وقع العالم ألف ألف مرة في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحس بها".

(**قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان**): أراد به: الإخلاص، وهو شرط في صحة الإيمان والإسلام معًا؛ لأن من تلفظ بالكلمة وجاء بالعمل من غير نية الإخلاص لم يكن إيمانه صحيحًا.

قال في النهاية: فكان المخلص في الطاعات يوصل الفعل الحسن إلى نفسه.

والإخلاص: تصفية العمل من طلب عوض وغرض وعرض ورؤية ورياء، فإن العمل إذا كان مشوبًا بشيء من ذلك لا يجدي بطائل.

(**قال: أن تعبد الله كأنك تراه**): حال، أو مفعول مطلق، أي: حال كونه مشبهًا بمن ينظر إلى الله خوفًا منه وحياءً وخضوعًا له، وهذا من جوامع الكلم؛ فإن العبد إذا قام بين

---

(١) لا أصل له: وأورده المناوي في فيض القدير (٢/٤٩٦)، والهروي في المصنوع (١/١٦٤)، وذكره الحافظ العجلوني، وقال: قال العراقي: لم أرَ له أصلاً. انظر كشف الخفاء (٢/٢٥٥).

يدي مولاه معاينًا له لم يترك شيئًا مما قدر عليه من الخشوع والخضوع وحسن السمت، وهذا المعنى موجود في عبادة العبد مع عدم رؤيته فينبغي أن يعمل بمقتضاه.

(**فإن لم تكن تراه**): مثل الرؤية المعنوية .

(**فإنه يراك**): أي: فكن بحيث إنه يراك، أي: فلا تغفل فإنه يراك.

ففيه الحث على الإخلاص في الأعمال ومراقبة العبد ربه في جميع الأحوال.

وقال بعض العارفين:

الأول: إشارة إلى مقام المكاشفة، ومعناه: إخلاص العبودية عن رؤية الغير بنعت إدراك القلب عيان جلال ذات الحق وفنائه عن الرسوم فيه.

والثاني: إلى مقام المراقبة في الإجلال وحصول الحياء من العلم باطلاع ذي الجلال.

وإنما لم يقل ههنا: صدقت؛ لأن الإحسان هو الإخلاص وهو سر من أسرار الله تعالى لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، كما جاء في الحديث المسلسل الرباني: «**الإخلاص سر من أسراري استودعته قلب من أحببت من عبادي**» ، كذا قيل.

والأولى أن يقال: إنه سقط من بعض الرواة؛ لأنه مذكور في بعض روايات صحيح مسلم وشرح السنة مسطور والله أعلم.

(**قال: فأخبرني عن الساعة**): أي: وقت مجيء القيامة، وهي جزء من أجزاء الزمان، عبر بها عنها ، وإن طال زمنها، اعتبارًا بأول أزمنتها؛ فإنها تقع بغتة. أو لسرعة حسابها. أو على العكس لطولها. أو لأنها عند الله كساعة عند الخلق، كذا في الكشاف.

والساعة: كما تطلق على القيامة، وهي الساعة الكبرى، تطلق على موت أهل القرن الواحد، وهي الساعة الوسطى، كما في قوله ﷺ حين سألوه عن الساعة، فأشار إلى أصغرهم: «**إن يعش هذا لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم**» .

إذ المراد: انقضاء عصرهم، ولذا أضاف إليهم، وعلى الموت، وهي الساعة الصغرى.

(**قال: ما المسئول عنها**): أي: عن وقتها، والعائد إلى اللام هو المستتر فيه، أي: ليس الذي سئل عن الساعة، إذ يقال: سألت المسألة عن زيد، وسألت عنها زيدًا.

(**بأعلم من السائل**): نفى أن يكون صالحًا لأن يسأل عنه في أمر الساعة لأنها من مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو على سبيل الكناية، لما عرف من أن المسئول عنه يجب أن يكون أعلم من السائل. فلا يقال: لا يلزم من نفي الأعلمية نفي أصل العلم عنهما مع أنهما متساويان في ذلك.

ومساق الكلام يقتضي أن يقول: لست أعلم بعلم الساعة منك، لكنه عدل عنه ليفيد العموم؛ لأن المعنى: كل سائل ومسئول متساويان في ذلك، هذا خلاصة ما حققه الطيبي.

فإن قلت: فلم سأل جبريل عن الساعة مع علمه بأنه لا يعلمها إلا هو ؟

وما التوفيق بين الآية وبين ما اشتهر عن العرفاء من الأخبار الغيبية، كما قال الشيخ الكبير أبو عبدالله في معتقده: ونعتقد أن العبد ينقل في الأحوال حتى يصير إلى نعت الروحانية، فيعلم الغيب، وتطوى له الأرض، ويمشي على الماء، ويغيب عن الأبصار؟

فالجواب:

أما عن الأول: فلينبههم بذلك أنه ليس له الجواب عما لا علم له به، والاستنكاف من قول: لا أدري، الذي هو نصف العلم فتم العلم بذلك.

وعن الثاني: فلأن للغيب مبادئ ولواحق، فمبادئه لا يطلع عليها ملك مقرب ولا نبي مرسل. وأما اللواحق فهو ما أظهر الله تعالى على بعض أحبابه بوجه علمه، وخرج ذلك عن الغيب المطلق، وصار غيبًا إضافيًا، وذلك إذا تنور بالروح القدسية وازداد نوريتها وإشراقها بالإعراض عن ظلمة عالم الحس، وتجلية مرآة القلب عن صدء الطبيعة، والمواظبة على العلم والعمل، وفيضان الأمور الإلهية، حتى يقوى النور وينبسط في فضاء قلبه، فينعكس فيه النقوش المرتسمة في اللوح المحفوظ، ويطلع على المغيبات، ويتصرف في أجسام العالم السفلي، بل لا يبخل الفياض الأقدس بمعرفته التي هي أشرف العطايا، فكيف بغيرها.

(**قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: أن تلد الأمة ربها**): أي: مالكها ومولاها. وإطلاق الرب على غير الله من باب المبالغة والتشديد، والإضافة لأجل أنه سبب عتقها أو مولاها بعد الأب وعدم تأنيثها لأجل الأدب مع الله تعالى.

وهذا إشارة إلى قوة الإسلام واستيلاء المسلمين على الكفار، فتكثر السراري حتى تلد السرية بنتًا لسيدها وهي في حكم السيد، وهي من الأمارات؛ لأن بلوغ الغرة منذر بالانحطاط المؤذن بقيام الساعة، ذكره القاضي.

أو إلى أن الأعزة تصير أذلة؛ لأن الأم مربية للولد مدبرة أمره، فإذا صار الولد ربًا - سيما إذا كان بنتًا- ينقلب الأمر، كما أن كان القرينة الآتية تدل على عكس ذلك، وهي أن الأذلة ينقلبون أعزة ملوك الأرض فيتلائم المعطوفان، وهذا إخبار بتغير وانقلاب أحوال الناس بحيث لا يشاهد قبله، هكذا حققه الطيبي في كلام طويل الذيل. ويؤيده ما ورد من أنه: «**إذا ضيعت الأمانة ووسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**» .

وقيل: إشارة إلى كثرة السراري حتى يستعبد المرء أمه جاهلاً بحالها.

(وأن ترى): خطاب عام ليدل على بلوغ الخطب في العظم مبلغًا لا يختص به رؤية راء.

(الحفاة): جمع حاف: الذي لا نعل له .

(العراة العالة): الفقراء، جمع عائل، يقال: عال الرجل ، افتقر.

(رعاء الشاء يتطاولون في البنيان): يتفاضلون في ارتفاعه ويتفاخرون في حسنه وهو مفعول ثان؛ إن جعلت الرؤية فعل البصيرة، أو حال: إن جعلتها فعل الباصرة.

ومعناه: أن أهل البادية وأشباههم من أهل الفاقة تنبسط لهم الدنيا فيتوطنون البلاد ويبنون القصور المرتفعة ويتباهون بها، فهو إشارة إلى تعزز الأراذل، وتذلل الأشراف، وتولي الرياسة من لا يستحقها، وتعاطي السياسة من لا يحسنها، كما أن قوله: «**أن تلد الأمة**» إشارة على عكس ذلك، يقال: تطاول الرجل: إذا تكبر، ولعل تخصيصهما لجلالة خطبهما ونباهة شأنهما وقرب وقوعهما.

(ثم انطلق): الرجل .

(فلبث مليًا): بالتشديد من الملاوة إذ المهموز بمعنى الغني، أي: وقتًا طويلاً، وهو ثلاثة أيام، كما جاء مبينًا في رواية أبي داود والترمُذي [1] ، وهذا مخالف لرواية أبي هريرة من أنه ﷺ ذكره في المجلس.

اللهم إلا أن يقال: إن عمر لم يحضر في الحال، بل قام فأخبر الصحابة، ثم أخبر عمر بعد ثلاث بخلاف غيره، فإنهم ما برحوا حتى أخبروا به، ذكره في شرح مسلم.

(ثم قال: يا عمر، أتدري من السائل؟): أي: ما يقال في جواب هذا السؤال.

(قلت: الله ورسوله أعلم): لأن الأمارات السابقة والتعجب أوقعتهم في التردد، أهو بشر أم ملك، وهذا القدر يكفي في الشركة على أن اسم التفضيل كثيرًا ما يراد به أصل الفعل.

(قال: فإنه جبريل): أي: إذا فوضتم الأمر إلى الله ورسوله فإنه جبريل، على تأويل الإخبار وقرينة المحذوف قوله: «**الله ورسوله أعلم**» . فالفاء فصيحة لأنها تفصح عن شرط

---

(١) وهو عند الإمام أحمد في مسنده (١/٥١) ح(٣٦٧).

محذوف، وأكد الكلام لأن السائل طالب متردد، وجبريل ملك متوسط بين الله ورسوله ﷺ، يتعلق به زمام أمور الحروب والوقائع العظيمة، ومن خواص الملك أن يتمثل للبشر، فيراه جسمًا، قاله القاضي.

والسر في التوسط: أن المكالمة تقتضي مناسبة بين المتخاطبين فاقتضت الحكمة توسط جبريل ليتلقى الوحي بوجهه الذي في عالم القدرة من الله تلقيًا روحانيًا أو من اللوح ويلقيه بوجهه الذي في عالم الحكمة إلى النبي ﷺ، فربما يترل الملك في الصورة البشرية ويتعرى عن الكسوة الملكية، وربما يرتقي النبي ﷺ إلى الرتبة الملكية ويتعرى عن الكسوة البشرية، فيرد الوحي على القلب في لبسة الجلال وأبهة الكبرياء، ويأخذ بمجامعه، فإذا سر عنه وجد المترل ملقى في الروع كما في المسموع، وهذا معنى قوله: «**أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول**».

(**أتاكم يعلمكم دينكم**): بطريقة السؤال والجواب ليتمكن في نفوسهم أشد التمكن؛ لأن المحصول بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب، وأضاف إليهم لأنهم المختصون بالدين القيم دون سائر الناس.

وأشار إلى أن الإيمان والإسلام والإحسان يسمى "دينًا"، ولله در معين در علينا ماء معينًا فقال:

فنحمد ربنا أن قد هدانا	إلى الدين الحنيف هو الحميد
ونسأله ليعصمنا المعاصي	فإن عذابه صعب شديد
فيارب البرية تب علينا	فأنت الراحم الرب الفريد

(**رواه مسلم**): ورواه البخاري أيضًا في كتب الزكاة والإيمان مع تغيير.



الحديث الثالث

عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان». (رواه البخاري ومسلم)[(١)].



الكلام على الحديث الثاني

(**عن أبي عبد الرحمن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: بني الإسلام**): هو اسم لشريعة رسول الله ﷺ دون الإيمان. وقد يطلق على الإذعان بالقلب والاستسلام بجميع الجوارح والقوى في كل الأحوال، وهو الذي أمر به إبراهيم عليه السلام، حيث قال: ﴿**إذ قال له ربه أسلم**﴾ ، وهذا أخص من الأول.

(**على خمس**): أي: خمس خصال أو دعائم أو قواعد.

وفي رواية: "خمسة"، بالهاء على إرادة الأركان.

وفيه استعارة تمثيلية شبهت حالة الإسلام مع أركانه الخمسة بحالة خباء أقيمت على خمسة أعمدة، وقطبها الذي يدور عليها الأركان هو الشهادة، والبقية شعبة بمنزلة الأوتاد، فيكون الإسلام مغايرًا لهذه الأركان كمغايرة الخباء للأعمدة، ولا تصح إلا على مذهب الشافعي وغيره من أن الإسلام عبارة عن مجموع الثلاث.

(**شهادة**): بالجر عطف بيان وبالرفع خبر مبتدأ محذوف.

(**أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وإقام الصلاة**): حذف التاء لأن المضاف إليه عوض منها، قاله الزجاج، وقيل: هما مصدران.

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٤/١٦٤١) ح(٤٢٤٣)، ومسلم (١/٤٥)ح(١٦).

(وإيتاء الزكاة، وحج البيت): بفتح الحاء: لغة حجازية، وكسرها لغة نجد، وكلاهما مصدران. وقيل: الكسر اسم، والفتح مصدر.

(وصوم رمضان): وقد ورد في بعض الروايات بتقديمه، وكلاهما صحيح، ولذا قدم البخاري كتاب الحج على الصوم.

واعلم أن لكل من تلك الأركان ظاهرًا بين أحكامه في الكتب الفقهية، وحقائق وأسرار ذكرها أرباب القلوب الأمناء لأسرار الغيوب.

أما التوحيد : فسيجيء بيانه.

وأما الصلاة: فقد قيل: كان لرسول الله ﷺ معراجان، معراج في عالم الحس، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم إلى عالم الملكوت، ومعراج في عالم الأرواح من الشهادة إلى الغيب ومن الغيب إلى غيب الغيب.

والمراد بعالم الشهادة كل ما يتعلق بالجسم والجسمانيات.

وبعالم الأرواح ما فوق ذلك من الأرواح السفلية، ثم المتعلقة بسماء إلى سماء الحافين حول العرش، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته.

وهكذا يتصاعد إلى أن ينتهي إلى نور الأنوار وروح الأسرار.

فلما أراد أن يرجع قال له الرب تعالى: المسافر إذا عاد إلى وطنه أتحف أصحابه، وإن تحفة أمتك الصلوات الخمس الجامعة بين المعراجين: الجسماني بالأفعال، والروحاني بالأذكار، ولذا ورد: «**الصلاة معراج المؤمن**» (١) .

فالأركان السبعة : وهي القيامان، والركوعان، والسجدتان، والجلوس بينهما على مثال الطباق السبع، والقعود للتشهد، مطلع شمس الشهود، ومنتهى سر الوجود، فإذا وصل إلى ذلك المقام وانتهى إلى عتبة جلال الملك العلام يقول: التحيات المباركات باللسان والصلوات بالأركان والطيبات بقوة الإيمان، فعند ذلك تتلاقى روحه بروح محمد ﷺ ، فيخاطبه فيقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فيجيبه بقوله: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فقيل له: بما نلت هذه المقامة؟، فقال: بقولي: أشهد أن لا إله إلا

---

(١) لم أجده.

لله، وأن محمدًا عبده ورسوله، ثم أتحف محمدًا ﷺ بالصلاة عليه، وسلم على الملائكة الكرام الذين دخلوا عليه من كل باب[1].

وأما الصوم: فصوم الشريعة منافعه أكثر من أن تحصى ولو لم يكن إلا التشبه بالملائكة والارتقاء من حضيض حظوظ النفس إلى ذروة التشبه بالروحانيات لكفى به فضلاً.

وصوم الطريقة: فهو الإمساك عما حرم الله ﷻ وأفطر، بما أباح وأحل.

وصوم الحقيقة: فهو الإمساك عن الأكوان، والإفطار بمشاهدة الرحمن.

قال:

صمت عن غيره فلما تجلى	كان لي شاغلاً عن الإفطار
وتشـــوقت مـــدة ثم لمـــا	زارني جل عن مد الإنظار

وأما الزكاة: فهي إشارة إلى تزكية أحوال الظاهر والباطن بترك الأموال وصرفها إلى أسباب الوصول، وتخلية القلب عن الأغيار، وتفريغ الخاطر لظهور تجليات الأنوار.

وأما الحج: فهو إشارة إلى وجوب زيارة بيت الخليل عليه السلام، من استطاع إليه السبيل، إن وجد شرائط السلوك وإمكانه وآداب السفر وأركانه، وهي :

الإحرام بالخروج عن الرسوم والعادات، والتجرد عن المألوفات، والتوجه إلى الله بصفاء الطويات، والوقوف بعرفات المعرفة، والعكوف على عتبة جبل الرحمة، والطواف بالخروج عن الأطوار السبعية بالأشواط السبعية حول كعبة الربوبية، والسعي بين صفاء الصفات ومروة المروآت، والحلق بمحو آثار العبودية بموسى الأنوار الإلهية.

وقس عليه سائر المناسك، ولله در القائل الناسك:

يا من على وجهه حجي ومعتمري	إن حج قوم إلى ترب وأحجار
لبيك لبيك من قرب ومن بعـــــد	سرًا بسر وإضمارًا بإضمـــــار

(رواه البخاري ومسلم).

---

(١) هذا الكلام الذي ذكره المصنف في الصلاة، فيه شطط عن النهج القويم، حيث لا دليل عليه من كتاب أو سنة صحيحة، وكان الأولى أن يذكر فيها قول النبي ﷺ : **((جعلت قرة عيني في الصلاة))**، وبيانه: أن ذلك لما فيها من خشوع وخضوع لله عز وجل يخرج العبد من التفكر في الدنيا وملاذاتها وهو النعيم الزائل، إلى التفكر في الآخرة ونعيمها وهو النعيم الدائم المقيم، وأنها هي الأصل، مما يجعل نفسه تصفو وتشف وترقى لله عز وجل، وتكثر من فعل الطاعات والبعد عن المعاصي، والله أعلم.

الحديث الرابع

عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: حدّثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفةً ثم يكون علقةً مثل ذلك ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكَتْب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها». (رواه البخاري ومسلم)[١].



الكلام على الحديث الرابع

(**عن أبي عبد الرحمن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق**): في أقواله وأفعاله وأحواله .

(**المصدوق**): فيما يأتيه من الوحي، والجملة اعتراضية لا حالية لتعم الأحوال كلها.

(**إن أحدكم يجمع خلقه**): أي: يضم ويحرز ماهية خلقه. والخلق في الأصل بمعنى: التقدير، يستعمل في إيجاد الشيء من مادة وغيرها، فالإيجاد بالمواد والأسباب يتعلق بعالم الملك والشهادة، وهو مظهر الحكمة، والإيجاد بغيرها يتعلق بعالم الملكوت والغيب، إذ هو مظهر الأمر والقدرة، فالجسم لما كان من عالم الخلق اقتضى المادة والمدة، والروح لما كان من عالم الأمر لم يقتض ذلك.

(**في بطن أمه أربعين يومًا**): أي: نطفة، كما في الرواية الأخرى، وهي الماء القليل؛ لأنه ينطف نطفًا، أي: يسيل، ومعنى الجمع هو: أن يمكث أربعين ليلة في بشرة المرأة بعد أن

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣/١١٧٤)ح(٣٠٣٦)، ومسلم (٤/٢٠٣٦)ح(٢٦٤٣).

انتشرت في بدنها تحت كل ظفر وشعر، ثم يترل منها دمًا في الرحم، كذا روي عن ابن مسعود.

قال الأطباء: الغذاء إذا وصل إلى المعدة حصل له هناك هضم، وإذا وصل إلى الكبد حصل له هضم ثان، وفي العروق له هضم ثالث، وفي جواهر الأعضاء هضم رابع، وحينئذ يصير جزءًا من المتغذي، تشبيهًا به.

ثم عند استيلاء الحرارة على البدن وقت هيجان الشهوة يحصل ذوبان لجملة الأعضاء، ويجتمع منه النطفة، في جسم مختلف الأجزاء، وإن تشابهت عند الحس، والمقتضى لتولد البدن منها ليس هو الطبيعة الحاصلة لجوهر النطفة ودم الطمث؛ لأن القوة الطبيعية مع كونها خرقًا سريعة الاستحالة إذا عملت في مادة يجب أن يكون فعلها هو الكرية لما ثبت في الحكمة من أن البسائط يجب أن يكون أشكالها هي الكرية، فيلزم أن يكون الحيوان كريًا مختلف الأعضاء في الوضع، وهو باطل، بل المؤثر فيها تدبير الفاعل المختار، ﴿**هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء**﴾ .

قالت الصوفية: خصوصية الأربعين لموافقة تخمير طينة آدم وميقات موسى عليهما السلام، وذلك لاختصاصها بالكمال لتركبها من عشرة وأربع، ولكل خاصية في الكمال.

أما الأول فلأنها غاية الآحاد من غير تكرار.

وأما الثاني فلأنه قد استمر كل مستقيم البنيان على أربعة أركان كالطبائع، والفصول الأربع.

قال الخطابي: الحكمة في تأخير كل منها أربعين يومًا: أن يعتاد الرحم؛ لأنه لو خلق دفعًا لشق ذلك على الأم ويخاف عليها.

وأيضًا تقلبه في هذه الأطوار المباينة تأكيد لأمر البعث؛ لأن من قدر عليه ابتداء يقدر على إعادته، بل هي أدخل فيها وأهون.

(**ثم يكون**): أي: يصير خلقه (**علقة**): وهي دم جامد، لأنها إذ ذاك تعلق بالرحم.

(**مثل ذلك**): أي أربعين يومًا (**ثم يكون مضغة**): أي: قطعة من اللحم قدر ما يمضغ (**مثل ذلك، ثم يرسل الملك**): في الطور الرابع حين يتكامل بنيانه ويتشكل أعضاؤه، والمراد بالإرسال: أمره بها والتصرف فيها ؛ لأنه ثبت في الصحيحين أنه موكل بالرحم حين كان نطفة. أو ذاك ملك آخر غير ملك الحفظ، وعجن النطفة بتراب قبره، كما ورد في تفسير

قوله تعالى: ﴿منها خلقناكم﴾ [طه: ٥٥]، أن الملك يأخذ من تراب مدفنه فيذرها على النطفة، ولكونه سلالة من الطين جاء مختلف الألوان والأخلاق حسب اختلاف أجزاء الطين، بل بحسب اختلاف المركبات من الطين.

فيه حرص الفأرة والنملة، وشهوة العصفور، وغضب الفهد، وكبر النمر، وبخل الكلب، وشره الخنزير، وحقد الحية، وغير ذلك من ذمائم الأخلاق والصفات.

وفيه: شجاعة الأسد، وسخاوة الديك، وقناعة البوم، وحلم الجمل، وتواضع الهرة، ووفاء الكلب، وبكور الغراب، وهمة البازي، ونحوها من محاسن الأخلاق.

فإن قلت: قد ورد في صحيح مسلم برواية حذيفة بن أسيد لا ابن مسعود كما في المشارق: «**إنه إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكًا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها وعظامها، ثم يقول: يا رب، أذكر أم أنثى، فيقضي ربك ما شاء، ثم يكتب أجله ورزقه**»[1] ، فعلم منه أن التصوير بعد الأربعين الأولى، وهو مناف لهذه الرواية؟

فجوابه: أن لتصرف الملك أوقات:

أحدها: حين يكون نطفة، ثم ينقلب علقة، وهو أول علم الملك بأنه ولد، وذلك عقيب الأربعين الثانية، وحينئذ يكتب رزقه وأجله وعمله وخلقته وصورته، ثم يتصرف فيه بتصويره وخلق أعضائه، وذلك في الأربعين الثالثة، ثم ينفخ فيه الروح، فالمراد بتصويرها بعده: أنه كتب ذلك ثم يفعله في وقت آخر؛ لأن التصوير بعد الأربعين الأولى غير موجود عادة، كذا في شرح مسلم.

ولا يخفى ما فيه، وقد استفاض بين النساء من أن النطفة إذا قدرت ذكرًا يتصور بعد الأربعين الأولى، بحيث يشاهد منه كل شيء حتى السوءة، فتحمل رواية ابن مسعود على البنات أو الغالب. والله أعلم.

(**فينفخ فيه الروح**): أي: بعد كمال الجسد وتقدير أموره. والنفح بالمهملة والنفخ بالمعجمة والنفث بمعنى واحد، إلا أن الأولين يستعملان على طريق الخير والشر والثالث على طريق الشر.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١/١٢١)ح(٣١٢)، ومسلم (٤/٢٠٣٧)ح(٢٦٤٥).

وفي الحديث معنى لطيف بلسان الإشارة، وهي أنه إذا سقطت من صلب ولاية رجل من رجال الحق نطفة إرادة في رحم قلب مريد صادق يستسلم لتصرفات ولاية الشيخ، وهي بمثابة ملك الأرحام، ويضبط المريد أحواله الظاهرة والباطنة على وفق إرادة أمر الشيخ وتدبيره، فالله تعالى يتصرف ولاية الشيخ المؤيد بتأييد الحق بمرور كل أربعين عليه بشرائطها بحلولها من حال إلى حال، ومن مقام إلى آخر إلى أن يرجع إلى حظائر القدس ورياض الأنس التي صدر منها إلى عالم الإنس، فيكون الجنين في رحم القلب وهو طفل خليفة الله في أرضه، فيستحق الآن أن ينفخ فيه الروح المخصوص بأنبيائه وأوليائه، يلقي الروح من أمره على من يشاء، وأيدهم بروح منه، فإذا نفخ فيه من روحه يكون آدم وقته فتسجد له الملائكة أجمعون.

(**ويؤمر بأربع كلمات**): عطف على "ينفخ"، وجعله نسقًا على "يكون علقة"، للتوفيق بين الحديثين تعسف بارد، أي: يؤمر بكتابة الأحكام المقدرة له على جبهته أو بطن كفه، أو ورقة تعلق برقبته. قاله مجاهد.

واعلم أن الكتابة التي في أم الكتاب تعم الأشياء كلها، وهذا ما خص به كل إنسان، إذ لكل كتابة سابقة، وهي ما في اللوح المحفوظ، ولاحقة تكتب ليلة القدر، ومتوسطة أشير إليها في الحديث.

(**بكتب**): بدل من قوله: "أربع" إذ المضاف مقدر فيه، ويروى "يكتب"على الاستئناف.

(**رزقه**): أي: ما ينتفع به حلالاً أو حرامًا ، مأكولاً أو غيره.

(**وأجله**): أي: مدة عمره، أو الوقت الذي ينقرض فيه؛ لأن الأجل يطلق عليهما.

(**وعمله ، وشقي أو سعيد**): مرفوع بتقدير: هو، وإنما عدل عن قوله: وشقاوته وسعادته، لأنه حكاية لصورة ما يكتبه الملك، أو التقدير: أنه شقي أو سعيد، فعدل عنه لأن التفصيل وارد عليهما، ذكره الطيبي.

والسعادة: معاونة الأمور الإلهية للإنسان على نيل الخيرات، ويضادها الشقاوة.

وهي إما قلبية أو بدنية أو ما حول البدن:

فالقلبية هي: المعارف والحكم والكمالات العلمية والعملية القلبية والخلقية.

والبدنية : الصحة والقوة واللذات الجسمانية.

وما حول البدن: الأموال والأسباب.

وقدم الشقاوة للاهتمام وليعلم أن الشر والخير من عند الله، وتقديره ردًا على الثنوية المثبتين شريكًا فاعلاً للشر؛ لأنهم طلبوا الحكمة في أفعال الله وقالوا: مدبر العالم لو كان واحدًا لم يختص هذا بأنواع الخيرات والصحة والغنى، وذلك بأصناف الشر، فرد عليهم الرب تعالى بقوله: ﴿**لا يسئل عما يفعل**﴾ .

وما أحسن قول القائل:

كم من أريب فهيم قلبه	مستكمل العقل مقـــل عديم
وجاهل تكثر أموالـــــه	ذلك تقدير العزيز العليـــــم

وتحقيق هذا المقام أن يقال: إن لله صفتي لطف وقهر، والحكمة تقتضي أن يكون الملك -سيما ملك الملوك- متصفًا بكل منهما، وهما من أوصاف الكمال، ولا يقوم أحدهما مقام الآخر، ولا يحقق كل منهما إلا بوجود الآخر، كما لا تتبين اللذة إلا بالألم، وبضدها تتميز الأشياء، ولابد لكل منهما من مظهر.

فالسعداء وأعمالهم مظاهر اللطف، وفائدة بعثة الأنبياء وإنزال الكتب، ترجع إليهم، ﴿**إنما أنت من منذر من يخشاها**﴾، كما أن فائدة نور الشمس لأهل البصر.

والأشقياء وأفعالهم مظاهر القهر، وفائدة البعثة لهم: إلزام الحجة عليهم ﴿**لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**﴾، وهي في الحقيقة النعي عليهم بالشقاوة فتأمل.

قال القاضي: من وجده مستعدًا لقبول الحق أثبته في عداد السعداء، ومن رآه قاسي القلب ضاريًا بالطبع متآبيًا عن قبول الحق كتبه في ديوان الأشقياء، هذا إذا لم يعلم من حاله ما يغير ذلك، فإن علم كتب أوائله وأواخره وحكم عليه وفق ما يتم به عمله، كما أشار إليه بقوله: (**فوالذي**): أي: إذا كانت الشقاوة والسعادة مكتوبة فوالذي (**لا إله غيره**): وأكده بالقسم لتأكيد القضاء، ليعلم أن الكسب لا مدخل له في الحقيقة.

(**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون**): حتى ناصبة وما نافية، قاله الطيبـــي.

ولعل لفظة "ما" لمجرد النفي منسلخة عن معنى الحالية ليجامع "إن" التي للاستقبال كاللام في قوله تعالى : ﴿**ولسوف يعطيك ربك**﴾ [الضحى:٥]، لمجرد التأكيد معرى عن معنى الحالية. في بعض النسخ الصحيحة للبخاري لهذا الكتاب مقيدة بالضم.

(**بينه وبينها إلا ذراع**):أراد به التمثيل بالقرب من موته ودخوله عقيبه الجنة.

(**فيسبق**): أورد عليه الفاء لتدل على حصول السبق وخوله بلا مهملة وعداه بعلى تضمينًا لمعنى يغلب: أي: يغلب (**عليه الكتاب**):أي: ما كتب قبل النفخ.

(**فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**): لأن بذر السعادة والشقاوة قد اختفى في الأطوار الإنسانية، لا يبرز إلا إذا انتهى إلى غاية الإيمانية أو الطغيانية.

(**وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة**): بأن يستغفر ويتوب.

(**فيدخلها**): إذا الخاتمة نسخت السابقة، فعلم أنه لا عبرة بالصورة، بل بالإخلاص وحسن السريرة، ولا يغتر بحسن الأعمال ولا يقنط من روح الله بقبح الأفعال، ولا يحقر أهل الشقاوة في ظاهر الأحوال، إذ الأمر منوط بمطلق القضاء، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

فعلم أن ما يجري في العالم من الإيمان والكفر والسعادة والشقاوة، ومن الكليات والجزئيات بتقدير الله وإيجاده، إذ لا مؤثر في الوجود إلا الله المتعالي عن الشريك ذاتًا وصفة وفعلاً، يفعل ما يشاء ، لا علة لفعله ولا معقب لحكمه، لا يسئل عما يفعل.

ولا مجال للعقل في تحسين الأفعال وتقبيحها، بل يحسن صدورها كلها عنه.

ولا استقلال للعبد في الأفعال والمدح والذم باعتبار المحلية، لا باعتبار الفاعلية، كما يمدح الشيء بحسنه .

والثواب والعقاب كسائر الأمور العادية، فإن الله أجرى عادته بأن يوجد الأسباب أولاً، ثم يوجد المسببات عقبها، فكل منها صادرة عنه ابتداءً.

وأما البعثة والتكليف فلأن الله يحب اتصافه بالأمر والنهي والوعد والوعيد، كما تقرر، ولا بد لها من مظهر كما كان كذلك في جميع الصفات، وكلف العباد بهما ورتب عليه الوعد والوعيد؛ إظهارًا لمقتضى سلطته كما قال: "كنت كنزًا مخفيًا فأردت أن أُعرف، فخلقت خلقًا لأن أُعرف".

ثم القدر سر لم يطلع عليه ملك ولا نبي ، فلا يجوز البحث عنه، ولذا قال علي كرم الله وجهه لمن سأله عن القدر:

"طريق مظلم لا تسلكه".

فأعاد السؤال، قال:

"بحر عميق لا تلجه".

فأعاد السؤال فقال:

"سر الله قد خفي عليك فلا تفتشه".

ولله در من قال:

تبارك من أجرى الأمور بحكمــــة كما شـــاء لا ظلمًا أراد ولا هضمـــا

فما لك شيء غير ما الله شـــاءه فإن شئت طب نفسًا وإن شئت مت كظما

(رواه البخاري ومسلم).



الحديث الخامس

عن أم المؤمنين أم عبد الله عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». (رواه البخاري ومسلم) (١).

وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»(٢).



الكلام على الحديث الخامس

(عن أم المؤمنين): كنية أزواج النبي ﷺ ؛ لقوله تعالى: ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ ، أي: في حرمة النكاح فقط.

(أم عبد الله): كنيت باسم ابن أختها عبدالله بن الزبير ابن أسماء بنت أبي بكر. أو بسقط من رسول الله ﷺ سمي: عبدالله، وهو ضعيف، ذكره في الأذكار.

(عائشة رضي الله عنها): أسلمت ونكحت ولها ثلاث سنين بمكة، وبني عليها بالمدينة ولها تسع سنين، وبقيت معه تسعًا، كانت فقيهة عالمة كثيرة الحديث عظيمة الشأن، ماتت سنة سبع وخمسين، ومروياتها: ألف ومائتا حديث وعشرة أحاديث.

(قالت: قال رسول الله ﷺ : «من أحدث في أمرنا هذا): أي: في ديننا، عبر عنه بالأمر ؛ إذ هو الأمر المهتم بشأنه، الذي لا يخلو عنه شيء من أقواله وأفعاله، وكثيرًا ما يقولون لأمر ما: أي : لأمر عظيم مهتم بشأنه، كقول القائل:

عزمت على إقامة ذي صباح ... لأمر ما يسود من يسود

وإيرادهم اسم الإشارة بدلاً أو صفة؛ لإفادة التعظيم والإشارة إلى تمييز الدين أكمل تمييز.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢/٩٥٩)ح(٢٥٥٠)، ومسلم (٣/١٣٤٣)ح(١٧١٨).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٣/١٣٤٣)ح(١٧١٨).

والأمر اصطلاحًا: طلب فعل غير كف على جهة الاستعلاء، ولا يرد أكفف عن القتل لأن له جهتين، كما حقق، ويستعمل في الفعل والشأن والصفة.

(**ما ليس منه**): أي: رأي ما ليس له مستند من الكتاب والسنة، سواء كان فعلاً أو قولاً أو حالاً.

(**فهو رد**»): أي: فذلك المحدث مردود عن جنابنا، فإن الدين اتباع آثار الآيات والأخبار، واستنباط الأحكام منها، وقد كمل الدين كما أشار إلى ذلك في الكتاب المبين، وما أحدثه مردود فلا تقبلوه، فإن الدين غيره.

فالضمير إما إلى الشخص أو الأمر، والأول أبلغ، والثاني أظهر.

(**رواه البخاري ومسلم. وفي رواية لمسلم**: «**من عمل عملاً**): أي: من أتى بشيء من الطاعات أو بشيء من الأعمال الدنيوية أو الأخروية، سواء كان محدثًا أو سابقًا على الأمر، وكان من صفته أنه:

(**ليس عليه أمرنا**): أي: إذننا، بل أتى به على حسب هواه.

(**فهو رد**»): أي: مردود غير مقبول، فهذه الرواية أعم.

وهذا الحديث عماد في التمسك بالعروة الوثقى وأصل في الاعتصام بحبل الله الأعلى، ورد المحدثات والبدع والهوى، وقد أنشد في هذا المعنى:

وما النور إلا في الحديث وأهلـه إذا ماد في الليل البهيم وأظلمـا

وأعلى البرايا من إلى السنن اعتزى وأعمى البرايا من إلى البدع انتمى

ومن ترك القرآن قد ضـل سعيه وهل يترك القرآن من كان مسلما

ثم اعلم أن الإنسان له روح نوراني من عالم الملكوت ونفس ظلمانية من عالم الملك ولكل منها نزاع وتشوق إلى عالمه فغاية بعثة الأنبياء تزكية النفوس عن ظلمة أوصافها، وتحليتها بأنوار الأرواح حتى يتجلى فيها أن الموجود الحقيقي ذات الله وصفاته وأفعاله، فالواجب على العبد أن يدق بمطرقة كلمة التوحيد نمرود النفس إلى أن تؤمن بذلك وتكفر بطاغوت وجوده ووجود ما سوى الله، هذا هو الدين الحنيفي، فمن أحدث فيه بتسويل الشيطان غير ذلك بأن أيس عن الحق وشك في مواعيده وتعلق قلبه بغيره و لم ينسلخ عن صفاته وأفعاله و لم تنطمس ظلمات ذاته في أنواره فهو مردود و لم يتبع إلا شيطانًا مريدًا، لعنه الله.

الحديث السادس

عن أبي عبد الله النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهنّ كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب». (رواه البخاري ومسلم)[١].



الكلام على الحديث السادس

(**عن أبي عبدالله النعمان بن بشير رضي الله عنهما**): هو أول من ولد من الأنصار بعد الهجرة وحنكه رسول الله ﷺ بتمرة، سكن الكوفة واليًا عليها زمن معاوية، وولي حمص وقتل بها سنة أربع وستين، وأبوه صحابي أيضًا وشهد المشاهد كلها ومروياته مائة وثلاثة وعشرون حديثًا.

(**قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين**): يعني: أن الأشياء ثلاثة: حلال بين لا يخفى حله بأن ورد نص على حله، أو مهد أصل يمكن استخراج الجزئيات منه، كقوله: ﴿**خلق لكم ما في الأرض جميعًا**﴾ ، فإن اللام للنفع، فعلم أن الأصل في الأشياء الحل إلا أن يكون فيه مضرة.

(**والحرام بين**): واضح لا تخفى حرمته بأن ورد نص على الحرمة، كالفواحش والمحارم وما فيه حد وعقوبة والميتة والدم ولحم الختزير، أو مهد ما يستخرج منه ذلك، كقوله: «**كل مسكر حرام**» [٢] .

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨/١)ح(٥٢)، ومسلم (١٢١٩/٣)ح(١٥٩٩).

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (١٥٧٩/٤)ح(٤٠٨٧)، ومسلم (١٥٨٦/٣)ح(١٧٣٣).

(وبينهما مشتبهات): لوقوعها بين أصلين ومشاركتها لإفراد كل منهما فلكونها ذات جهة إلى الحلال لم يجز أن تعد من الحلال البين، ولكونها ذات جهة إلى الحرام لم يجز أن تعد منه.

(لا يعلمهن كثير من الناس): لتعارض الإمارتين، و لم يقل: على الناس؛ لأن العارفين والمحققين -وقليل ما هم- لا يشتبه ذلك عليهم، فإذا تردد الشيء بين الحل والحرمة و لم يكن نص أو إجماع اجتهد فيه المجتهد فألحقه بأحدهما بالدليل الشرعي، فإذا فقد فالورع تركه.

قال المصنف: وللعلماء فيه ثلاثة أقوال: الحكم بالحل، والحرمة، والتوقف ، كذا ذكره الشارحون.

والتحقيق: أن يقال: الحلال البين: ما سلم عينه عن الصفات المحرمة و لم يتطرق إلى أسبابه.

والحرام البين: ما فيه صفة محرمة، كالخمر أو حصل بسبب حرام كالربا.

والمشتبه: ما التبس أمره إن تعارض فيه اعتقادان صدرا عن سببين، فما لا سبب له فهو وسوسة.

ومثال الشبهة: إما اختلاف الأدلة لتعارضها، أو لتعارض العلامتان، كما تقدمت الإشارة إليها.

وإما اختلاط الحلال بالحرام: بأن، اختلط حرام غير محصور بحلال غير محصور فلا منع منه إلا إذا اقترن بعلامة معينة للحرمة، لكن الورع تركه، أو حرام محصور بحلال غير محصور، كما لو اشتبه محرم بنسوة بلد فله أن ينكح ما شاء ، أو اختلط محصور بمحصور فلا يخلو إما أن يكون اختلاط امتزاج كالمائعات، فلا يخفى حكمه، أو استبهام مع تمييز الأعيان، كما لو اشتبه ميتة بمذكاة، أو رضيعة بعشرة نسوة، فيجب الاجتناب.

وأما الشك في السبب المحرم أو المحلل فلا يخلو إما أن يتعادل الاحتمالان فالحكم للاستصحاب.

مثال: ما يكون التحريم معلومًا والشك في المحلل إذا جرح صيدًا وصادفه في الماء ميتًا، و لم يدر أمات بالغرق أو بالجرح، فهو حرام؛ لأن الأصل الحرمة.

ومثال عكسه: ما إذا علق رجلان طلاق زوجتيهما بطائر فقال أحدهما: إن كان هذا غرابًا فامرأتي طالق، وقال الآخر: إن لم يكن فكذلك، والتبس، فالحكم للحل.

والورع لا يخفى، فإن غلب أحدهما فالحكم للغالب، كما إذا رمى إلى صيد فغاب ثم أدركه ميتًا واحتمل موته بسبب آخر و لم يظهر فحلال أو غلب على ظنه نجاسة أحد الإنائين بعلامة فنجس.

ومن جملة الشبهات: أن يشتري شيئًا في الذمة ويقضي ثمنه من مال حرام.

ومنها: أموال السلاطين وغيرهم، بل في زماننا لا يخفى حكمها.

ثم لما كان سياق الكلام وتفصيل الأحكام للإرشاد إلى التحرز من الحرام البين، وذلك لا يحصل إلا بالانتهاء عنه وعن المشتبه، قال:

(**فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه**): أي: حصل البراءة لدينه من الذم الشرعي، وحمى عرضه من وقوع الناس فيه لاتهامهم إياه بموافقة المحظورات إذا لم يتق الشبهات.

وحمل الشارح المطهر العرض على النفس أيضًا حيث قال: طهر دينه وبدنه من العقوبة، وكلاهما صحيح.

قال في النهاية: العرض: موضع المدح والذم من الإنسان، سواء كان في نفسه أو سلفه، ولما كان موضعه النفس حمل عليها إطلاقًا للمحل على الحال.

والاستبراء: من برئ من الدين والعيب، ومنه: استبراء الجارية إذا علم براءة رحمها من الحمل، فأطلق العلم بالحصول وأراد الحصول أو طلب برائته كما في المغرب، وعلى هذا فالسين للتأكيد كما في قوله تعالى: ﴿**فاستجاب لهم ربهم**﴾، لا للطلب إذ الطلب لا يستلزم الحصول، فعلم أن ما اشتبه أمره في المباح ينبغي اجتنابه لئلا يجره إلى الوقوع في الحرام، وأنه لو وجد في بيته ما لا يدري أهو له أو لغيره فالورع تركه، كما فعله النبي ﷺ في التمرة التي وجدها في بيته، وقال: «**أخشى أن تكون من الصدقة**» [١] .

---

(١) صحيح : أخرجه أبو نعيم في المسند المستخرج (١٣٦/٣) ح (٢٣٩٣) ، والبيهقي في الكبرى (٣٣٤/٥) ح(١٠٦٠٠)، وعبد الرزاق في مصنفه (٥٢/٤)ح(٦٩٤٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥١/٥)ح(٥٧٤٣).

ولا يحرم؛ لأنه في يده وأن المعاملة مع من في ماله شبهة ربا أو نحوه تركها أولى ما لم تتيقن حرمته، فإنه ﷺ رهن درعه عند يهودي بشعير أخذه منه لقوت أهله مع أكلهم الربا وأثمان الخمور، وإنه إن أتى من له مال حلال وحرام بمال فإن لم يتميز الحرام كان ماله كله حرامًا وإن تميز لكن لا يعلم أنه من أيهما؟ فهو الشبهة . قاله الغزالي.

(**ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام**): لأن من سهل على نفسه ارتكاب الشبهات أفضاه الحال متدرجًا إلى ارتكاب المحرمات المقطوع بحرمتها أو ارتكاب المحرمات في الجملة؛ لأن الذي ارتكبها من المشتبه ربما كان حرامًا، فيقع فيه بخلاف المحتاط فإنه إذا امتنع من الشبهات فلأن لا يرتكب الحرام أولى.

(**كالراعي**): ضرب مثل فائدته تجلية المعاني المعقولة بصورة المحسوسات لزيادة الكشف، وله شأن عجيب في إبراز الحقائق ورفع الأستار عن وجوه الدقائق، ولذا كثر في القرآن والحديث.

وهو لغة بمعنى المثل والنظير.

واصطلاحًا : قول غريب سائر يشبه مضربه بمورده، ويستعار للحال والصفة والقصة التي فيها غرابة، أي حاله كحال الراعي.

(**يرعى**): صفة للراعي؛ لأنه في المعنى كالنكرة.

(**حول الحمى**): هو ما يحمى من الأرض لأجل الدواب ويمنع دخول الغير، وهذا غير جائز إلا للنبي ﷺ لقوله: «**لا حمى إلا لله ورسوله**» .

(**يوشك**): أي: يسرع. (**أن يرتع فيه**): بناء على تساهله في المحافظة وجرأته على الرعي فيستحق عقاب الملك، ثم نبه بكلمة (**ألا**): على أمور خطيرة في الشرع في ثلاثة مواضع إرشادًا إلى أن كل أمر دخله حرف التنبيه لجلالة شأنه يستحق أن ينبه المخاطب له ويستأنف الكلام لأجله، فقال: "ألا"، وهي مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي، فتفيد التنبيه على تحقق ما بعدها، ولإفادة التحقيق لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرًا، بنحو ما يتلقى به القسم.

(**وإن لكل ملك حمى**): يمنع الناس منه، ويعاقبون عليه. وهو عطف على "ألا" كذا قيل؛ بناء على أنه يفهم من لفظة "ألا" أنبه، ومن قوله: "**إن لكل ملك حمى**" أحقق، فبهذا التأويل صح العطف، إذ عطف المفرد على الجملة لا يصح إلا باعتبار أن يتضمن المفرد معنى

الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، على قول. والأولى أن يقال: إنها واو الابتداء التي سمتها النحاة واو الاستئناف، الدالة على انقطاع ما بعدها عما قبلها في الجملة، كما ذكره صاحب المغني.

أو هو عطف على السابق، ولفظة "ألا" متوسطة، أي: إن الحلال بين، وكذا وكذا، وإن لكل ملك حمى، أو على مقدر يناسب المقام، كما ذكره الزمخشري في قوله تعالى: ﴿أوكلما عاهدوا عهدًا﴾ [البقرة: ١٠٠].

(**ألا وإن حمى الله محارمه**): وهي أنواع المعاصي، فمن دخله بارتكاب شيء منها يستحق العقوبة فمنها ما لا يغفر وهو الشرك، ومنها ما يغفر بالاستغفار وهو حق الله، ومنها: ما لا يغفر إلا بالإرضاء والترداد، وهو حق العباد، إما في الدنيا بالاستحلال أو رد العين ، وإما في الآخرة برد ثواب الظالم إليه أو الله يرضي المظلوم بلطفه، فشبه المحارم من حيث إنها ممنوع التبسط فيها بحمى السلطان.

ولما كان التورع والتهتك مما يتبع ميلان القلب إلى الصلاح والفساد نبه على ذلك بقوله:

(**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت**): بالإيمان والعلم والعرفان. واللام مفتوحة وهي أفصح، أو مضمومة.

(**صلح الجسد كله**): بالأعمال والأخلاق والأحوال.

(**وإذا فسدت**): بالجحود والشك والكفران، بفتح السين والضم أيضًا.

(**فسد الجسد كله**): بالفجور والعصيان، فعلى المكلف أن يقبل عليها ويمنعها عن الانهماك في الشهوات حتى لا يبادر إلى الشبهات ولا يستعمل جوارحه في اقتراف المحرمات.

(**ألا وهي القلب**): أي: تلك المضغة الموصوفة القلب، وهي قطعة من اللحم، والمراد تصغير القلب بالنسبة إلى باقي الجسد، مع أن صلاحه وفساده باتفاق الجسد واتباعه، فأهم الأمور مراعاته، فإن من صدر منه أفعال صالحة تحرك الجسد حركة صالحة وبالعكس فالقلب كالملك، والجسد كالرعية.

فائدة:

وهي أن النبي ﷺ شق صدره أولاً في سنة ثلاث أو أربع من مولده، ثم شق بعدما تم له عشر سنين، ثم أعيد ثم شق ليلة المعراج ما بين النقرة إلى العانة، واستخرج قلبه فشق

واستخرج منه علقة، وقيل له: هذا حظ الشيطان منك، ثم أوتي بطست من ذهب مملؤة إيمانًا فغسل وحشي إيمانًا وحكمة، ثم أعيد.

قال بعض العارفين: القلب هدف سهام القهر واللطف، وهي متقلبة في قبضة خالقها، فإذا وقعت في بحار النكرات مالت من تأثير الشبهات القهريات إلى عالم الشهوات وأفاضت إلى الجوارح مباشرة الآثام، وإذا وقعت في بحار المعارف مالت بنعت المحبة والشوق إلى مشاهدة الله فاستنارت بنورها فنورت العقل والحس والروح والصورة فيتولد من حسن جوارحها خشوع الصورة وصلاح الجوارح في خدمته.

والقلب لغة: صرف الشيء إلى عكسه، ومنه: المقلوب، سمي به لكثرة تقلبه، قال بعضهم:

قد سمي القلب قلبًا من تقلبه فاحذر على القلب من قلب وتحويل

وله ظاهر وهو: المضغة الصنوبرية المودعة في التجويف الأيسر من الصدر، وهو محل اللطيفة الإنسانية، ولذا نسب إليه الصلاح والفساد.

وباطن: وهو اللطيفة الروحانية النورانية الربانية العالمة التي هي مهبط الأنوار الإلهية، وبها يكون الإنسان إنسانًا، وبها يستعد لامتثال الأوامر والنواهي، وبها صلاح البدن وفساده، وهي خلاصة تولدت من الروح الروحاني ويعبر عنها بالنفس الناطقة، ﴿**ونفس وما سواها**﴾ [الشمس:٧]، والروح ﴿**قل الروح من أمر ربي**﴾ [الإسراء:٨٥]، وهي مقر الإيمان ﴿**أولئك كتب في قلوبهم الإيمان**﴾ [المجادلة:٢٢]، كما أن الصدر محل الإسلام، ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام**﴾ [الزمر: ٢٢]. والفؤاد مقر المشاهدة: ﴿**ما كذب الفؤاد ما رأى**﴾ [النجم:١١]، واللب مقام التوحيد: ﴿**إنما يتذكر أولو الألباب**﴾ [الرعد:١٩]. أي: الذين أخرجوا من قشر الوجود المجازي وبقوا بلب الوجود الحقيقي، لكن معرفته كما هي متعذرة، والإشارة إلى حقيقتها على أرباب الحقائق متعسرة.

والروح لغة: ما به الحياة، وهي نوعان:

روح حيواني من عالم الحكمة، وهي جسم لطيف حامل لقوة الحس والحركة، ينبعث من القلب إلى سائر الأعضاء بتوسط الأوردة والشرايين، وهي التي تذوق الموت ويتصرف فيها بعلم الطب باعتدال مزاج الأخلاط، ويرد عليها الروح العلوي.

وروح إنسانيّ من عالم الأمر، وهي غير مخلوقة ليس بينها وبين الله سبب ولا نسبة، استقلت بذاتها دون الجسد وسبقت عليه من عالم الأمر وجودًا، وكانت هناك مربات

بنظرات الله جل وعلا، محتفة بالعلم والحياة والقدرة وسائر الأحوال، بوصف كلي فصارت بارزة في الجسد مختفية فيه بحيث تلونت بتلونه ليتعلق بها الأحكام الشرعية للإذعان وتتعرف بسر ظاهرية الحق تعالى، ثم يعود إلى عالمه بفواضل من الأخلاق والمعرفة وبالجزئيات، إلا أن قسمًا تثبت عليه الطهارة الفطرية، وقسمًا يتغير فيه ذلك كما قال ﷺ : «**فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[1]، وهذه لمعة من كلام الغزالي، والبقالي، والسهروردي، وغيرهم، رضي الله عنهم أجمعين.

قال الإمام في التفسير الكبير: الصحيح من المذهب عند الراغب والغزالي وغيرهما: أن الروح الإنساني جوهر مجرد ليس داخل العالم الجسماني ولا خارجه ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه، ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف، فإذا انقطعت علاقته عنه بقي مشاهدًا، وقد اشتهر عن علي كرم الله وجهه أنه قال:

كيفية المرء ليس المرء يدركها ... فكيف كيفية الجبار في القدم

هو الذي أنشأ الإنسان مبتدعًا ... فكيف يدركه مستحدث النسم

(**رواه البخاري ومسلم**).



(١) صحيح: أخرجه البخاري (١/٤٥٦) ح(١٢٩٢).

الحديث السابع

عن أبي رقية تميم بن أوس الداري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة»، قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم». (رواه مسلم) (١).



الكلام على الحديث السابع

(**عن أبي رقية تميم بن أوس الداري**): منسوب إلى جد له اسمه دار عند الجمهور، كان نصرانيًا فأسلم سنة سبع وسكن بالمدينة ثم انتقل إلى بيت المقدس، يختم القرآن في كل ركعة ويتهجد كثيرًا.

روى عن النبي ﷺ وروي عنه قصة الدجال والجساسة، ومروياته ثمانية عشر حديثًا، وليس له في الصحيحين إلا هذا ﷺ.

(**أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة»**): أي: عماد الدين وقوامه كما في قوله: «**الحج عرفة**» ، فالحصر ادعائي، كذا قيل: بناء على ما اشتهر على أنه أحد أرباع الإسلام، لكن المصنف اختار أنه عليه مدار الإسلام، فالحصر حقيقي.

والنصيحة: كلمة جامعة ومعناها إرادة الخير للمنصوح له، من: نصحت العسل: إذا صفيته من الشمع، شبه تخليص العسل من الشمع.

ولما كانت من الأمور الإضافية استفصلت.

(**قلنا**): النصيحة (**لمن؟ قال**: «**لله ﷻ** »): بالإيمان بوجوده بأن نعلم أن وراء المتحيزات موجودًا خالقًا لها، وبصفاته الثبوتية والسلبية والإضافية، وبأفعاله بأن يعلم أن كل ما سواه المسمى بالعالم فإنما حدث بقدرته، وهو من العرش إلى الثرى بالنسبة إلى العظمة الإلهية أقل

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١/٧٤) ح(٥٥).

وأحقر من خردلة بالنسبة إلى جميع العالم وبأحكامه بأن يعرف أنها غير معللة بغرض وأن المقصود من شرعها منافع عائدة إلى العباد وأن له الحكم، كيف يشاء، ولا يجب عليه شيء، إن أثاب فبفضله، وإن عذب فبعدله.

وبأسمائه بأن يعلم أنها توقيفية، ثم بإخلاص العبادة له، واجتناب معاصيه والحب والبغض له.

وهذه الأوصاف راجعة إلى العبد في نصيحته نفسه ودعوة غيره إليها، فإن الله غني عن العالمين.

(و): النصيحة (**لكتابه**): بأن يعتقد بأنه كلامه وتتريله، والاعتبار بمواعظه والتدبر في عجائبه، والعمل بمحكمه ، والتسليم بمتشابهه.

والمراد بالكتاب: القرآن؛ لأن الإيمان به يتضمن الإيمان بجميع الكتب المترلة أو جنس الكتب السماوية إذ الجنس المضاف يفيد العموم، كما تقرر في الأصول على أن صاحب المفتاح صرح بأن استغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع، ولذا قال ابن عباس: الكتاب أكثر من الكتب، لتناوله وحدان الجنس، بخلاف الكتب، لكن حقق بعض الأفاضل أن الجمع المحلى باللام يشمل كل فرد فرد مثل المفرد ووقوعه في جواب من على سبيل التغليب أو الاستعارة بالكناية، كما في قوله تعالى: ﴿**هذا كتابنا ينطق**﴾ .

(و): النصيحة (**لرسوله** ﷺ): بالإيمان به وبما جاء به، والانقياد لأوامره ونواهيه. والمراد به: محمد ﷺ ، أو الجنس ليشمل الملك أيضًا؛ إذ هم رسل إلى الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿**جاعل الملائكة رسلاً**﴾ [فاطر:١].

(و): النصيحة (**لأئمة المسلمين**): بأن ينقاد لطاعتهم ولا يخرج عليهم.

والإمام: من له خلافة الرسول في إقامة الدين بحيث يجب اتباعه على الكل.

(**وعامتهم**»): بإرشادهم لمصالحهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودفع الضرر عنهم، فعلم اشتماله على أمهات قواعد الدين وأصول الشرع المتين.

وأنشد بعض الصالحين:

عرضت نصيحتي مني لزيد فقال: غششتني والنصح مر
فقلت له: تجنب كل شيء يقال عليك: إن الحر حــر

(**رواه مسلم**).

الحديث الثامن

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى». (رواه البخاري ومسلم)[1].



الكلام على الحديث الثامن

(**عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «أمرت»**): لم يذكر الآمر للعلم به.

(**أن أقاتل الناس**): أراد عبدة الأوثان دون أهل الكتاب؛ لأن غاية مقاتلتهم ليس ما ذكر فقط، بل إما ذاك أو إعطاء الجزية، ذكره أكثر الشارحين. أو الأعم، لكن خص منه أهل الكتاب بالآية، ذكره الطيبـــي، وهو أولى؛ لأن الأمر بالقتال إنما نزل بالمدينة مع كل من يخالف الإسلام.

قال ابن الصباغ في الشامل[2]: لما بعث النبي ﷺ فرض عليه التوحيد والتبليغ وقراءة القرآن بقوله: ﴿**اقرأ باسم ربك**﴾ [العلق:١]، ثم فرض الصلاة بمكة، ثم فرض الصوم بعد سنتين من الهجرة، والحج في السنة السادسة والخامسة. وأما الزكاة فقيل: بعد الصيام، وقيل: قبله. وأما الجهاد، فلم يؤذن له بمكة وأذن له بالمدينة لمن ابتدأوهم به دون الحرم، والأشهر الحرم، ثم نسخ ذلك وأبيح ابتداؤهم في الأشهر الحرم والحرم.

(**حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة**): خصهما بالذكر لأنهما إما العبادات البدنية المالية وأساسهما والعنوان على غيرهما، ولذا سمى الصلاة: عماد الدين، والزكاة: قنطرة الإسلام، وقرن بينهما في القرآن، ذكره القاضي.

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (١/١٧)ح(٢٥)، ومسلم (١/٥٢)ح(٢١).

(٢) هو كتاب من تأليف ابن الصباغ، انظر تاريخ الخلفاء (١/٤٢١).

والتحقيق أن يقال: الشهادة: إشارة إلى تخلية لوح القلب عن الشرك الجلي والخفي وسائر النفوس الفاسدة، ثم تحليته بالمعارف والحكم الإلهية والاعتقادات الخفية وأحوال المعاد وغيرها لأن من أثبت ذات الله بجميع أسمائه وصفاته التي دل عليها اسم الله ونفى غيره وصدق رسالة النبي ﷺ بنعت الصدق والأمانة، فقد وفى بعهده الذي عهده وبذل نهاية جهده في بداية جهده. وآمن بجميع ما وجب من الكتب والرسل والمعاد، ولذا لم يتعرض لعد سائر الأعداد.

وإقامة الصلاة: إشارة إلى ترك الراحات البدنية وإتعاب الآلات الجسدية، وهي أم العبادات التي إذا وجدت لم يتأخر عنها البواقي، وإنما استغني عن عد ما عداها وترك السيئات بعدها؛ لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

وإيتاء الزكاة هو الإعراض عن الفضول المالية، بل عن كل الموجودات، وبذل المال الذي هو شقيق الروح لاستفتاح أبواب الفتوح.

واللام فيها للجنس أو للعهد، فينصرف إلى الكامل، كقولهم : هو الرجل ، كأن ما عدا صلاة المسلمين وزكاتهم ليس بصلاة وزكاة.

(**فإذا فعلوا ذلك**): المذكور (**عصموا**): حفظوا (**مني دماءهم وأموالهم**): فلا يتعرض لهما بسبب من الأسباب.

(**إلا بحق الإسلام**): من قتل النفس المحرمة وترك الصلاة ومنع الزكاة بتأويل باطل وغير ذلك.

و"الحق" لغة: مصدر: حق ذاك، أي ثبت، أو نعت، بمعنى: الشيء الثابت، وبمعنى نقيض الباطل. والمراد الثاني؛ والإضافة لامية.

واصطلاحًا: يطلق على الحكم المطابق للواقع، ويقابله الباطل، وهو يشمل الأقوال والعقائد والمذاهب.

وأما الصدق فقد شاع في الأقوال خاصة، ويقابله الكذب، وقد يفرق بينهما بأن المطابقة تعتبر في الحق من جانب الواقع وفي الصدق من جانب الحكم، فمعنى: صدق الحكم مطابقته الواقع، ومعنى حقيته: مطابقة الواقع إياه.

والمراد بالإسلام : الدين.

((**وحسابهم على الله تعالى**)): فيما يسترون من الكفر والمعاصي على معنى: إنا نحكم بظاهر الحال والإيمان القولي، ونرفع عنهم ما على الكفار ونؤاخذهم بحقوق الإسلام بحسب ما يقتضيه حالهم لا بأنهم مخلصون، والله تعالى يتولى حسابهم فيثيب المخلص ويعاقب المنافق ويجازي المستتر بفسقه أو يعفو عنه.

والحساب: مصدر، كالمحاسبة وهو العد من حسبك كذا، أي كفاك؛ لأن فيه كفاية، ومعنى : "حسابهم على الله": أنه يعلمهم ما لهم وعليهم بأن يخلق العلم الضروري في قلوبهم بمقادير أعمالهم وبما لهم من الثواب والعقاب.

عن ابن عباس ﷺ أنه قال: لا حساب على المخلوق، بل يقفون بين يدي الله يعطون كتبهم بأيمانهم فيها سيئاتهم فيقال: قد تجاوزت عنها، ثم يعطون حسناتهم، ويقال: قد ضعفتها لكم .

أو أنه يجازيهم إذ الحساب قد جاء بمعنى: المجازاة، كذا في التفسير الكبير.

ولا يخفى أن الأول مجاز، فيكون مجازًا من باب إطلاق السبب على المسبب لأن الحساب سبب لحصول علم الإنسان بما له وعليه، وأنه يجازيهم ، إذ الحساب سبب للأخذ والإعطاء.

ومعنى سرعته: أن لا يفتقر في إحداث شيء إلى فكر وروية ومدة وعدة، ولذا ورد: ((**إنه يحاسب الخلق في مقدار محلب شاه، أو في لمحة**)) .

واعلم أن هذا الحديث إشارة إلى التوحيد وهو ظهور فناء الخلق بتشعشع أنوار الحق، وله مراتب كما نبه عليه:

الأولى: التوحيد النظري: إن علم بالاستدلال، أو التقليدي: إن اعتقد بمجرد تصديق المخبر الصادق وسلم القلب من الشبهة والحيرة والريبة، وهو أن يعتقد أن الله منفرد بوصف الألوهية، متوحد باستحقاق العبودية، كما أشار إليه في الحديث ، به تحقن الدماء والأموال، ويتخلص من الشرك الجلي في الأحوال.

الثانية: التوحيد العلمي، وهو أن يصير العبد بخروجه من غشاوة صفاته، وخلاصه من سخف ظلمات ذاته وانسلاخه عن لباس الاختيار حيران في قضاء أنوار عظمة الجبار، ولهان تحت سبحات قهر تجليات سطوات الأنوار فيعرف أن الموجود الحقيقي والمؤثر المطلق هو الله الواحد القهار. وأن كل ذات فرع من نور ذاته، وكل صفة من علم وقدرة وإرادة وسمع

وبصر عكس من أنوار صفاته، وأثر من آثار أفعاله، ومنشأه نور المراقبة وهو دون المرتبة الحالية، لكن ﴿مزاجه من تسنيم * عينًا يشرب بها المقربون﴾، وعند ذلك ينقى من الظلمة الوجودية ويرتفع بعض من الشرك الخفي.

الثالثة: التوحيد الحالي، وهو أن يصير التوحيد وصفًا لازمًا لذات الموحد بتلاشي ظلمات رسوم وجود الغير إلا قليلاً في غاية إشراق نور التوحيد واستتار نور حاله في نور علم التوحيد كاستتار نور الكواكب في نور الشمس.

فلما استبان الصبح أدرج ضوئه ... بإسفاره أضواء نور الكواكب

واستغراقه في مشاهدة جمال وجود الواحد بحيث لا يظهر عند شهوده إلا ذات الواحد، ويرى التوحيد صفة الواحد لا صفته، بل يرى ذلك.

قال الجنيد: التوحيد معنى يضمحل فيه الرسوم ويندرج فيه العلوم، ويكون الله كما لم يزل ومنشأه نور المشاهدة.

وقال ابن عطاء الله: التوحيد: نسيان التوحيد في مشاهدة جمال الواحد، حتى قيامك بالواحد لا بالتوحيد.

الرابعة: التوحيد الإلهي، وهو أن الله تعالى كان في الأزل موصوفًا بالوحدانية في الذات وبالأحدية في الصفات، كان الله و لم يكن معه شيء، والآن كما كان ويدوم ذلك إلى الأبد، كل شيء هالك إلا وجهه، و لم يقل: يهلك، لأن عزة فردانيته وقهر وحدانيته لم تدع لغيره وجودًا، وفي هذا المعنى أنشد العارف الأنصاري لنفسه شعرًا:

ما وحد الواحد من واحد ... إذ كل من وحده جاحد

توحيد من ينطق عن نعته ... عارية أبطلها الواحد

توحيده إياه توحيده ... ونعت من ينعته لأحد

(رواه البخاري ومسلم).



الحديث التاسع

عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم». (رواه البخاري ومسلم)[1].



الكلام على الحديث التاسع

(**عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما نهيتكم عنه**): سواء كان نهي تحريم أو تنزيه، ليشمل الحرام والمكروه، إذ الاجتناب وثواب الانتهاء يترتب من حيث أنه منهي شرعًا عنهما، وعلى الأول أكثر.

(**فاجتنبوه**): قاله في حجة الوداع حين خطب قائلاً: «**أيها الناس إن الله فرض عليكم الحج فحجوا**» فقال الأقرع بن حابس: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثًا، فقال: «**لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم**» ، أي: كل ما نهيتكم عنه فدعوه، إذ لفظة "ما" للعموم لكنه خص هذا بما إذا لم توجد ضرورة ، فإن وجدت فتبيحه كأكل الميتة للمضطر وشرب الخمر لإساغة اللقمة ، والتلفظ بكلمة الكفر عند الإكراه.

والخطاب ليس بمختص بالمخاطبين إذ لم يقم دليل على التخصيص فيعم الكل، كقوله: «**حكمي على الواحد حكمي على الجماعة**»[2].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦/٢٦٥٨) ح(٦٨٥٨)، ومسلم (٢/٩٧٥) ح(١٣٣٧).

(٢) لا أصل له: قال الحافظ العجلوني: ليس له أصل بهذا اللفظ، كما قال العراقي في تخريج أحاديث البيضاوي، وقال في الدرر كالزركشي: لا يعرف، وسئل عنه المزي والذهبي فأنكراه، نعم يشهد له ما رواه الترمذي والنسائي من حديث أميمة بنت رقيقة، فلفظ النسائي: «ما قولي لامرأة واحدة» ، ولفظ الترمذي: «إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة» ، وهو من الأحاديث التي ألزم الدارقطني الشيخين بإخراجهما ، لثبوتها على شرطهما، وقال أبو القاسم العبادي في شرح الورقات الكبير: «حكمي على الواحد حكمي على الجماعة» : لا يعرف له أصل بهذا اللفظ، كما صرحوا به، مع أنهم أولوه بأنه محمول على أنه يعم بالقياس، ويغني عنه ما=

والنهي: طلب الكف عن الفعل استعلاء. واجتنب: مطاوع جنبته الشر، إذا أبعدته عنه، وحقيقته: جعله في جانب، فيعدى إلى مفعولين فينقص المطاوعة مفعولاً، كذا في الكشاف.

(وما أمرتكم به فافعلوا منه): أي: مما أمرتكم، أي: تمسكوا بي لأني واجب الطاعة.

وظاهر الأمر للوجوب إلا أن تقوم قرينة تدل على الندب أو الإباحة أو التهديد.

(ما استطعتم): فإن الله يريد بكم اليسر لا العسر، كما ظنه السائل، والتكليف بالمحال غير واقع وهذا من جوامع الكلم؛ لأن من عجز عن بعض الأركان والشروط أتى بالباقي أو عن غسل بعض الأعضاء أتى بالممكن، ومن وجد بعض ما يكفيه من الماء أو التراب استعمله أولاً، ومن وجب عليه إزالة منكرات أو نفقة جماعة وأمكنه البعض فعل وفروعه لا تحصى.

(فإنما أهلك): أي صار سبب هلاكهم وأوجب العقوبة في الدنيا والآخرة.

(الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم): بالرفع (**على أنبيائهم**)): لأنها قد تصير ذريعة للضلال وللتكاليف الشاقة، كما في قصة بني إسرائيل، ووسيلة للعقوبات الشديدة كما قص الله تعالى علينا من نجاة أتباع الرسل وهلاك الأمم المكذبة لها بالخسف والرجف والغرق في اليم والصيحة، وأبقى ديارهم وآثارهم عبرة لمن اعتبر، وعظة لمن استبصر، وهذا فيمن يسأل تفننًا وتكلفًا.

وأما من يسأل حاجة وتعرفًا فهو مثاب لقوله تعالى: ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾ [الأنبياء:٧]، سيما إذا كان المسئول عنه بحار الحقائق وينابيع العلوم والدقائق،

وإن كنت لابد مستشربًا فمن أعظم البحر تستشرب

وفي الحديث إشارة إلى وجوب اتباع الرسول ﷺ وتسليم ما جاء به من الأحكام من غير معارضة ولا مدافعة، إذ لم يغادر شيئًا يقرب إلى الله إلا أمر به، ولا شيئًا يبعد عنه

= رواه ابن ماجه وابن حبان والترمذي وقال: حسن صحيح من قوله ﷺ: ((إني لا أصافح النساء، وما قولي لامرأة واحدة إلا كقولي لمائة امرأة)). انظر كشف الخفاء (١/٤٣٦- ٤٣٧)ح(١١٦١)، وقال الحافظ ابن كثير: لم أر بهذا قط سندًا، وسألت عنه شيخنا الحافظ جمال الدين أبا الحجاج وشيخنا الحافظ الذهبي مرارًا فلم يعرفاه بالكلية، انظر تحفة الطالب (١/٢٨٦)ح(١٨٠).

إلا نهى عن ذلك، وهي أمور لا يرشد إليها مجرد العقل، إذ العقل لإقامة رسم العبودية، لا لإدراك رسوم الربوبية، بل تلك أسرار له يكاشف بها من حضرة القدس وحظيرة الأنس القلب الأصفى للنبي المصطفى ﷺ ؛ لأنه اتصف بصفات الحق وتخلق بأخلاقه.

"فذو العرش محمود وهذا محمد"

قال العارف السهروردي في أعلام الهدى: وما مثالك أيها المحبوس في قفص عالَم الحكمة إلا مثال الجنين في بطن الأم، لو قيل له: إن الله خلق السموات والأرض والعرش والكرسي والشمس والقمر ، ما فهم ذلك ولا اهتدى إليه، فأنت أيها المتعقل بعقلك ذلك الجنين ما انشقت عنك مشائم عالم الشهادة، ولا فقصت بيضة وجودك بعدما ولدت، فإذا مت يقال لك: ﴿**فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد**﴾ [ق:٢٢]، فتستيقظ من رقدتك بموتك فترى عالمًا ما رأيته والجنة والنار.

وأما أهل الله وخاصته، فوجدوا ذلك ذوقًا وأيقنوا بها بما أظهره الله لهم وأطلعهم عليه، وأنشد بعض المتشرعين فقال:

فسبحان من في الليل أسرى بعبده ... إلى المسجد الأقصى ليزداد سؤددا
وصلـــى إمامـــًا بالنبيين كلهـــم ... وشاهد آيات بها خلقـــــه هدى
ولو لم يكـــن لم يعبد الله واحـــد ... وكنا كأنعم على ظهرها ســـــدا

(**رواه البخاري ومسلم**).



الحديث العاشر

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ». ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا ربِّ يا ربِّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له؟!. (رواه مسلم)[1].



الكلام على الحديث العاشر

(**عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى طيب**): أي: منزه عن النقائص، مقدس عن الآفات والعيوب، متصف بجميع صفات الكمال.

والطيب: الحسن الجيد، مأخوذ من الطيب، وهو اسم لما يتطيب به، يطلق على طيب الرائحة في المنبت، والحلال والطاهر.

(**لا يقبل إلا طيبًا**): أي: لا ينبغي أن يتقرب إليه لا بما يكون طاهرًا حلالاً من خيار المال، كما قال الله تعالى: ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾ [آل عمران: ٩٢]، وهو عند العارفين: بذل المهج لأن الفراش لا ينال منابر سرير الشمع وهو شعلته، حتى أنفق ما أحبه وهو نفسه، ولا يقبل إلا عبدًا متحليًا بفضيلتي العلم والعمل، تقيًا من الشبهات، نقيًا من النجاسات، سليمًا قلبه من الآفات، كما حكي عن داود عليه السلام أنه قال: "يا رب ما الفتوة؟ قال تعالى: أن ترد نفسك إليَّ طاهرة كما قبلتها طاهرة"، فعلم أن ما ينفق في سبيل الله لابد أن يكون طيبًا من خباثة الشبهات، طيبًا إنفاقه من خباثة الأغراض الدنيوية والأخروية، طيبًا منفقها من خباثة النفاق والنظر إلى غير الله، فإذا كان طيبًا في نفسه فلله

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (٢/٧٠٣)ح(١٠١٥).

قبول طيب عن الوسائط فيأخذه بيده ويربيه قبل أن يقع في يد الفقير، وإن كان طيبًا في إنفاقه فلله قبول طيب، فإنه أبلغ عند الله من علمه، وإذا كان قلب المنفق طيبًا عن الالتفات إلى غير الله فلله قبول طيب عن الأغيار بين أصبعين من أصابع الرحمن.

(وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين): يعني: لا فرق بين الرسل والأمم في طلب الحلال واجتناب الحرام، واقتصر على الحلال اهتمامًا به.

(فقال تعالى: ﴿يا أيها الرسل﴾): هذا الخطاب والنداء ليس على ظاهره؛ لأنهم أرسلوا في أزمنة مختلفة، فالمراد: الإعلام بأن كل رسول نودي ووصي في زمانه ليعتقد السامع أن ما نودوا به جميعًا حقيق بالأخذ والعمل به، كذا في الكشاف.

لا يقال: فيه نفخة اعتزالية؛ لأنهم لما لم يثبتوا قدم الكلام حملوا على ذلك، لكن الحق أن الله متكلم في الأزل، وإن لم يكن ثمة مخاطب، فالخطاب على ظاهره؛ لأنا نقول: التعلق التنجيزي في حال العدم محال بالاتفاق.

والمراد بخطاب المعدوم -كما حققه شارح المختصر-: التعلق التعقلي، وهو أن المعدوم الذي علم الله أنه يوجد بشرائط التكليف توجه عليه حكم في الأزل بما يفهمه ويعقله فيما لا يزال.

(كلوا من الطيبات﴾): أي: من الحلالات أو المستلذات، وقدمه على قوله: **(واعملوا صالحًا)**: ليكون إشارة إلى أن العمل الصالح لابد وأن يكون مسبوقًا بأكل الحلال، وهو ما يقرب العبد إلى الله فيستقيم.

(وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾): أسند الرزق إلى نفسه تحريضًا لهم على غاية احتياطهم حتى لا يأكلوا إلا الحلال الذي يستأهل أن يضاف إليه.

ولفظة "من" للتبعيض، صيانة لهم وكف عن الإسراف، والأمر للإباحة أو للوجوب كما لو أشرف على الهلاك مجاعة، أو للندب لموافقة الضيف.

قال سهل بن عبدالله: آداب الأكل أربع:

أن يكون حلالاً، وهو ما لا يعصى الله فيه.

وصافيًا، وهو ما لا ينسى الله فيه.

وقوامًا، وهو ما يمسك النفس والعقل.

وأدبًا، وهو أن يؤدي شكر المنعم.

(**ثم ذكر الرجل**): يريد أن رسول الله ﷺ عقب كلامه بذكر الرجل الموصوف استبعادًا لأن الله لا يقبل دعاء آكل الحرام لبعد مناسبته عن جنابه الأقدس، لتكدر وقته وتسود قلبه بأكل الحرام، فلفظة "ثم" للترتيب في الوجود لا في الرتبة.

(**يطيل السفر**): منصوب بأنه صفة للرجل؛ لأنه في المعنى كالنكرة، أي: يطيل السفر في العبادات، كالحج والجهاد والتعلم.

(**أشعث أغبر**): أي: متفرق الشعر مغبر الوجه، حالان مترادفان، من فاعل يطيل، أو متداخلان.

(**يمد يديه إلى السماء**): حال من ضمير أشعث، أي: يرفعهما قائلاً:

(**يا رب يا رب**): يعني: إن هذه الحالة دالة على غاية استحقاق الداعي للإجابة ومع هذا لا يستجاب دعاؤه فما بال غيره.

وفيه إشارة إلى أن رفع اليدين مندوب في الدعاء لما فيه من إظهار شعار الذل والانكسار والإقرار بسمة العجز والافتقار، ولذا قال ﷺ: «**سلوا الله ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها، فإذا فرغتم فامسحوا بها وجوهكم**»[1]، وإلى أن السماء مخزن الأرزاق، ومعدن أسرار الخلاق، ومصعد الأعمال، ومعبد العمال، وقبلة الدعاء، ومحل الضياء والصفاء، كما أشار إليه في قوله تعالى: ﴿**وفي السماء رزقكم وما توعدون**﴾ [الذاريات: ٢٢]، وهي: اسم جنس أو جمع سماء، وإلى أن الدعاء بلفظ الرب مؤثر في الإجابة؛ لإيذانه بالاعتراف بأن وجوده فائض عن تربيته وإحسانه وجوده وامتنانه، ولذا قال جعفر الصادق المصدوق: من حزبه أمر فقال خمس مرات: ربنا ربنا، نجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد؛ لأنه حكي عنهم في آخر آل عمران أنهم قالوا خمسًا: ﴿**ربنا**﴾، ثم قال: ﴿**فاستجاب لهم**﴾.

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٧٨/٢)ح(١٤٨٥)، وقال: روي هذا الحديث من وجوه عن محمد بن كعب كلها واهية، وهذه الطريق أمثلها، وهو ضعيف أيضًا، والحاكم في المستدرك (٧١٩/١) ح(١٩٦٨)، والبيهقي في الكبرى (٢١٢/٢) ح(٢٩٦٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥٢/٦) ح(٢٩٤٠٥)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٣١٩) ح(١٠٧٧٩)، وفي مسند الشاميين (٤٣٢/٢) ح(١٦٣٩)، وأعله ابن أبي حاتم في علله (٢٠٦/٢، ٣١٥)، والدارقطني في علله (١٥٧/٧)، وانظر التلخيص الحبير (٢٥٠/١)، ونصب الراية (٥١/٣).

(**ومطعمه حرام**): حال من فاعل قائلاً وهو مصدر بمعنى المفعول.

(**ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي**): بضم العين المعجمة وكسر الذال المخففة. وفي المصابيح أنها وردت مشددة، أي: يكون تغذيته وتنميته (**بالحرام**): فهو إشارة إلى حال صغره، كما أن قوله: "مطعمه" إلى حال كبره تنبيهًا على استواء حاليه.

(**فأنى**): أي: كيف ، أو من أين؟ والاستفهام للاستبعاد.

(**يستجاب**): الدعاء (**لذلك**): الرجل، أي: لكون مطعمه ومشربه وملبسه حرامًا. واللام على الأول صلة نحو ﴿**فاستجاب لهم**﴾ ، وعلى الثاني للتعليل.

واستجاب بمعنى: أجاب. ففيه الإيذان بأن حل المطعم والمشرب مما تتوقف عليه الإجابة، ولذا قيل: إن للدعاء جناحين: أكل الحلال، وصدق المقال، لكنه في هذا الزمان لا يوجد إلا قليلاً في كثير من الأحوال، فلنكتف من غيره بما يحفظ روعًا؛ لئلا نموت جوعًا، وما أملح قول الظريف:

يقول لي الجهول بغير علم ... دع المال الحرام وكن قنوعا

فلما لم أجد مالاً حلالاً ... ولم آكل حرامًا مت جوعا

ثم اعلم أن طيب المطعم له خاصية عظيمة في تصفية القلب وتأكيد استعداده لقبول أنوار المعرفة، وذلك لأن بناء الأمر بعد حفظ السنة ومجانبة كل صاحب يفسد الوقت، وكل سبب يفتن القلب على صون اليد عن الحرام والشبهة، وأقله أن يحترز مما حرمه فتوى العلماء، وهو ورع العامة، ثم يمتنع عما يتطرق إليه احتمال التحريم وإن أفتى المفتي بحله، وهو ورع الصالحين، ثم ترك ما لا بأس به مخافة ما فيه بأس، وهو ورع المتقين، ثم الحذر على ما لا يراد بتناوله القوة على طاعة الله أو يتطرق إلى بعض أسبابه معصية أو كراهية، وهو ورع الصديقين.

(**رواه مسلم**).



الحديث الحادي عشر

عن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب سبط رسول الله ﷺ وريحانته رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ : «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». (رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح) [١].



الكلام على الحديث الحادي عشر

(**عن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب سبط رسول الله**): ولد ولده، كذا في الصحاح، وفي القاموس: السبط: ولد الولد، والقبيلة من اليهود. وفي النهاية: «حسن سبط رسول الله ﷺ»، أي طائفة وقطعة منه. وقيل: الأسباط خاصة الأولاد، وقيل: أولاد الأولاد، وقيل: أولاد البنات.

وفي الكشاف: السبط : الحافد، وأصله: انبساط في سهولة ، يقال: شعر سبط، ورجل سبط الكفين : جواد، فكانه امتداد في الفروع.

(**ﷺ وريحانته**): في النهاية: الريحان: يطلق على الرحمة والراحة، وكل نبت طيب الرائحة، والرزق، وبه سمي الولد ريحانًا.

ولد في نصف رمضان سنة ثلاث من الهجرة، ومات سنة خمسين، وقبره بالبقيع، ومروياته: ثلاثة عشر حديثًا، وعلقت فاطمة عليها السلام بالحسين بعد خمسين يومًا من ولادته، وقتل يوم عاشوراء، سنة إحدى وستين بين الكوفة والحلة بألطف، كذا في المنتظم، وقال القرطبي: ولد في شعبان في السنة الرابعة.

(**رضي الله عنه قال: حفظت من رسول الله ﷺ : «دع ما يريبك..»**): بفتح الياء وضمها، والفتح أشهر وأفصح، أي: اترك ما تشك فيه من الأقوال والأفعال أنه منهي عنه أو لا، أو سنة أو بدعة، واعدل إلى ما لا تشك فيه منهما.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٤/٦٦٨) ح(٢٥١٨)، والنسائي (٨/٣٢٧) ح(٥٧١١)، وانظر نصب الراية للزيلعي (٢/٤٧١).

والمقصود: أن يبني المكلف أمره على اليقين البحت، والتحقيق الصرف، ويكون على بصيرة في دينه.

والريب: الشك، أو الشك مع تهمة، كذا في النهاية. قال في الكشاف: الريب: مصدر رابني، إذا حصل فيك الريبة، وحقيقة الريبة: قلق النفس واضطرابها، ومنه: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**» ، فإن الشك ريبة، وإن الصدق طمأنينة، أي: فإن كون الأمر مشكوكًا فيه مما تقلق له النفس ولا تستقر، وكونه صحيحًا صادقًا مما تطمئن له وتسكن. ومنه:

ريب الزمان لنوائبه المقلقة

وبلسان العارفين معناه: أنه إذا كنت صحيح الخاطر، طاهر الباطن، مراقبًا للغيب وتعرف لمة الملك من لمة الشيطان، والإلهام من حديث النفس، وكنت مميزًا بين الحق والباطل بنور الفراسة وصفاء القلب، فدع ما يريبك من الأغلوطات والشبهات النفسانية والشيطانية إلى ما لا يريبك مما يترل بقلبك وعقلك وروحك من الإلهام الإلهي والعلم اللدني، وكما أن ترك ما يريبك مأمور به، فترك ما يريب الغير مما يصعب على أفهام العامة أولى، كما أشار إلى ذلك الإمام علي زين العابدين رضي الله عنه وكرم الله وجهه:

إني لأكتم من علمـــي جواهـــره ... كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا

يا رب جوهر علم لو أبوح بـــه ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنـــا

ولاستحل رجال مسلمون دمـــي ... يرون أقبح ما يأتونه حسنـــا

(**رواه الترمذي**): الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى، أحد الحفاظ الأعلام، لقي البخاري وخلقًا كثيرًا ، وصنف التصانيف، توفي بترمذ بالذال المعجمة ، مدينة من وراء جيحون، ليلة الثالث والعشرين من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين.

(**والنسائي**): منسوب إلى نساء خراسان، ذكره في جامع الأصول. وهو الإمام الحافظ أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب، ولد سنة خمس عشرة ومائتين، ومات بمكة سنة ثلاث وثلاثمائة. (**وقال الترمذي: حديث حسن صحيح**): الصحيح: ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله، وسلم عن شذوذ وعلة. والحسن: ما يعرف مخرجه واشتهر رجاله، أي بالصدق، قاله الخطابي.

ففي قوله إشكال؛ لأن الحسن يتقاصر عن الصحيح، فالجميع بينهما جمع بين المتنافيين.

وجوابه: أنه أراد أنه روي بإسنادين، الأول يقتضي الصحة، والآخر يقتضي الحسن. وأراد به اللغوي، وهو ما تميل إليه النفس وتستحسنه ، ذكره ابن الصلاح.

الحديث الثاني عشر

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه». (حديث حسن رواه الترمذي وغيره هكذا) (١).



الكلام على الحديث الثاني عشر

(**عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**): أي: ما لا يريده ولا يحتاج إليه ولا ضرورة له فيه ولا ينفعه ويكون عيشه بدونه ممكنًا، وذلك يشمل: الأفعال الزائدة والأقوال الفاضلة، فينبغي للمرء أن يشتغل بالأمور التي بها صلاحه في نفسه بإصلاح طرفي معاشه ومعاده بتحصيل الأمور التي لابد منها في قوام البدن، وبقاء النوع، وبالسعي في الكمالات العلمية والفضائل الخلقية التي هي وسيلة إلى نيل السعادات الأبدية والفوز بالنعم السرمدية.

قال أنس: استشهد غلام منا يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت: هنيئًا لك الجنة، فقال لها النبي ﷺ: **«وما يدريك؟! لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه»**.

وروي أنه ﷺ قال لأبي هريرة: **«يا أبا هريرة تريد أن لا يجري عليك القلم؟»** قال: نعم يا رسول الله، قال: **«أد فرائض الله وكف عن محارم الله ودع الكلام فيما لا يعنيك»** .

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٤/٥٥٨) ح(٢٣١٧)، وقال: حديث غريب لا نعرفه من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه، وابن حبان في صحيحه (١/٤٦٦)ح(٢٢٩)، وابن ماجه (٢/١٣١٥) ح(٣٩٧٦)، والإمام مالك في الموطأ (٢/٩٠٣) ح(١٦٠٤)، وابن راشد في جامعه (١١/٣٠٧)، والطبراني في الأوسط (١/١١٥)ح(٣٥٩) ، والصيداوي في معجم الشيوخ (١/٢١٧) ، والإسماعيلي في معجم الشيوخ (١/٣٨١) ح(٥٢)، والطبراني في الصغير (٢/١١٨)، وابن الجعد في مسنده (١/٤٢٨) ح(٢٩٢٥).

قال معروف: مقت الله للعبد أن يراه مشتغلاً بما لا يعنيه، فإن من اشتغل بما لا يعنيه فاته ما يعنيه.

قال الغزالي: حد ما لا يعنيك في الكلام أن تتكلم بما لو سكت عنه لم تأثم و لم تتضرر حالاً ومآلاً، فإنك به مضيع زمانك ومحاسب على عمل لسانك إذ تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولو صرفته في التفكر والدعاء ربما ينفتح لك من نفحات وجه الله تعالى ما يعظم جدواه، ولو سبحت بني لك قصر في الجنة، ومن قدر على أن يأخذ كنزًا من كنوز الجنة وأخذ بدله مدرة كان خاسرًا ، ولقد أحسن القائل:

وإذا هممت الخوض في الباطل ... فاجعل مكانه تسبيحـــــا

واغتنم ركعتين في ظلمة الليل ... إذا كنت فارغًا مستريحـــا

والمراد بـــ: "الحسن": الإتقان والكمال. قال الحكماء: حسن الخلق عبارة عن تناسب الأعضاء على ما ينبغي، وحسن الخلق عبارة عن كونه على حد الوسط من غير إفراط وتفريط وحسن المعنى عبارة عن كونه لا يستقبحه الشرع وتستطيبه العقول.

والجمال عبارة عن نهاية الحسن بما يختص بنفسه أو يصل منه إلى غيره، وعلى هذا ورد: «**إن الله جميل يحب الجمال**»(١).

وحسن الإسلام: عبارة عن كماله، وهو أن تستقيم نفسه في الإذعان لأوامر الله والاستسلام لأحكامه وفق قضائه، وهو علامة شرح الصدر بنور الرب، ونزول السكينة على القلب.

والعناية أخص من الإرادة، وهي صفة ثابتة مغايرة للعلم، والقدرة توجب تخصيص أحد المقدورين بالوقوع.

ولفظة: "من" تبعيضية أو ابتدائية.

وتقديم الخبر لكون التركيب من باب "على التمرة مثلها زبدا".

(حديث حسن رواه الترمذي وغيره).

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٩٣/١) ح(٩١).

الحديث الثالث عشر

عن أبي حمزة أنس بن مالك ﷺ عنه خادم رسول الله ﷺ عن النبي ﷺ ، قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ».

(رواه البخـــاري ومسلم) [١].



الكلام على الحديث الثالث عشر

(**عن أبي حمزة أنس بن مالك ﷺ خادم رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يؤمن أحدكم**): أي: لا يكمل إيمان أحدكم بأن يرتقي من حضيض التقليد إلى ذروة اليقين والمعرفة.

وإنما حمل على نفي الكمال إذ أصل الإيمان وهو التصديق حاصل لمن لم يكن بهذه الصفة.

(**حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**): من الطاعات والمباحات، كما جاء في رواية النسائي: «**من الخير**» [٢] .

قال في شرح مسلم: وهذا ليس من الصعب الممتنع كما ظن، إذ القيام بذلك يحصل بأن يحب مثل ذلك من جهة لا يزاحمه فيها بحيث لا تنقص النعمة على أخيه شيئًا من النعمة عليه ، ويرحم عليه في جميع الأحوال ، وذلك سهل على القلب السليم[٣].

ولقد أجاد من أفاد، حيث قال:

بادر إلى الخير يا ذا اللب مغتنمًا ... ولا تكن من قليل الخير محتشما

وارحم بقلبك خلق الله وارعهم ... فإنما يرحم الرحمن من رحـــما

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (١/١٤) ح(١٣)، ومسلم (١/٦٧)ح(٤٥).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/٥٣٤) ح(١١٧٤٨).

(٣) انظر شرح صحيح مسلم للنووي (٢/١٧).

وتحقيق ذلك: أن المؤمنين متحدون بحسب الأرواح والحقائق، متعددون من حيث الأجسام، كنور واحد في مظاهر مختلفة، ونفس واحدة في أبدان متفرقة بحيث لو تألم واحد تأثر الجميع، بل لو تمكنوا فيه صح بالنسبة إلى جميع الأشياء، كما روي عن بعضهم أنه ضرب عنده حمار، فتألم الشيخ بحيث رئيت علامة الضربة في عضوه الذي بإزاء العضو المضروب للحمار، وذلك لأن إيمانهم من أثر نور الهداية شرعًا، ومن أثر نور الله حقيقة، وهو نور التوحيد من عكس نور الفردانية من نور الذات.

فأرواحهم اتحدت بذلك النور المقتضي للألفة والرحمة، فإن هم واحد هموا وإن فرح فرحوا، وهذا مقام الجمع بالروح، وهو أنه يجتمع عند تجلي الروح الأعظم عن تفرقة الطبيعة، وتتحد الأرواح، وهناك مقام أعلى يقال له : جمع الجمع، وهو أن يجتمع عند تجلي الحق له عن تفرقة الغير روحانيًا نفسانيًا وملكيًا وملكوتيًا، فلا يرى غير الله؛ لاختفاء جميع الأشياء في نور التوحيد، كاختفاء النجوم عند إشراق الشمس.

(رواه البخاري ومسلم).



الحديث الرابع عشر

عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة». (رواه البخاري ومسلم)[(١)].



الكلام على الحديث الرابع عشر

(**عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يحل دم امرئ**): أي: إراقته، وهذا المعنى متضح عرفًا، فلا إجمال فيه ولا في كل تحريم مضاف إلى الأعيان، كما ظن.

(**مسلم**): صفة مقيدة وأراد به الآتي بالشهادتين؛ لأنه كاف في العصمة، وقد ورد ذلك في الصحاح.

(**إلا بإحدى**): خصال (**ثلاث**): القتل والزنا والارتداد، ففصل ذلك بتعداد المتصفين به المستوجبين للقتل لأجله ، فقال:

(**الثيب الزاني**): المحصن، أي: المكلف الحر الذي أصاب بعد التكلي، والحرية نكاحًا صحيحًا ثم زنى، فللإمام لا للآحاد رجمه، لكن لو قتله مسلم لا يقتص منه.

والدليل على الرجم: أن عمر ﷺ قال في خطبته: "إن الله بعث محمدًا ﷺ نبيًا وأنزل عليه كتابًا، وكان فيما أنزل : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، نكالاً من الله، إن الله عزيز حكيم، وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا"[(٢)] الحديث، وكان ذلك بمشهد من الصحابة، فلم ينكر عليه، فكان إجماعًا.

---

(١) أخرجه البخاري في الديات (٢٠٩/١٢)ح(٦٨٧٨)، وأخرجه مسلم (١٣٠٢/٢) ح(١٦٧٦).

(٢) صحيح: أخرجه ابن حبان (٢٧٣/١٠) ح(٤٤٢٨)، والحاكم في مستدركه (٤٥٠/٢)ح(٣٥٥٤) وقال: حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، والضياء في الأحاديث المختارة (٤٠١/٤) ح(٨٠٧٢)، وأبو عوانة في مسنده (١٢٢/٤)ح(٦٢٥٧)، والدارمي (٢٣٤/٢)ح(٢٣٢٣)، والبيهقي في الكبرى (٢١١/٨)، والشافعي=

والحكمة فيه أن في الزنا مفاسد من اختلاط الأنساب وتضييع الأولاد وثوب كل رجل على كل امرأة أراد بمقتضى طبعه، فيهيج الفتن والحروب بعد التشبه بالبهائم، إلى غير ذلك.

والبكر: هو المكلف غير المحصن، فإن كان حرًا فيجلد مائة ويغرب عامًا، وإن كان رقيقًا فيجلد خمسين ويغرب ستة أشهر.

والزنا: هو المجامعة في الفرج على الحرام بغير شبهة، فيدخل فيه اللواط.

(والنفس بالنفس): أي: قتل النفس قصاصًا بالنفس التي قتلها عدوانًا بشرط تكليفهما في الإسلام، وبحرية، وهو مخصوص بولي الدم، فلو قتله غيره لزمه القصاص.

قال بعض العرفاء: كما كتب القصاص في القتلى كتب على نفسه الرحمة في قتلاه الذين بدلوا الروح الإنساني عند شهود الجلال الصمداني كما قال: «**من أحبني قتلته ومن قتلته فأنا ديته: الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى**» ، أي: من كان متوجهًا إليه بالكلية كان فيضه متصلاً به بالكلية، ومن كان في رق غيره من المكونات لم يتصل به فيضه غاية الاتصال، ومن كان ناقصًا في دعوى محبته لم يكن مستحقًا لكمال محبته، ومن كان الله ديته فله حياة الدراين والبقاء برب الثقلين.

(والتارك لدينه المفارق للجماعة): صفة مؤكدة، أي: الذي فارق جماعة المسلمين وخرج عن جملتهم وانفرد عن زمرتهم بالردة التي هي قطع الإسلام قولاً أو فعلاً أو اعتقادًا أو استهزاءً، فيجب قتله إن لم يتب. وتسميته مسلمًا مجاز باعتبار ما كان عليه، لا بالبدعة أو نفي الإجماع كالروافض والخوارج، فإنه لا يقتل، وأما الصائل فهو داخل في المفارق للجماعة.

وأما تارك الصلاة فقد استدل بهذا الحديث على أنه لا يقتل، وخالفه الجمهور؛ لقوله ﷺ : «**من ترك الصلاة متعمدًا فقد كفر**» [1] ، أي: استحق عقوبة الكفر، وكذا فسره

= في مسنده (١٦٣/١)، وابن ماجه (٨٥٣/٢)ح(٢٥٥٣)، ومالك في الموطأ (٨٢٤/٢)ح(١٥٠)، وعبد الرزاق في مصنفه (٣٦٥/٢) ح (٥٩٩٠) ، والطبراني في الأوسط (ح٤٣٥٢) ، وأحمد في مسنده (١٣٢/٥) ح(٢١٢٤٥).

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (ح٣٣٤٨)، وقال الحافظ الهيثمي بعدما عزاه للأوسط : ورجاله موثقون إلا محمد ابن أبي داود، فإني لم أجد من ترجمه، وقد ذكره ابن حبان في الثقات : محمد بن أبي داود، فلا أدري هو هذا أم لا؟، انظر مجمع الزوائد (٢٩٥/١)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٨٢٩/٤) ح(١٥٤٠).

الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه، ولا يخفى أن هذا حال الأشقياء، أهل القهر الإلهي والطرد الكلي، لا يفتح لهم باب المشعر، وهو القلب، فيأتيه الإلهام، ولا باب السمع والبصر فيدخلهما الفهم والاعتبار، فارتدوا عن طريق الحق وصراط التوحيد، واحتجبوا بظلمات الكثرة عن نور التفريد، واستحقوا القتل والنار، وسبحوا في ظلمات دار البوار، فرحم الله أمرءًا اشتغل بالفضائل، وانتهى عن هذه الذنوب وسائر الرذائل، وما أنفع قول القائل:

أيا فاعل الخير عد ثم عد ... ويا فاعل الشر مه لا تعـــد

ساد عبد بغير التقـــــى ... ومن لم يسد بالتقى لم يسد

(رواه البخاري ومسلم).



الحديث الخامس عشر

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه». (رواه البخاري ومسلم) [١].



الكلام على الحديث الخامس عشر

(عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر): ليس المراد توقف الإيمان على هذه الأفعال، بل هو مبالغة في الإتيان بها، كما يقول القائل لولده: "إن كنت ابني فأطعني"، تحريضًا له على الطاعة.

أو المراد: أن من كان كامل الإيمان فليأت بها.

وتخصيص اليوم الآخر بالذكر دون شيء من كمالات الإيمان بالله؛ لأن الخير في المثوبة ورجاء الثواب والعقاب كلها راجعة إلى الإيمان باليوم الآخرة، فمن لا يعتقده فلا يرتدع عن شر ولا يقدم على خير.

وتكريره ثلاث مرات للاهتمام والاعتناء بكل خصلة مستقلة.

(فليقل خيرًا أو ليصمت): يعني إذا أراد أن يتكلم، فإن كان ما يتكلم به خيرًا يثاب عليه واجبًا كان أو مندوبًا فليتكلم به، وإن لم يظهر له خيره سواء ظهر أنه حرام أو مكروه أو مباح فليمسك عنه.

فالكلام المباح مأمور بتركه مخافة انجراره إلى الحرام، يقال: صمت : أصمت صمتًا وصموتًا، إذا سكت مع القدرة على الكلام، وإن كان مع العجز، فإن كان لفساد الآلة فهو الخرس، أو لتوقفها فهو العي، والإصمات والصمت بمعناه، قاله الجوهري.

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٥/٢٢٤٠)ح(٥٦٧٢)، ومسلم (١/٦٨)ح(٤٧).

وهو أبلغ من السكوت؛ لأنه قد يستعمل فيما لا قوة للتعلق له، فيقال: مال صامت.

واعلم أن الصمت في وقته صفة الرجال لما في الكلام من الآفات الثقال من حظ النفس وإظهار الامتياز من بين الأشكال، وبه تظهر لمعات الطوارق وتطلق شموس الحقائق كما أن النطق في موضعه من نفائس الخصال، بل الأنفس ، ولذا قال الدقاق: من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس، ولقد صدق من قال:

تكلم وسدد ما استطعت فإنه ... كلامك حي والسكوت جماده

فإن لم تجد قولاً سديدًا تقوله ... فصمتك عن غير السديد سداد

(**ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره**): بأن يعينه على ما يحتاج إليه ويدفع عنه السوء ويخصه بالنيل؛ لئلا يستحق الوعيد والويل.

قال ﷺ : «**أتدرون ما حق الجار: إن استعان بك أعنته، وإن استقرضك أقرضته، وإن افتقر جدت عليه، وإن مرض عدته، فإن مات اتبعت جنازته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابه مصيبة عزيته، ولا تستطيل عليه بالبناء لتحجز عنه الريح إلا بإذنه، وإن اشتريت فاكهة فاهد له، وإن لم تفعل فأدخلها سرًا، ولا تخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذه بغبار قدرك إلا أن تغرف له**» ، منها: «**أتدرون ما حق الجار؟ والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله**» ، رواه الغزالي في الأربعين.

(**ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**»): بطلاقة الوجه، والكلام الطيب والإطعام ثلاثة أيام في اليوم الأول بمقدوره، وميسوره، وفي الباقي بما حضره من غير تكلف؛ لئلا يثقل عليه وعلى نفسه، وبعد الثلاثة بعد من الصدقة، إن شاء فعل وإلا فلا.

قالوا: ويشعر بأن الثلاثة ليست من الصدقة، فيحتمل أنها واجبة لكنها تستخف بوجوب الزكاة، أو جعلت كالواجب للعناية بها، أو أراد بما بعدهما التبرع المباح، فتزل على ثلاثة مراتب: فضلى وفاضلة ومفضولة.

والضيف: يستوي فيه الواحد والجمع، ويجوز أن يكون مصدرًا هذا.

وبلسان العارفين: الحديث كأنه إشارة إلى رعاية حال الأقرب فالأقرب، فيبدأ بتكميل نفسه ويروضها بذكر الحق والصموت عن غيره لغلبات الصفات الروحانية واستيلاء سلطان الحقيقة حتى ينسى أولاً نفسه في ذكره، وينسى ذكره في ذكره، وينسى كل ذكر في ذكر الحق.

ثم تكميل ما هو أقرب إليه قربًا معنويًا من الجار الذي هو في مقام السلوك قريب من مقامه، والضيف الذي هو السالك في طريق الحق الداخل في الغربة عن مأوى النفس، و لم يصل إلى مقام من مقامات أهل الله فيكرمه ويزكيه ويؤنسه بذكر المولى ويحفظه من التذلل بالحرص وأدناس محبة الدنيا لتحصيل الحياة الطبيعية.

وهي: أن تصير النفس مطمئنة مستعدة لقبول فيض ﴿ارجعي﴾، ويطيب القلب عن دنس الحديث، فانيًا عن أنانيته بكشف جلاله بشهود الحق وجماله.

(رواه البخاري ومسلم).



الحديث السادس عشر

عن أبي هريرة ﷺ: أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أوصني، قال: «لا تغضب»، فردّد مراراً، قال: «لا تغضب». (رواه البخاري ومسلم)[1].

◈◈◈

الكلام على الحديث السادس عشر

(**عن أبي هريرة ﷺ: أن رجلاً**): هو ابن عمر، أو حارثة بن قدامة أو سفيان بن عبدالله. (**قال للنبي ﷺ : أوصني**): أي: أرشدني إلى ما ينفعني دينًا ودنيا، ويقربني إلى الله زلفى.

قال الأزهري: الإيصاء والوصية مشتقة من وصيته الشيء بكذا، إذا وصلته إليه.

(**قال: «لا تغضب»، فردد**): الرجل السؤال (**مرارًا، فقال: «لا تغضب». رواه البخاري**): الغضب: فوران دم القلب، أو غرض يتبعه لدفع المؤذيات قبل وقوعها، والانتقام بعد وقوعها، فإطلاقه على الله مجازى، أي: يفعل بهم ما يفعل الملك إذا غضب على من تحت يده من الانتقام وإنزال العقوبة وهو من نزغات الشيطان، يخرج به الإنسان عن اعتدال حاله ويتكلم بالباطل ويفعل المذموم وينوي الحقد والبغض وغير ذلك من القبائح، بل قد يكفر، ولهذا قال: «**لا تغضب**» ، وأصر عليه مع أن السائل يردد قوله: "أوصني"، تعريضًا بأنه لم يقنع بذلك، أو طلب وصية أبلغ وأنفع، فلم يزد على ذلك لعلمه بأنه لا وصية أجمع منه، سيما وقد كوشف ﷺ بأنه مملؤ من القوة الغضبية واختلال حاله منها وعلاجه أن يرى الكل من الله، ويذكر نفسه أن غضب الله أعظم وفضله أكثر، وكم خالف أمره و لم يغضب عليه، ويتعوذ ويتوضأ ويشغل نفسه بشيء.

وقد ورد: أن : «**من كظم غيظًا وهو يقدر على نفاده ملأ الله قلبه أمنًا وإيمانًا**» ، فالحلم وهو الطمأنينة أشرف الخصال السنية، وأحمد الفضائل النفسية. وأنشد:

وليس يتم الحلم للمرء راضيـــًا ... إذا هو عند السخط لم يتحلم
كما لا يتم الجود للمرء موسرًا ... إذا هو عند العسر لم يتجشم

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٥/٢٢٦٧)ح(٥٧٦٥).

الحديث السابع عشر

عن أبي يعلى شداد بن أوس ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة؛ وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته». (رواه مسلم) (١).



الكلام على الحديث السابع عشر

(**عن أبي يعلى شداد بن أوس ﷺ**): ابن ثابت ابن أخي حسان بن ثابت، الجامع بين العلم والحلم، مات بفلسطين سنة ثمان وخمسين، وهو ابن خمس وسبعين.

وقال المصنف في التهذيب: مات ببيت المقدس وقبره بظاهر باب الرحمة إلى الآن، ومروياته: خمسون حديثًا.

(**عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»**): قال العلماء: هذا الحديث متضمن لجميع قواعد الإسلام؛ لأن الإحسان في الفعل إيقاعه على مقتضى الشرع أو العقل، والأفعال التي تصدر عن الشخص إما أن تتعلق بمعاشه أو معاده.

والأول: إما سياسة نفسه وملكه أو أهله وإخوانه وأولاده، أو باقي الخلق من رعيته.

والثاني: إما الإيمان وهو القلب أو الإسلام وهو عمل البدن، كما في حديث جبريل، فإذا أحسن الإنسان في هذا كله وأتى به على مقتضى الشرع فقد أدى ما عليه من أنواع التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، فرضًا وندبًا وشرعًا وعرفًا.

فقوله: «**إن الله كتب**» معناه: أنه أوجب وقدر الإحسان على الإنسان في كل شيء يتعلق بمعاده، بأن يأتي بالتكاليف على الوجه المشروع، ومعاشه بإصلاح أمر نفسه وبإيصال

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (١٥٤٨/٣)ح(١٩٥٥).

النفع إلى أخوته علميًا وماليًا، ودفع الضر عنهم، إما في الدنيا بأن لا يشتغل بمقابلة الإساءة بأخرى، وإما في الآخرة بأن يبرئ ذمته من التبعات.

والإحسان يطلق على الإنعام، وعلى إتقان الفعل، والشيء قد يطلق على ما أمكن وجوده بالإمكان العام، فيكون أخص من المعلوم ؛ لأن الممتنع معلوم، وهو بهذا الاعتبار لا شيء، وقد يطلق على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، فهو بهذا الاعتبار أعم العام، وقد يطلق على الجوهر والعرض والقديم والحادث والممتنع أيضًا ؛ لأنه شيء في العقل، ويصح إطلاقه على الله بالاعتبارين، لكنه مخصوص بالممكن بدليل العقل.

(**فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة**): في كل قتل في حد أو قصاص .

(**وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة**): بكسر الذال، كالقتلة وهي الهيئة التي عليها القاتل والذابح عند القتل والذبح.

(**وليحد أحدكم**): بيان الإحسان. قال في الصحاح: إحداد الشفرة والتحديد والاستحداد بمعنى. (**شفرته**)، هي السكين العريض ، وشفرة السيف: حده.

(**وليرح ذبيحته**»): أي: ليستحد السكين ويعجل إمرارها، ويوصل إليها الراحة بأن لا يسلخ قبل البرودة، ويقطع من الحلقوم لا من القفا، كي تستريح ولا تتعذب.

هذا وفي كلام بعض العارفين: الإحسان: اسم جامع لجميع أبواب الحقائق، وهو إما إحسان في القصد، وهو إصلاحه على مقتضى العلم وإبرامه عزمًا أن يأخذ في العمل جدًا، أو تصفيته حالاً بأن لا يلاحظ نفسه أو في الأحوال بأن يراعي حفظها بالحضور ويسترها عن الناس، ويجتهد في تحقيقه أو في الوقت بأن لا يفارق المشاهدة ، ولا تلحظ همته أحدًا، ويجعل هجرته إلى الحق سرمدًا، وأنشد بعضهم:

حسن فحسبك أن تسمى محسنًا ... ما أحسن الإحسان ممن أحسنا

واغنم من الذكر الجميل أجله ... فأجل ما كسب الفتى حسن الثنا

(**رواه مسلم**).



الحديث الثامن عشر

عن أبي ذر جندب بن جنادة الغفاري وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». (رواه الترمذي وقال: حديث حسن، وفي بعض النسخ: حسن صحيح) [١].



الكلام على الحديث الثامن عشر

(عن أبي ذر جندب بن جنادة الغفاري): أول من حيى النبي ﷺ تحية الإسلام، كان رابعًا أو خامسًا في التحية الإسلام، كان رابعًا أو خامسًا في السلام، مات في خلافة عثمان سنة ثنتين وثلاثين، ومروياته: مائتان وثلاثة وسبعون حديثًا.

(وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «اتق الله): بالإتيان بجميع الواجبات، والاجتناب عن الفواحش والمنكرات، فإن التقوى أساس الدين، وبه يرتقي إلى مراتب الحق اليقين.

وهي لغة: حفظ النفس عما يؤذيها، كأنها جعلت في وقاية.

وشرعًا: صيانة النفس عن المحظور.

واختلف في الصغائر، ولتحقيق أن لها مراتب بعضها فوق بعض من ترك المحظور، ثم المكروه، ثم المباح مما لا يعني، ثم الضرورات، ثم التبرئ عما سوى الله. ولله در من قال:

من عرف الله فلـــم تغنـــه	معرفة الله فذاك الشقي
ما يصنع العبد بغير التقى	والعز كل العز للمتقي

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٤/٣٥٥)ح(١٩٨٧)، والحاكم في المستدرك (١/١٢١)ح(١٧٨) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه. والدارمي (٢/٤١٥)ح(٢٧٩١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/٢١١) ح(٢٥٣٢٤)، والبزار في مسنده (٩/٤١٦)ح(٤٠٢٢)، وأبو عبدالله في العلل (٣/٢٤٦)ح(٥٠٨٦).

(**حيثما كنت**): في الخلوة والملأ، وفي حال النعمة والبلاء، فإن الله عالم بسرك، كما أنه مطلع على ظواهرك ، فعليك برعاية دقائق والابتعاد عن مساخطه ومناهيه، عن داود الطائي أنه سمع صوتًا من قبر: "ألم أزك؟ ألم أصل؟ ألم أصم ؟ ألم أفعل كذا؟ فأجيب: بلى يا عدو الله ولكن إذا خلوت بارزته بالمعاصي و لم تراقبه".

(**وأتبع السيئة الحسنة**): بأن تباشر حسنات تضاد آثارها تلك السيئات.

والحسنة: ما ندب إليه الشارع، والسيئة: ما نهى عنه، أصلها: سويئة من سائه يسوئه سواء ومسائة، قلبت الواو ياء وأدغمت، تتناول الكبيرة وهي ما يستحق فاعلها حدًا أو وعيدًا شديدًا، والصغيرة تقابلها.

(**تمحها**): أي: يمح الله آثارها من القلب أو من ديوان الحفظة، ويثبت مكانها الطاعات إن كانت بينه وبين الله، فإن تعلقت بالعبد فيدفع الحسنة إلى خصمه عوضًا عن المظلمة، حكي عن بعضهم أنه رؤي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وأحسن إلي إلا أنه حاسبني حتى طالبني بيوم كنت صائمًا فلما كان وقت الإفطار أخذت حبة حنطة من حانوت صديق لي فكسرتها، فذكرت أنها ليست لي فألقيتها على حنطته فأخذ من حسناتي مقدار أرش كسرها.

قال القاضي في تفسيره: صغائر الذنوب مكفرة بالحسنات، وكذا ما خفي من الكبائر؛ لقوله تعالى: ﴿**نكفر عنكم سيئاتكم**﴾ ، وللحديث. وأما ما ظهر منها وتحقق عند الحاكم فلم يسقط حدها إلا بالتوبة. تم كلامه.

وإتباع الحسنة بالسيئة فإن كانت ردة فيحبطها وإلا فلا على الأظهر.

ولما وصاه بحقوق الله وإصلاح نفسه ذكر ما يتعلق بحقوق العباد، وقال:

(**وخالق الناس بخلق حسن**)): وهو بسط المحيا، وبذل الندى، وكف الأذى، وأن لا يخاصم لشدة معرفة الله، أو إرضاء الخلق في السراء والضراء.

وقال سهل : أدناه الاحتمال وترك المجازاة والمرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه.

والتحقيق: أنه قد لاح عند أرباب العرفان بطوالع الوحي ولوائح الوجدان أن الإنسان جوهر لطيف نوراني، شبهه بالجواهر القدسية الملكوتية، وله قوتان يحظى بكماليهما، ويشقى بسبب اختلالهما:

قوة عاقلة يدرك بها حقائق الموجودات بأجناسها وأنواعها، وينتقل منها إلى معرفة من استقل بإبداعها.

وعاملة تدرك النافع نافعًا فيميل إليها، والضار ضرًا فيفر عنها.

وذلك أمور معاشه تتعلق بحفظ النوع وكمال البدن، أو ملكات فاضلة، وأحوال باطنة هي الخلق الحسن وهو إما تزكية النفس عن الرذائل:

وأصولها عشرة: الطعام والكلام والغضب والحسد والبخل وحب المال والجاه والكبر والعجب والرياء وتحليتها بالفضائل.

وأمهاتها عشرة: التوبة والخوف والزهد والصبر والشكر والإخلاص والتوكل والمحبة والرضا بالقضاء، وذكر الموت.

والخلق ملكة تصدر بها الأفعال عن النفس بسهولة من غير سبق رؤية، وتنقسم إلى فضيلة هي الوسط، ورذيلة وهي الإفراط والتفريط وغيرهما، وأنشد بعض المتخلقين:

يا من يدل بحسن خلقه ... حسن الفتى في حسن خلقه

فالحسن في خلق الفتى ... فيه دلائل طيب عرقه

(رواه الترمذي وقال: حديث حسن، وفي بعض النسخ: حسن صحيح).



الحديث التاسع عشر

عن أبي العباس عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً، فقال لي: «يا غلام إني أعلّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفّت الصحف». (رواه الترمذي وقال: حسن صحيح) [١].

وفي رواية غير الترمذي: «احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً» [٢].



الكلام على الحديث التاسع عشر

(عن أبي العباس عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يومًا): يعني: أمشي خلفه، لا إنه راكب وأنا رديفه، كذا قيل.

لكن في وسيط الواحدي عن ابن عباس: أنه أهدى كسرى إلى النبي ﷺ بغلة فركبها بحبل من شعر، ثم أردفني خلفه وسار بي مليًا، ثم التفت.

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٤/٦٦٧)ح(٢٥١٦)، وعبد الواحد في الأحاديث المختارة (١٠/٢٢)ح(١٢)، والإمام أحمد في مسنده (١/٢٩٣)ح(٢٦٦٩)، وأبي يعلى في مسنده (٤/٤٣٠)ح(٢٥٥٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٣٠٧)ح(٢٨٠٤)، والطبراني في الكبير (١١/٢٢٣)ح(١١٥٦٠)، قال الحافظ الهيثمي : فيه علي بن أبي علي القرشي: ضعيف، انظر مجمع الزوائد (٧/١٨٩).

(**فقال**: «**يا غلام**»: خاطبه به؛ لأنه كان صغيرًا إذ قد توفي ﷺ وهو ابن عشر أو ثلاث عشرة سنة.

وقد يطلق الغلام على الشاب البالغ، كقولهم: "رأي الشيخ خير من مشهد الغلام". وأصله من الاغتلام، أي: شدة الشبق.

(**إني أعلمك كلمات**): أي: فصولاً مفيدة في دفع الأوزار وجلب المنافع والآلاء، إذ قد يطلق على الكلام الكثير المرتبط كما سبق.

وفائدة هذا التمهيد: أن يتنبه المخاطب ويسترعي بها سمعه ليفهم ما يلقيه إليه ويتمكن في نفسه فضل تمكن؛ لأن المحصول بعد الطلب أعز من المنساق بلا سبب.

(**احفظ الله يحفظك**): الجملة منصوبة المحل على أنه عطف بيان، أو استئناف، أي: احفظ مواسم طاعاته ولوازم عباداته يحفظك من مكاره الدنيا ومشاق الآخرة.

(**احفظ الله**): في امتثال أحكام الشريعة وحسن المعاشرة مع خليقته.

(**تجده تجاهك**): أي: تجد عنايته ورأفته قريبًا منك يراعيك في جميع الحالات وينقذك من جميع العثرات، ويسعدك بأنواع التحف والبركات. وهذه استعارة تمثيلية، شبه حاله في معاونة الله له ومراعاته أحواله وسرعة إنجاحه حاجته بحال من جلس أمامك يحفظك ويراعيك، فهو تلميح إلى قوله تعالى: ﴿**ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**﴾، وقد أشار بعض العارفين إلى أنه لا ذرة من ذرات العالم إلا ونور الأنوار محيط بها، قاهر عليها، قريب من وجودها إليها، لا بمجرد العلم فقط، ولا بمعنى الإيجاد فقط، بل بمعنى آخر: لا يجوز كشفه.

رمزت إليه حذار الرقيـــب ... وكتمان سر الحبيب حبيب

إذا ما تلاشيـــت في نوره ... يقول لي ادع فإني قـــريب

(**إذا سألت فاسأل الله**): وحده، فإن خزائن العطايا عنده، ومفاتيح المواهب والمزايا بيده، وكل نعمة أو نقمة دنيوية أو أخروية فإنها تصل إلى العبد أو تندفع عنه برحمته من غير شائبة عوض ولا ضميمة علة؛ لأنه الجواد المطلق والغني الذي لا يفتقر، فينبغي أن لا يرجى إلا رحمته، ولا يخشى إلا نقمته، ويلتجئ في عظام المهامت إليه، ويعتمد في جميع الأمور عليه، وفي الحديث: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[1]، إذ السؤال إظهار شعار الانكسار

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٥/٤٥٦)ح(٣٣٧٣)، والبخاري في الأدب المفرد (١/٢٢٩)ح(٦٥٨)، قال الحافظ الذهبي: ضعف الحافظ يحيى بن معين حديث: «من لم يدع الله يغضب عليه »، انظر الميزان (٧/٣٨٣) ح(١٠٣١٢)، والكامل في الضعفاء (٧/٢٩٤)ح(٢١٩٧).

والإقرار بسمة العجز والافتقار، والإفلاس والنزول عن ذروة القوة، وإلطافه إلى حضيض الاستكانة والفاقة.

(وإذا استعنت فاستعن بالله): إذ لا معين سواه ولا فاتح ولا مانح إلا هو، وكل طاعة يقدم العبد عليها لا تتم إلا بإعانته، يخلق الداعية فيه الخالصة عن المعارضة، وكذلك كل معين لا يعين إلا بإلقاء الله الداعية في قلبه، فلابد من قطع الواسطة، إذ لا حول عن معصية الله إلا عصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله.

وحذف المفعول فيها ليعم كل مسئول ومستعان.

(واعلم): حث على التوجه نحو الخير الذي هو المقصود.

(أن الأمة): هي عبارة عن القرن أو الجماعة، تطلق في الشرع على أمة الدعوة، وهي التي بعث إليها المبلغ فلزمها الحجة من مجيب مقر، أو عصي مصر.

وعلى أمة الإجابة وهي التي شهدت له بالبلاغ والإجابة فمنعت دمها ومالها واستوثقت ذمتها من مصدق صادق أو مداج منافق.

وعلى أمة الاتباع، وهي التي أطاعت أمره وأنست به، واقتفت أثره، وهي الناجية.

(لو اجتمعت): لفظة "لو" بمعنى "إن" إذ المعنى على الإستقبال، كما في "لو تركوا من خلفهم" ونكتة العدول هو: أن اجتماعهم على الإمداد من المستحيلات بخلاف اتفاقهم على الإيذاء، فإنه ممكن، ولذا قيل:

الظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعله لا يظلم

(على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك): أي قدره وأثبته عليك في الذكر، وفرغ منه، يعني: وحد الله في الطب والدفع في لحوق الضر والنفع، فهو الضار النافع، ليس لأحد معه في ذلك شيء.

وفي بعض الكتب الإلهية: "وعزتي وجلالي لأقطعن أمل من يؤمل غيري، وألبسنه ثوب المذلة عند الناس ولأجنبنه من قربي ولأبعدنه من وصلي ولأجعلنه متفكرًا حيران، يؤمل غيري في الشدائد، والشدائد بيدي، وأنا الحي القيوم، ويطرق بالفكر أبواب غيري، وبيدي مفاتيح الغيب، وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني".

وما أحسن ما قيل:

أفوض أمري إلى خالقي	وحسبي إلهي ونعم الوكيل
ولا أرجعن إلى غــيره	فإن الإله بكل كفيـــــل

وأورد "اللام" في جانب النفع؛ لأنه للملك وحقيقته الاختصاص النافع، وقولـــه: ﴿وإن أسأتم فلها﴾[الإسراء:٧]، مجاز، وفي صورة الضر "على" كما هو المشهور.

(**رفعت الأقلام**): أي: تركت وتمت كتابة ما كان وما يكون، كما قد ورد في جامع الترمذي: «**إن أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر، ما كان وما يكون**» [١].

فإن قلت: ما التوفيق بينه وبين ما اشتهر من قوله ﷺ: «**أول ما خلق الله جوهرة أو درة فنظر إليها فذابت**» [٢]، و «**أول ما خلق الله نوري أو روحي**» [٣]، و «**أول ما خلق الله اللوح**» [٤]، و «**أول ما خلق الله العقل**» [٥]، و «**أول ما خلق الله العرش**».

وما نقل عن السلف: "أول ما خلق الله ملك كروبي"؟

فالجواب ما أفاده بعض العارفين: من أن الأسماء مختلفة والمسمى واحد، وهو الروح المحمدي؛ لأنه باعتبار كونه درة صدف الوجود سمي جوهرة ودرة، وباعتبار نورانيته سمي: نورًا، وباعتبار وفور علمه سمي: عقلاً، إذ قال له: «أقبل إلى الدنيا رحمة للعالمين»، فأقبل، ثم قال له: «ادبر»، أي: ارجع إلى ربك، فرجع إلى المعراج، ثم قال: "وعزتي وجلالي، ما

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/٤٥٧)ح(٢١٥٥)، وقال: غريب، والطيالسي في مسنده (١/٧٩)ح(٥٧٧)، والحاكم في مستدركه (٢/٤٩٢)ح(٣٦٩٣)، وقال: حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه. وعبد الواحد في الأحاديث المختارة (٨/٢٧٤)ح (٣٣٦)، وأبو داود (٤/٢٢٥)ح (٤٧٠٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/٢٥٩) ح(٣٥٨٧٣).

(٢) لم أجده.

(٣) لم أجده.

(٤) لم أجده.

(٥) ليس له طريق ثابتة: أخرجه الديلمي (١/١٣/٤-مسند الفردوس)، وأورده الحافظ العجلوني وقال: ذكره في الإحياء، وقال العراقي في تخريج أحاديثه: أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط وأبو نعيم بإسنادين ضعيفين، انظر كشف الخفاء (١/٢٧٥)، فتح الباري (٦/٢٨٩).

خلقت خلقًا أحب إلي منك، بك أعرف وبك آخذ"[1] ، يعني: عبادة من أخذ منك الشريعة، "وبك" أي: بشفاعتك "أعطي الدرجات العالية، وبك أعاقب الكافرين وبك أثيب المؤمنين".

وباعتبار جريان الأمور وفق متابعته والاقتداء به سمي : قلمًا، وباعتبار مظهريته للعلوم: لوحًا. وباعتبار غلبات الصفات الملكية: ملكًا كروبيًا.

((**وجفت الصحف**)): أي كتابة ما زبر في اللوح وفرغ منها، يقال: جف الثوب وغيره يجف بالكسر جفافًا: إذا ابتل ثم جف، وفيه نداوة.

وهو كناية عن جريان القلم بالمقادير وإمضائها وعدم إمكان تغيرها، والفراغ من المقادير.

لا يقال: هذا ينافي قوله تعالى: ﴿**يمحو الله ما يشاء ويثبت**﴾ [الرعد: ٣٩]، لأنا نقول: المحو والإثبات مما جفت به الصحف أيضًا، كذا في تفسير القاضي؛ لأن القضاء قسمان: مبرم، ومعلق.

وقيل: عند الله كتابان:

١- اللوح المحفوظ، وهو لا يتغير.

٢ - والذي يكتبه الملك على الخلق، وهو محل المحو والإثبات.

فالحديث أصل في رعاية حقوق الله وقوة اليقين به وتفويض الأمور إليه، والرضا بقدره، وما أملح قول الناصح:

إلهي فوضت أمري إليـــك	كما أن رضيت بما لي لديك
فوفق إليّ الخير يا ســـيدي	فذاك يقينًا يســـــير عليـــك

(**رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وفي رواية غير الترمذي: ((احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء)**): أي تحبب إليه بحفظ أحكامه، ذكره المصنف؛ لأن المعرفة سبب للمحبة، وقيل: اجعله يعرفك بطاعته والعمل فيما أولاك من نعمته.

---

(١) تقدم في السابق، وانظر فتح الباري (٢٨٩/٦)، فيض القدير (٥١٠/٤)، كشف الخفاء (٢٧٥/١، ٣٠٩).

(يعرفك): يجازيك ويمدك **(في الشدة، واعلم أن ما أخطأك)**: أي جاوز عنك من النعمة والرخاء أو الشدة والبلاء، والخطأ: العدول عن الجهة.

(لم يكن ليصيبك): أي: محال أن يصيبك، وفيه مبالغة من وجوه من حيث دخول اللام المؤكدة للنفي على الخبر، وتسليط النفي على الكينونة وسرايته في الخبر.

(وما أصابك لم يكن ليخطئك): فيه الحث على التوكل والرضا ونفي الحول والقوة عنه، إذ ما من حادثة من سعادة وشقاوة وعسر ويسر وخير وشر ونفع وضر وأجل ورزق إلا ويتعلق بقدر الله وقضائه قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، جرى قلم القضاء بما يكون. فسيان التحرك والسكون، فيجب الشكر في حال السراء والصبر في حال الضراء.

روي: «**إن أول شيء خلقه الله القلم من نور واحد بيمينه وكلتا يديه يمين، والقلم مسيرة خمسمائة عام، واللوح مثله من درة بيضاء، فقال للقلم: اجر، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة برها وفاجرها، ورطبها ويابسها**[1]. **واللوح المحفوظ موضوع في جبهة إسرافيل، أو في يمين العرش، ينظر الله إليه في كل يوم وليلة ثلاثمائة وستين لحظة، يحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء**»[2].

(واعلم أن النصر): على الأعداء **(مع الصبر)**: على نكايتهم وسائر المكاره.

(وأن الفرج مع الكرب): الفرج: الخروج من الغم، والكرب: الغم الذي يأخذ بالنفس، كذا في الصحاح[3].

وفيه إشارة إلى أن الله إذا أراد أن يفتح لعبده بابًا من فضله ابتلاه بشيء من بلائه، ثم يخصه بنعمة من نعمائه، وما رأيت شيئًا من الامتحان إلا ورأيت معه أو بعده من بوادر لطائف بره وسعًا لطريق محبتهم وزيادة لمودتهم. والحكمة في ذلك أن يعرف قدر النعمة،

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث عبد الله بن عمر (١/١١-١٢)ح(٢/الفردوس). وذكره القرطبي من حديث الضحاك عن ابن عباس، انظر تفسير القرطبي (١٩/٢٩٨).

(٢) منكر: قال ابن أبي حاتم بعدما أورده: قال أبي "هذا حديث منكر، وقرة مجهول ضعيف الحديث" انظر علل ابن أبي حاتم (٢/٦٧) برقم (١٦٨٩). قال القرطبي: قال أنس بن مالك ومجاهد: إن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله تعالى في جبهة إسرافيل. وقال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش، انظر تفسير القرطبي (١٩/٢٩٨).

(٣) وذكره ابن منظور في لسان العرب (١/٧١١)، مادة/ كرب.

وشرف الكرامة، فبمرارة الفراق يعرف حلاوة الوصال، وبحرارة الهجران يدرك راحة العرفان، وبالنقطة السوداء في وجه الحسناء يعلم قدر الحسن والبهاء، فعلى المؤمن إذا لحقه شدة أن يعلم أنه سيظفر بزوالها؛ لأنه إما أن يتخلص عنه، وإما أن يموت وحينئذ يصل إلى ما لا يهمل أمره، ولا يضيع حقه، ولذلك قال:

(**وإن مع العسر يسرًا**»): وقد وقعت الآية في القرآن مكررة، ليعلم أنه لا يوجد عسر إلا ومعه يسران، قال في الكشاف ما حاصله: إن يسرًا وقع منكرًا للتعظيم فيغاير الأول؛ لأن النكرة المعادة غير الأولى، والعسر ورد معرفًا فيكون للعهد أو للجنس، فهو واحد على التقديرين؛ لأن المعرفة المعادة عين الأولى، وهذا ليس على إطلاقه؛ لأنه صرح في قوله: ﴿**قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء**﴾ أن الأولى للاستغراق، والثانية: للماهية التي تحصل بوجود فرد منها، وقد نظم الشاعر هذا المعنى بقوله.

إذا اشتدت بك البلوى ففكر في "ألم نشرح"

فعسر بين يسرين إذا فكرته تفرح

فإن قلت: النصر والفرح واليسر بعد الصبر والكرب والعسر؛ لأنهما يتواردان على المحل بالتناوب فما معنى الاصطحاب المستفاد من "مع"؟

فالجواب: أن المقصود المبالغة في متعاقبة أحدهما الآخر واتصاله به، حتى جعله كالمقارن له، وزيادة في التسلية والتنفيس وجعلها بمعنى "بعد" من ضيق العطن.

واليسر: السهولة، ومنه اليسار للغني؛ لأنه يتسهل به الأمور، واليد اليسرى لبقائها على اليسرة أو لأن الأمور تتسهل بمعاونتها لليمنى.

والعسر: نقيضه، وفي الصحاح كل ثلاثي أوله مضموم وأوسطه سَاكن فمن العرب من يثقله، ومنهم من يخففه [١].



(١) قال الشيخ الفيومي: قال عيسى بن عمر: كل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم وأوسطه ساكن فمن العرب من يخففه، ومنهم من يثقله، مثل: عُسْر وعُسُر، ورُحْمن ورُحُم، وحُلْم، وحُلُم، انظر مختار الصحاح (١/١٨١).

الحديث العشرون

عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت». (رواه البخاري)[(١)].



الكلام على الحديث العشرين

لم يتعرض المصنف للفظ الحديث من هنا إلى آخره.

(**عن أبي سعيد عقبة بن عامر الأنصاري البدري**): شهد العقبة الثانية مع السبعين ولم يشهد بدرًا عند الجمهور، وإنما نسب إلى ماء بدر لأنه نزل فيه، وقيل: شهدها، نقله في جامع الأصول عن البخاري وغيره، سكن الكوفة ومات في خلافة علي، وهي من يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين إلى غداة الجمعة لسبع بقين من رمضان سنة أربعين، ومروياته: مائة حديث وحديثان .

(ﷺ **قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس**): أي: مما وصل إليهم وظفروا به أو لحقوه، ولفظة "من" ابتدائية، خبر "إن" واسمها، قوله: «**إذا لم تستح**» على تقدير القول الراجع إلى "ما" محذوف، وفاعل أدرك "الناس"، أو ضمير يعود إلى "ما" و"الناس" مفعول.

(**من كلام النبوة الأولى**): أضافه إليهم إعلامًا بأن الحياء من قضايا النبوة ونتائج الوحي، ولم يزل مندوبًا إليه في جميع الشرائع، فما من نبي إلا وقد بعث عليه وندب الأمة إليه.

(**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**): صيغة الأمر إما للإباحة، أي: إذا أردت أن تفعل شيئًا فإن كان بحيث لا تستحيي من الله ومن الناس في فعله فافعله وإلا فلا، ذكره المصنف، فإن معناه: إذا أنت لم تستح من صنع أمر فذلك دليل على جواز ارتكابه وصنعه.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥/٢٢٦٨)ح(٥٧٦٩).

ثم قال: وعلى هذا مدار الإسلام وتوجيهه: أن أفعال العباد: إما أن يستحى منها أو لا.

فالأول : يشمل الحرام والمكروه وتركهما هو المشروع .

والثاني: يشمل الواجب والمندوب والمباح .

وفعلهما مشروع في الأولين جائز في الثالث، فعلى هذا يتضمن الحديث الأحكام الخمسة.

أو للتهديد، كما في قوله تعالى: ﴿**اعملوا ما شئتم**﴾ [فصلت: ٤٠]، أي: إذا نزع منك الحياء فافعل ما شئت، فإن الله يجازيك عليه، ويكون هذا تعظيمًا لأمر الحياء وتبيينًا لموضعه عند فقده.

واختلف في حده ، قال الحكماء: هو تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يلام به مأخوذ من الحياة، يقال: حي الرجل، أي صار معروف الحياة، فكان المستحيي بسبب الحياء معروف الحياة، فإطلاقه على الله مجاز مرسل، والعلاقة: اللزوم، أو استعارة تمثيلية شبه ترك تجنب العبد بترك من يترك رد المحتاج إليه حياء منه.

وقال الجنيد: الحياء رؤية الآلاء ورؤية التقصير، فتولد من بينهما حالة تسمى: الحياء.

وقال ذو النون: الحياء وجود الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك.

وقال الدقاق: هو ترك الدعوى بين يدي المولى.

وأنشد بعض أهل التقوى:

إذا لم تخش عاقبة الليـــالي ... ولم تستحي فاصنع ما تشاء

فلا والله ما في العيش خير ... وفي الدنيا إذا ذهب الحيـــاء

والتحقيق: أن الحياء ينشأ من علم القلب بأن الله رقيب عليه، فيحفظ ظاهره وباطنه من مخالفة أحكامه، ويستقبح ما صدر من هفواته ويتحمل أنواع البلاء في نظره نشيطًا ولا يشتكي إلى غيره، فإذا ترقى عن ذلك وتحقق أن الله أقرب الأشياء إليه بلا ريب استحيا من قربه فوق ما يستحيي من رؤيته، فيدعوه ذلك إلى محبته والخلوة معه مستوحشًا من الأغيار مستلذًا بروح أنس الملك الغفار، حتى يطلع عليه طوالع أنوار التوحيد، ويلمع في سره بوارق أسرار التفريد، فيستحيي من شهوده مشهده فانيًا عن الخلق، باقيًا مع الحق.

قال العارف السهروردي: الحياء: إطراق الروح إجلالاً لعظيم الجلال، ومن هذا القبيل حياء إسرافيل، كما ورد: «**إنه يستر بجناحه حياء من الله ﷻ**»[(١)]، وحياء عثمان، كما قال: «**إني لأغتسل في البيت المظلم فأنطوي حياء من الله ﷻ**»[(٢)]. والصنع أخص من العمل.

قال في الكشاف: كل عامل لا يسمى صانعًا ولا كل عمل يسمى صنعة حتى يتمكن فيه ويتدرب، ولذا قيل: إن الصناعة صنعة نفسانية راسخة يقتدر بها على استعمال موضوعات ما نحو غرض من الأغراض، على وجه البصيرة بحسب الإمكان:

فإن الفعل : ما ظهر من الشيء حيوانًا وغيره بقصد وعلم وإجادة وغيرها.

والعمل: ما صدر من الحيوان قصدًا وعلمًا .

والصنع: ما كان من الإنسان بإجادة.

(رواه البخاري).



---

(١) لم أجده.

(٢) لم أجده.

الحديث الحادي والعشرون

عن أبي عمرو –وقيل: أبي عمرة– سفيان بن عبد الله ﷺ قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: «قل: آمنت بالله ثم استقم». (رواه مسلم)[1].



الكلام على الحديث الحادي والعشرين

(**عن أبي عمرو –وقيل: أبي عمرة– سفيان بن عبدالله ﷺ**): كان ثقفيًا عاملاً لعمر على الطائف، ومروياته خمسة أحاديث.

(**قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام**): أي فيما يكمل به الإسلام، يراعى به حقوقه، ويستدل به على توابعه.

(**قولاً لا أسأل عنه أحدًا غيرك**): أي: قولاً كافيًا لا أحتاج فيه إلى سؤال غيرك.

وفي رواية "بعدك" أي: بعد سؤالك هذا.

(**قال: «قل: آمنت بالله ثم استقم»**): هذا من جوامع الكلم الشامل لأصول الإسلام التي هي التوحيد والطاعة.

فالتوحيد حاصل بقوله: "**آمنت بالله**"، والطاعة بأنواعها مندرجة تحت قوله: "**ثم استقم**"؛ لأن الاستقامة امتثال كل مأمور واجتناب كل منهي محذور، فيدخل فيه أعمال القلوب والأبدان من الإيمان والإسلام والإحسان، إذ لا تحصل الاستقامة مع شيء من الاعوجاج.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١/٦٥)ح(٣٨).

أو تقول: "**آمنت بالله**" شامل للإتيان بكل مأمور، والانتهاء عن جميع المعاصي.

وقوله: «**ثم استقم**» محمول على الثبات فيها، ولصعوبة أمر الاستقامة قال عليه الصلاة والسلام: «**شيبتني هود**» (١) ؛ لأنه نزل فيها ﴿**فاستقم كما أمرت**﴾ [هود:١١٢]، وهي جامعة لجميع أنواع التكاليف.

وقالت الصوفية: لأن الدعوة إلى الله تعالى مع كون المدعو على الصراط المستقيم أمر صعب لا يمكن إلا إذا كان الداعي على بصيرة، يرى أنه يدعوه من اسم إلى اسم.

ولفظة "ثم" مستعارة للتراخي الرتبي؛ لأن الاستقامة أفضل من قوله: "آمنت بالله" لشمولها العقائد والأعمال والأخلاق، ذكره الزمخشري، والإمام.

وهي لغة: ضد الاعوجاج، أي: الاستواء على جهة الانتصاب.

وتنقسم إلى : استقامة العمل، وهو الاقتصاد فيه غير متعد عن نهج السنة، ولا متجاوز عن حد الإخلاص إلى الرياء ورجاء العوض، وطلب الغرض.

واستقامة القلب، وهي الثبات على الصواب.

وعند المحققين: هي استواء القصد في السير إلى الله، وثبات جميع القوى على حدودها بالأمر والنهي .

وهو دون الاستقامة في السير في الله؛ لأن هذه في الطريق والسلوك إليه بأحدية الطريق المستقيم.

وأما السير في الله: فهو الاتصاف بصفاته.

والاستقامة في الله دون الاستقامة في السير بالله المأمور بها نبينا ﷺ في قوله: ﴿**فاستقم كما أمرت**﴾ ؛ لأن تلك في مقام جمع الجمع، والبقاء بعد الفناء.

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٧٤)ح(٣٣١٤)، وقال: صحيح على شرط البخاري والترمذي (٥/ ٤٠٢)ح(٣٢٩٧)، وقال: حديث حسن غريب، وسعيد بن منصور في سننه (٥/٣٧٠)ح(١١٠٩) ح(١٥)، وعبدالرزاق في مصنفه مرسلاً (٣/٣٦٨)ح(٥٩٩٧)، والبزار (١/١٦٩)ح(٩٢)، وأبو يعلى (١/١٠٢)ح(١٠٧).

والأولى للمريدين. والثانية للمتوسطين.

واستقامة الروح: وهي الثبات على الحق.

واستقامة السر: وهي الثبات على الحقيقة.

قال القشيري: الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيمًا ضاع سعيه وخاب جده، وأنشد:

إذا أفشيت سرك ضيق صدر ... أصابتك الندامة والملامة

وإن أخلصت يومًا في فعال ... تنال جزاءه بالاستقامة

وقال العارف أبو أروز: بهان العاشق معنى الحديث أنه إذا وقفت بالتوحيد ورؤية جلال قدمه دار مع الحق حيث دار، إما قضاء وإما رضاء، ولا تنزل عن مقام الرضا إلى فترة النفس والهوى.

(رواه مسلم).



الحديث الثاني والعشرون

عن أبي عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أرأيت إذا صلّيت المكتوبات، وصمت رمضان وأحللت الحلال وحرّمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً، أدخل الجنة ؟ قال: «نعم». (رواه مسلم) [1].



الكلام على الحديث الثاني والعشرين

(عن أبي عبد الله جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنهما): كان هو وأبوه من المشاهير المكثرين، شهد العقبة الثانية وبدرًا واستغفر له الرسول ﷺ في ليلة: سبعًا وعشرين مرة، وقتل أبوه يوم بدر، فأحياه الله وكلمه كفاحًا، مات سنة أربع وسبعين وله أربعة وتسعون سنة، ومروياته: ألف وخمسمائة وتسعون.

(أن رجلاً): هو النعمان بن قوقل الخزرجي.

(سأل رسول الله ﷺ فقال: أرأيت): أي: أخبرني؛ لأن مشاهدة الأشياء لما كانت طريقًا إلى الإحاطة بها علمًا وصحة للخبر عنها استعملوا "أرأيت" بمعناه؛ لأن الرؤية سبب للعلم، والعلم سبب لصحة الخبر عنه، فأطلق السبب وأريد المسبب البعيد، فهي من رؤية الباصرة.

أو لأن العلم بها وسيلة إلى صحة الخبر، فأطلق السبب وأريد المسبب القريب، فحينئذ تكون من رؤية البصيرة فتأمل فإن الوجهين ذكرهما في الكشاف : أحدهما في سورة البقرة، والآخر في سورة العلق، وتوجيهه : ما ذكرناه.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١/٤٤)ح(١٥).

والاستفهام فيه بمعنى الأمر؛ لأنه للتقرير المستلزم لطلب الخبر ، وقد ورد في التتريل: ﴿أرأيتك﴾، والكاف فيه لتأكيد الخبر.

(**إذا صليت المكتوبات**): اللام للجنس، تدخل على الجمع وعلى المفرد، والفرق بينهما أن الأولى تصلح أن يراد بها كل أفراده، وأن يراد بها البعض لا إلى الواحد، بل إلى أقل الجمع.

والثانية: تصلح أن يراد بها الكل والبعض حتى الواحد.

(**وصمت رمضان وأحللت الحلال وحرمت الحرام ولم أزد على ذلك**): المذكور (**شيئًا**): من العبادات لم يذكر الزكاة والحج؛ لأنه لم يجب عليه لعدم استطاعته، وهو من اختصار الرواة .

أو قوله: «**حرمت الحرام**» يتناوله؛ لأن ترك الفريضة من جملة المحرمات.

(**أدخل الجنة**): همزة الاستفهام فيه مقدرة.

(**قال : «نعم»**): الجنة لغة : البستان من النخل والشجر المتكاثف بالتفاف أغصانها، فعلة ، من جنه: إذا ستره، كأنها سترة واحدة لالتفاف الأشجار والتركيب دائر على معنى الستر نحو : "جن الرجل، وجن الليل" والجنة ثلاث.

وشرعًا: اسم لدار الثواب كله ، وهي مشتملة على جنان كثيرة مرتبة على مراتب بحسب الاستحقاق، وهي جارية على نهج الأسماء الغالبة اللاحقة بالأعلام، كالرسول.

فإن قلت: ظاهر الحديث يقتضي أن الأعمال الصالحة أسباب دخول الجنة؛ لأن تعليق الحكم بالوصف يشعر بالعلية، وقد ثبت في الصحاح أنه قال ﷺ : «**لن ينجي أحدًا منكم عمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته**» [(١)] ، فما التوفيق بينهما؟

فجوابه: أن دخول الجنة ليس إلا بمحض رحمة الله، وأما اختلاف مراتبها وتفاوت درجاتها فبحسب العمل، لكن لابد للعبد أن يستعد لفضله، وذلك بالعمل كما قال: ﴿إن

---

(١) صحيح: أخرجه ابن حبان (٢/٦٠)ح(٣٤٨) . والطبراني في الأوسط (ح/٦٥٥٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٤١٥)ح(٩٨٣٠)، والطبراني في مسند الشاميين (١/٣٩٦)ح(٦٨٦)، والطيالسي في مسنده (١/٣٠٥) ح(٢٣٢٢).

رحمة الله قريب من المحسنين﴾ [الأعراف: ٥٦]، وما أحسن قول علي كرم الله وجهه: "من ظن أنه بدون الجهد يصل فهو متمن، ومن ظن أنه ببذل الجهد يصل فهو متعن".

وعن الحسن: «يقول الله يوم القيامة: جوزوا بعفوي وادخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم».

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: "ما أقل حياء من يطمع في جنتي غير عمل، كيف أجود برحمتي على من يبخل بطاعتي"، نقله في الكشاف.

ولله در من قال:

من أراد الجنان مـــأواه	أو يكون اللقاء مبغاه
فليكن عاملاً بلا كسل	للإله القديم مـــولاه

(رواه مسلم. ومعنى: حرمت الحرام: اجتنبته، ومعنى: أحللت الحلال: فعلته معتقدًا حله): لو قال : اعتقدت حله لكان أولى، والله أعلم.

وإنما أوله لامتناع إجرائه على الحقيقة، فيكون مجازًا من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم.



الحديث الثالث والعشرون

عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك. كل الناس يغدو؛ فبائع نفسه، فمعتقها، أو موبقها».

(رواه مسلم) [١].



الكلام على الحديث الثالث والعشرين

(**عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري**): وفي جامع الأصول: كعب بن عاصم، وقيل: أبي ابن عاصم أو أبي مالك، كذا ذكره البخاري على الشك.

قال ابن المدني: أبو مالك هو الصواب، مات في خلافة عمر رضي الله تعالى عنه بطعن هو ومعاذ وأبو عبيدة وشرحبيل رضي الله عنهم في يوم واحد في ثالث أو رابع ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين.

(**رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «الطهور**): قال في شرح مسلم: أجمع أهل اللغة على أن الطهور والوضوء يضمان إذا أريد بهما المصدر، أي: الطهارة عن الحدث والخبث. ويفتحان إذا أريد بهما الاسم، أي: ما يتطهر به.

وفي النهاية عن سيبويه: إن الطهور بالفتح يقع على الماء والمصدر معًا[٢]. وقال القاضي: قد جاء "فعول" بمعنى المصدر كالقبول، وهو قليل، والفاعل كالصبور والمفعول، كالحلوب وما يفعل به كالسحور، والإسمية كالذنوب وهو ههنا بمعنى المصدر، أي: الطهارة عن الحدث الأكبر والأصغر في البدن والملبوس ومكان الصلاة.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في الطهارة (١/٢٠٣)ح(٢٢٣).

(٢) انظر شرح صحيح مسلم للنووي (٣/٩٩).

(شطر الإيمان): أي الصلاة، كقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: صلاتكم، أطلق الإيمان عليها لأنها أعظم آثاره وأشرف نتائجه، وإنما جعل شطرها لأن صحة الصلاة بالأركان وهي أحد الشطرين وبالشرائط، وهي الشطر الآخر. ولما كان أظهرها وأكثرها أفعالاً هي الطهارة، جعلت كالشروط كلها أو شطرًا على الاتساع.

وقيل: المراد : التصديق، ومعناه: أن ثوابه ينتهي إلى نصف الإيمان.

وقالت الصوفية: الطهور تزكية النفس وتخليتها عن الرذائل والأخلاق الزائغة وهي نصف الإيمان إذ النصف الآخر التحلية بالفضائل والاعتقادات الحقة والتخلية مقدمة على التحلية.

قال نجم المشايخ : الروح القدسية دست في التراب والماء خلق مزيلاً له، فإذا استعمل في الطهارتين غسل التراب عن وجه الروح ويخففه عن الأثقال الترابية، وإذا داوم على الطهارة أو شك أن يتلألأ فيه الأنوار الربانية من طريق العكس، ثم ينعكس منه إلى مرآة الخيال، فيرى ذلك بعين قلبه.

قال الغزالي: للطهارة مراتب من تطهير الظاهر عن الحدث والخبث، ثم تطهير الجوارح عن الجرائم، ثم تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة، ثم تطهير السر عما سوى الله.

(والحمد لله): أي: التلفظ به.

(تملأ الميزان): أي: بعظم خيرها ووفور ثوابها لو قدرت أجسامًا لملأت كفة الميزان.

فإن قلت: كيف توزن الأعمال، وهي أعراض مستحيلة البقاء، وكذا الأعراض لا توصف بالثقل والخفة؟

فالجواب: أن نصوص الشرع تظاهرت على وزن الأعمال وثقل الموازين وخفتها.

وثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما : "إن للميزان لسانًا وكفتين، إحداهما بالمشرق، والأخرى بالمغرب، تكتب حسناته في صحيفة، وتوضع في كفة وتكتب في صحيفة سيئاته، وتوضع في الأخرى" (١) ، فوجب القبول وترك الاعتراض بسبب قصور

---

(١) لم أجده، وقال القرطبي: وخرج اللالكائي قال: صاحب الميزان يوم القيامة جبريل عليه السلام، وقيل: للميزان كفتان وخيوط ولسان. انظر تفسير القرطبي (٢٩٣/١١).

الفهم وركاكة العقل، فإن من أطلعه الله على الأسرار وكشف له عجائب الأقدار يرى أن المقيد بعقله ليس له مقدار على أنه ورد وزن الصحائف أيضًا.

قال الغزالي: النفس بذاتها مهيأة لأن ينكشف لها حقائق الأمور، لكن تعلقها بالجسد مانع من ذلك، فإذا انكشف الغطاء بالموت فعرف أن أعماله مؤثرة في تقريبه من الله وإبعاده، علم مقادير تلك الآثار، وإن بعضها أشد تأثيرًا من البعض، والله قادر على أن يجري سببًا يعرف الخلق في لحظة مقادير الأعمال بتشكيل حقيقي، وتمثيل خيالي، فحد الميزان: ما يتميز به الزيادة عن النقصان.

ومثاله في عالم الحس يختلف كالميزان للأثقال، والاصطرلاب لحركات الأفلاك، والمسطرة لمقادير الشعر، فلتقريبه إلى أفهام البليد والجليد مثل بما أريد.

(**وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ**): الترديد من بعض الرواة.

وفائدة التنبيه : على غاية الاحتياط والتحفظ في النقل، والأول بالتاء المثناة من فوق، وفاعله ضمير المؤنثتين الغائبتين.

والثاني بالتاء الفوقية أيضًا، وفاعله ضمير الجملة، وقيل بالتذكير أيضًا على إرادة النوعين من الكلام، ومعناه: لو قدر ثواهما جسمًا لملأ.

(**ما بين السماء والأرض**): والمقصود: التنبيه على كثرة الثواب.

والحكمة فيه : أن "سبحان الله" يدل على أنه مقدس ذاته وصفاته وأفعاله عما لا يليق بعلو جلاله أزلاً وأبدًا .

"**والحمد لله**" معناه: أن محامد الأولين والآخرين من أهل السموات والأرضين أبد الآبدين حق رب العالمين، فهذه طاعة غير متناهية فيستحق العبد ثوابًا بلا نهاية، وأجرًا وافرًا بلا غاية.

وقوله: "تملأ" من قولهم: ملأ الإناء يملأ، بفتح اللام فهو مملوء لا من مليء بالكسر، أي: امتلأ فهو ملآن، إذ هو لازم، ذكره الزمخشري في المقدمة.

وجاء ملأ الوعاء بالفتح فهو ملآن، قاله المطرزي.

(**والصلاة نور**): أي: أنها تمنع عن المعاصي وتنهى عن الفحشاء، وتهدي إلى الصواب، كما أن النور يستضاء ويهتدى به.

ففيه تشبيه بليغ وإنها سبب لإشراق نور المعارف واسترواح القلب ومكاشفات الحقائق لفراغ القلب فيها وإقباله على الله أو هو منور وجه المصلي في الدارين. والنور ضوء النار وكل نير. كذا في الكشاف.

أو الظاهر بنفسه: المظهر لغيره، قاله الغزالي.

وهو إما معقول بعين البصيرة من الأمور الإلهية أو محسوس بالبصر من الأمور الحسية، فعلى هذا ﴿الله نور السموات والأرض﴾ [النور:٣٥]، من باب حمل المواطأة لا حمل الاشتقاق.

(والصدقة برهان): على صحة إيمان المتصدق وحجة عند الحساب، فإن العبد إذا سئل عن مصرف ماله كانت صدقاته براهين في جوابه، فيقول: قد تصدقت به، وبرهان على صدق دعواه، في محبة الله، إذ المحبوبات كلها تبذل لأجل المحبوب الأكبر من أن ينال الحواس ويدرك خلاله بالعقل والقياس، ولذا أنفق بعض العرفاء كالصديق ﷺ جميع ماله، وبعضهم أمسك قدر ما يدفع به الحاجات، وبعضهم اقتصر على الجواب والأفضل فيها الإسرار والحذر من المن بأن يرى نفسه محسنًا يتوقع الشكر والإخراج من الأطيب والإعطاء بوجه طليق أو يستعين بها على تقوى الله.

(والصبر ضياء): أي: الصبر المحبوب في الشرع وهو: الصبر على طاعة الله وعن المعصية وعن أنواع المكاره محمود لا يزال صاحبه مستضيئًا مستمرًا على الصواب.

والصبر لغة : الحبس، وصف به الله العذاب.

واصطلاحًا: قوة مقاومة الآلام والأهوال.

قال الغزالي: لما كان الإنسان مركوزًا فيه العقل الداعي إلى المصالح والشهوة الباعثة إلى المفاسد لم يوجد الصبر في غيره من الملائكة، لفقدان الشهوة الصارفة عن الخدمة، والبهائم لعدم العقل، والصبي ما دام صبيًا ليس له إلا شهوة الغذاء، ثم اللعب، ثم المنكح، فإذا بلغ ظهر باعث الدين والعقل يرشده إلى الإعراض عن الباطل الفاني، والإقبال إلى الحق الباقي، فصد العقل عن خلاف الشرع هو الصبر.

وهو إما بدني فعلاً، كتعاطي الأعمال الشاقة.

أو انفعالاً، كالثبات على الآلام.

أو نفساني، وهو منع النفس عن مقتضيات الطبع.

فإن كان عن شهوة البطن والفرج فهو العفة، وإن كان عن المكاره ففي المصائب بأن يحمل النفس على ترك إظهار الجزع، خص اسم الصبر، وهو عند الصدمة الأولى، وإلا فيسمى: سلوًا، وفي النوائب يسمى: سعة الصدر، وإن كان في حال مبارزة الأقران فهو : الشجاعة، وإن كان في كظم الغيظ سمي: حلمًا، وإن كان في حال الغناء سمي: ضبط النفس، وإن كان عن فضول العيش سمي: زهدًا، وإن كان على قدر يسير من المال سمي: قناعة. وعلى هذا تم كلامه.

فعلم منه: أن الصبر يبنى عليه أركان الإيمان والإسلام، وأحكمت عليه قواعد الأحكام، فيكون أتم من الصلاة وأرفع حالاً منها، فلهذا شبهه بالضياء الذي هو أقوى من النور، وهو ما انتشر من الأجسام النيرة أو فرط الإنارة، قال الله تعالى: ﴿**هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورًا**﴾ [يونس: ٥]، وقد يتعاوران، وأنشد:

أرى الصبر محمودًا وعنه مذاهب ... فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب
هو المهرب المنجي لمن أحدقت به ... مكاره دهر ليس عنهن مهرب

وفي كلام العارفين: إشارة إلى أن للصبر أقسامًا من:

الصبر لله عن معاصيه، وفي طاعته لأجل ثوابه، وهو للعامة.

والصبر بالله، أي: بقوة الله وتأييده، وهو صبر المريد الذي انسلخ عن حوله وقوته عالمًا بأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، نص عليه في المنازل.

وذكر القاشاني أنه فوق جميع الأقسام؛ لحصوله بالبقاء بعد الفناء.

والصبر على الله، أي على حكمه وهو صبر السالك الذي برئ عن التصرف والاختيار، ويرى أن المتصرف فيه وفي الكل والمصرف للأمر هو الحق، فيصبر على أحكامه مع مكابدة الآلام.

والصبر في الله، والصبر مع الله، وهو لأهل الحضور والمشاهدة.

والصبر عن الله، وهو لأهل المحبة، إذا أراد المحب فراق المحب، وهو أشدها مرارة، ولذا لما سمعه الشبلي شهق شهقة فخر مغشيًا عليه، وأنشد يقول:

إن صوت المحب من ألم الشوق ... وخوف الفراق يورث ضرا
صابر الصبر فاستغاث به الصبر ... مر فصاح المحب للصبر صبرا

وتحقيق المقام يطلب من العوارف.

(**والقرآن حجة لك**): أي: إن تلوته وعملت بمقتضاه يشهد لك ويصير حجتك في دفع الزبانية وينجيك من سائر العقبات في القيامة.

قال السهروردي: المقصد الأقصى من المجاهدة المعاينة والمشاهدة، فإذا أكثر العبد من التلاوة وذكر الكلمة واجتهد في مواطأة القلب مع اللسان حتى تصير متأصلة في القلب، مزيلة لحديث النفس يتنور القلب إلى القالب، فيتزين بمحاسن الأعمال، ويصير الذكر ذكر الذات، وهذا هو المشاهدة.

(**أو عليك**): أي: إن تركت العمل بمقتضاه، يشهد عليك فيما بك، ويلقيك في المهالك. ففيه إشارة إلى أن القرآن سبب الوصول إلى أعالي الدرجات أو أسافل الدركات.

قال الخطابي: جاء في الأثر: "إن عدد آي القرآن على قدر درج الجنة، فمن استوفى جميعها استولى على أعالي درج الجنة".

قال المحققون: استيفاء جميع آي القرآن هو أن يتخلق بأخلاقه وصفاته، بل بأخلاق الله، فإن لقلقة اللسان لا تنفع.

(**كل الناس يغدو**): جملة مستأنفة كأنه قيل: قد تبين من هذا الرشد من الغي، فما حال الناس بعد ذلك، فقال: كل ناس يصبح ويسعى مبكرًا، والغدو: سير أول النهار، ضد الرواح، مأخوذ من الغدوة، وهو ما بين الصبح وطلوع الشمس.

(**فبائع نفسه**): خبر مبتدأ، والفاء تفصيلية، والبيع بمعنى الشراء؛ لأن المشتري يعتق وهو مجاز، أي: يصرف نفسه في الأغراض التي يتوخاها من الخير والشر.

(**فمعتقها**): خبر بعد خبر، أو بدل من قوله: "فبائع نفسه"، والفاء سببية.

(**أو موبقها**»): عطف عليه، أي من يسعى في فكاك رقبته باتباع أوامر الشرع واجتناب نواهيه فيعتقها من العذاب ويخلصها من العقاب، ومنهم من يسعى في هلاك نفسه فيتبع النفس والشيطان والهوى فيهلكها فيكون للأول خير الدارين والأمان، وللثاني الهلاك والخسران.

فالواجب على العبد مخالفة النفس الداعية إلى المهالك المعينة للأعداء المغموسة في البلاء، المستهمة بأصناف الأسواء المتبعة للأهواء، الغالبة على العلم والعقل فلا يسلم منها إلا الأنبياء والصديقون، فلا شيء أخبث منها، قال الله تعالى: ﴿**لا تتخذوا إلهين اثنين**﴾ [النحل: ٥١]، أراد بالآخر بلسان الإشارة: الهوى؛ لقوله ﷺ : «**ما عبد إله أبغض على الله من الهوى**» .

قال سهل: للنفس سر، وما ظهر ذلك السر إلا على فرعون، ولها أربع حجب سماوية، وسبع حجب أرضية، فكلما دفن العبد نفسه أرضًا أرضًا سما قلبه سماءً سماء، فإذا دفنت النفس تحت الثرى وصل القلب إلى العرش.

وقال الواسطي: النفس صنم والنظر إليها عبادة.

وقال أبو يزيد: من أمات نفسه يلف في كفن الرحمة، ويدفن في أرض الكرامة، ومن أمات قلبه يلف في كفن اللعنة ويدفن في أرض العقوبة والحرمان، وقد أنشد بعض أهل الإتقان:

يا من يروم مـــن الإلـــه نجاتـــه ... إن النجاة لفي مخالفة الهـــوى

حفظ الحواس من الذنوب فريضة ... فدع الفضائل واشتغل بالانتها

(رواه مسلم).



الحديث الرابع والعشرون

عن أبي ذر الغفاري ﷺ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: «يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّماً؛ فلا تظالموا.

يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته؛ فاستهدوني أهدكم. يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته؛ فاستطعموني أطعمكم.

يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته؛ فاستكسوني أكسكم.

يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً؛ فاستغفروني أغفر لكم.

يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرّي فتضرّوني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً.

يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً.

يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني؛ فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.

يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها؛ فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه». (رواه مسلم) [١].



الكلام على الحديث الرابع والعشرين

(عن أبي ذر الغفاري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله ﷻ):
هذا حديث قدسي. والفرق بينه وبين القرآن: أنه اللفظ المنزل للإعجاز. والقدسي: أخبر

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤/١٩٩٤)ح(٢٥٧٧).

الله نبيه معناه بالإلهام، أو المنام، فأخبر النبي عليه السلام أمته بعبارته عن ذلك المعنى، فلا يكون معجزًا ولا متواترًا كالقرآن.

قال الطيبي: فضل القرآن على الحديث القدسي: أنه نص إلهي في الدرجة الثانية، وإن كان من غير واسطة الملك غالبًا؛ لأن المنظور فيه المعنى دون اللفظ.

وفي التنزيل: اللفظ والمعنى منظوران، فعلم منها مرتبة بقية الأحاديث.

(**أنه قال:** «**يا عبادي**)**:** الخطاب مع الثقلين لاختصاصهم بالتكليف وتعاقب التقوى والفجور.

قال القاضي: ويجوز أن يكون شاملاً للملك، وفيه تأمل لأنهم ليسوا من أهل الطعام والكسوة، ولا من أهل الضلال وتقديرها فيهم بعيد.

(**إني حرمت الظلم على نفسي**): أي: تقدس نفسي عنه، فهو مستحيل في حقه؛ لأنه مجاوزة الحد والتصرف في ملك الغير، وكلاهما محال، وكيف يجاوز حدًا وليس فوقه شيء، وكيف يتصرف في ملك الغير والعالم كله ملكه.

قال المصنف: ولو فسر الظلم بوضع الشيء في غير موضعه لكان أولى كما اشتهر عن علي كرم الله وجهه.

والتحريم لغة: المنع، شبه تنزيهه عن الظلم باحتراز المكلف عما نهى الله واستعار له التحريم، ثم اشتق منه الفعل، فيكون استعارة تبعية والنفس ذات الشيء وحقيقته.

ثم قيل : للقلب نفس لأن النفس به، وللروح نفس وللدم نفس؛ لأن قوامها به وللماء نفس لفرط حاجتها إليه فلا يطلق على الله إلا على سبيل المشاكلة.

فإن قلت: قد نفى الله الظلم عن نفسه بقوله: ﴿**وما ربك بظلام للعبيد**﴾ [فصلت: ٤٦]، على سبيل المبالغة وذلك يوهم ثبوت أصل الظلم؟

فالجواب أن يقال: صفات الله بلغت غاية الكمال ونهاية الجلال فلو اتصف بالظلم لكان عظيمًا، فنفاه عن حد عظمه لو كان ثابتًا.

أو أراد نفي نفس الظلم، لكن القليل منه بالنسبة إلى رحمته الذاتية كثير، فلذا عبر بلفظ المبالغة.

(**وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**): أي: فلا تتظالموا أي لا يظلم بعضكم بعضًا.

إذ الظالم لم يحط عن رتبة النبوة ﴿**لا ينال عهدي الظالمين**﴾ . وعن درجة الولاية ﴿**ألا لعنة الله على الظالمين**﴾ [البقرة: ١٢٤]، وعن مرتبة السلطنة: " بيت الظالم خراب ولو بعد حين". وعن نظر الخلائق: "جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها"، وعن حظ نفسه وتبقي خسارته في الدنيا والعقبى: ﴿**وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين**﴾ [الزخرف: ٧٦]، وفي الترمذي مرفوعًا: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء ويقول الرب: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين**» (١) .

حكي: أن الأمير نوحًا لما وضع الخراج على أهل سمرقند بعث بريدًا إلى أميرها فأحضر الأئمة والمشايخ وأعيان البلد وقرأ عليهم الكتاب، فقال الفقيه أبو منصور الماتريدي للبريد: قد أديت رسالة الأمير فاردد إليه الجواب وقل له : زدنا ظلمًا حتى نزيد في دعاء الليل، ثم تفرقوا فلم يذهب إلا أيام حتى وجدوه قتيلاً وفي بطنه زج رمح مكتوب:

بغى وللبغي سـهام تنتظـر	أتته من أيدي المنايا والقـدر
سهام أيدي القانتات في السحر	يرمين عن قوس لها الليل وتر

(**يا عبادي**): كرر النداء زيادة لتشريفهم وتعظيمهم، ولذا أضافهم إلى نفسه وتنبيهًا على فخامة ما بعده، وجمعه لإفادة الاستغراق.

(**كلكم ضال**): أي: من شأنكم وجبلتكم الضلالة، كما ورد: «**إن الله خلق الخلق في ظلمة الطبيعة، فألقى عليهم من نوره**» أي: في ظلمة الطبيعة من الميل إلى الشهوات والركون إلى المحسوسات والغفلة عن أسرار عالم الغيب، فألقى عليهم من نوره، أي: ما نصب لهم من الحجج النيرة، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل، وهي العدول عن الطريق المستقيم عمدًا أو سهوًا يسيرًا أو كثيرًا، إذ هي صعب جدًا، ولذا ورد:

---

(١) إسناده حسن: فيه أبو جعفر المؤذن الأنصاري : مقبول ، وليس هو محمد بن علي بن الحسين ، انظر التقريب (٦٢٨/١) (٨٠١٧). والحديث أخرجه : الترمذي (٦٧٢/٤)ح(٢٥٢٦)، وابن خزيمة في صحيحه (١٩٩/٣) ح(١٩٠١)، وابن حبان في صحيحه (٢١٥/٨)ح(٣٤٢٨)، والبيهقي في الكبرى (٣٤٥/٣)ح(٦١٨٦)، وابن ماجه (٥٥٧/١) ح (١٧٥٢) ، والطبراني في الأوسط (ح/٧١١١) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٠٤/٢) ح(٨٠٣٠).

«استقيموا ولن تحصوا»[١] ، وله عرض عريض فأدناه أصغر الصغائر لقوله: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ [الضحى:٧]، أي: غير مهتدي لما سبق إليك من النبوة والأحكام وأعلاه أكبر الكبائر.

(**إلا من هديته**): بتنوير قلبه وشرح صدره، وتصفيته واستعداده عما ينافي قبول الحق من ظلمات الشرك والشكوك والشبه والهوى، فينبت فيه شجر التصديق بما جاءه من أصول الدين، ثم إنه ينمو بأغصان الطاعات في كل حين ثم ينمو بثمار المشاهدة واليقين، وللهداية مراتب كما سلف بعضها فوق بعض.

(**فاستهدوني أهدكم**): فيه دليل على أن المهتدي من هداه الله وبإرادته اهتدى وأن غيره لم يرد هدايته، فلم يهتد ولو أرادها اهتدى خلافًا للمعتزلة، فإنهم قالوا: إنه تعالى أراد هداية الجميع جل أن يريد ما لا يقع أو يقع مما لا يريد.

فإن قلت: الخطاب إذا كان مع الكفار فلا إشكال وأما إذا كان مع المهتدين المؤمنين فالمؤمن مهتد فطلبه الهداية طلب لتحصيل الحاصل؟

فجوابه: أن المراد طلب المزيد كما في قوله: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ [محمد:١٧] ، أو الثبات والدوام عليها كما في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمِنوا﴾ [النساء: ١٣٦]، كذا في الكشاف، لا يقال : الملازمة ممنوعة لأن المؤمن وإن اهتدى بمعرفة الله لكن مطالبته الحقيقية والسعادات اليقينية لا تحصل إلا بهداية الله، فلا بد من طلبها. لأنا نقول: تلك المطالب زائدة على أصل الهداية، فيئول حاصله إلى طلب الزيادة، والثبات وهي هداية أيضًا فلا يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز، هذا تحقيق كلام الكشاف.

ولك أن تقول: الهداية لا تحصل إلا بأن يعلم الله العبد مصالحه في دينه ودنياه، ويرشده إلى طريق القصد في أخلاقه، لعدم شعوره بها، ثم يوفقه لفعلها بأن يخلق فيه الإرادة والقدرة عليها، إذا يشاء لعجزه عن ذلك، ويثبته عليها، وهذه أمور ضرورية لا تحصل لكل سائل فلا يكون طلبها تحصيلاً للحاصل.

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك (١/٢٢٠)ح(٤٤٧)، والدارمي (١/١٧٤)، ح(٦٥٥)، والبيهقي في الكبرى (١/٨٢)ح(٣٨٩)، وابن ماجه (١/١٠١)ح (٢٧٧)، والإمام مالك في الموطأ (١/٣٤)ح(٦٦). والبزار في مسنده (٦/٣٥٨)ح(٢٣٦٧) ، والطبراني في الأوسط (ح(٧٠١٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٥/ ٢٧٦)ح(٢٢٤٣٢).

وتحقيقه: أن الإنسان مركب من روح روحاني يقتضي العروج إلى عالم القدس، وهي مستعدة لفيضان نور الله ومهيأة للتحلي فيه، ومن نفس مائلة إلى الخلود في الأرض والانهماك في الشهوات، فمن ساعده التوفيق هداه إلى سواء الطريق، وأذاقه حلاوة المجاهدة حتى يصل إلى عالم التحقيق، وذلك بإرشاده إلى تحصيل الملكات الكاملة والأخلاق الفاضلة التي هي الصراط المستقيم إذ في كل خلق من الأخلاق طرفان مذمومان: الإفراط والتفريط، ووسط هو المحمود، ففي القوة الشهوية: الإفراط جور، والتفريط خمود، والوسط: عفة، ويحصل منها الحياء والرفق والصبر والقناعة والورع والسخاء.

وفي القوة الغضبية الطرفان المذمومان: التهور والجبن، والمحمود: الشجاعة، ويلزم منها كبر النفس والحلم والسكون والتواضع والحمية والرقة.

وفي القوة النفسانية الطرفان المذمومان : الجربزة والبله، والوسط المحمود: الحكمة، ويتبعها الذكاء وسرعة الفهم، وحسن التعقل والتحفظ، ويحصل من كمال التوسط في القوى الثلاث: العدالة، ويترتب عليها: الصدق والشفقة والتسليم والتوكل وتعظيم المعبود وملائكته ورسله وكتبه وما يجب في الشرع قوله، فالمطلوب هدايته كمال التوسط في الأخلاق ليهتدي إلى سعادة الدارين ورفعة المترلتين.

ولما فرغ من الامتنان بأمور الدين ، شرع في الامتنان بأمور الدنيا فقال:

(يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته): بالوسائط والروابط من الصناعات التي يدور عليها المناجح، وبها تنتظم المصالح بمقتضى القسمة الأزلية، كما قال تعالى: **﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾** [الزخرف: ٣٢].

نقل الشيخ اليافعي عن بعضهم: أنهم لما أظهر الله الخلق في القدم عرض عليهم الصنائع وخيرهم فيها فاختار كل منهم صنعة، فلما أبداهم إلى الوجود أجرى على كل ما اختاره لنفسه، وأنه انفردت طائفة، فلم تختر شيئًا وقالوا: ما أعجبنا شيء نختاره، فأظهر لهم مقامات العبادة، فقالوا: اخترنا خدمتك، فقال: وعزتي وجلالي لأسخرنهم لكم، ولأجعلنهم لكم خدامًا ولأشفعنكم فيمن عرفكم وخدمكم" على إنه قد يرزق بلا تعب معلوم، كما روي عن موسى عليه السلام عند نزول الوحي عليه تعلق قلبه بأهله، فأمره الله أن يضرب بعصاه صخرة، فضربها، فانشقت وخرجت منها صخرة ثانية، ثم ضربها، فانشقت ، فخرجت صخرة ثالثة، ثم ضربها فخرجت دودة كالذرة، وفي فمها شيء يجري مجرى الغذاء، فسمع الدودة تقول: "سبحان من يراني ويسمع كلامي ويعلم مكاني ويذكرني ولا ينساني".

(فاستطعموني أطعمكم): بتفتيح أبواب المرام، وتسهيل أبواب الانتظام، فلا يجوز إبطال حكمة الله برفع وسائط الأرزاق والاتكال بسعة نعمة الرب الرزاق.

روي: أن بعض العارفين بلغ من زهده أن فارق الناس وخرج من الأمصار وقال: لا أسأل أحدًا حتى يأتيني رزقي، فأقام في سفح جبل أسبوعًا لم يأته شيء حتى كاد يتلف، فقال: يا رب، إن أحببتني فأتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فاقبضني إليك، فألهمه الله: وعزتي وجلالي لا أرزقك حتى تدخل الأمصار وتقيم بين الناس. فدخل المدينة فبسط في رزقه، فأوجس في نفسه ذلك فسمع: "أردت أن تبطل حكمتي بزهدك في الدنيا، أما علمت أنه إن أرزق العباد بأيدي العباد أحب إليّ من أن أرزقهم بيد القدرة".

فإن قلت: إطعامه عام للجميع بمقتضى لطفه وبره بعباده، فما وجه الاستثناء؟

فالجواب: إن المراد بالإطعام بسط الرزق والاختصاص بالبر ودفع الآفات والبليات، فكأنه قال: كلكم محتاجون إلى إنعامنا لكن الإنعام أصناف، وله أصناف ، والقسمة بين العباد تتفاوت على حسب تفاوت قضايا الحكمة والتدبير، فقد تقتضي الحكمة البالغة بسط الرزق لأحد وقبضه لغيره، فالعموم لجنس الإطعام، والرزق والخصوص لنوعه.

(يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم): ولما كان الاحتياج إلى الطعام واللباس أشد، إذ لا مندوحة عنهما ولا بقاء للحيوان بدونهما تعرض لهما، بل هما أصل في أمور الدين ومكمل لمنافعه.

(يا عبادي إنكم تخطئون): بضم التاء وكسر الطاء، وروي بفتحهما، والمشهور الأول، قاله في شرح مسلم. قال في النهاية: خطئ في دينه خطأ أثم فيه، وأخطأ: سلك سبيل الخطأ عمدًا وسهوًا.

وقال أبو عبيدة: خطئ وأخطأ وَاحد.

وقال الأرموي: المخطئ من أراد الصواب فصار إلى غيره، ومنه قولهم: المجتهد يخطئ ويصيب، والخاطئ من تعمد ما لا ينبغي، ومنه رجح الرواة الثانية؛ لأنه جعل ذنبًا مغفورًا، والخطأ من غير تعمد معفو عنه، سئل أو لا.

(بالليل والنهار): أي: في جميع الأوقات، وقدم الليل إذ الظلمة هي الأصل، والنور طارئ عليها يسترها، ولأن الشهور غررها الليالي ، أو لأنه وقعت العبادة والخلوة فيه أكثر وألذ، فقدم لشرفه.

(وأنا أغفر الذنوب جميعًا): قدم المسند إليه لإفادة التقوى وأورد المضارع المفيد للاستمرار التجددي، وعرف الذنوب بلام الاستغراق، وأكدها بقوله: "جميعًا" ليعلم أن ما سوى الشرك مغفور تاب عنها أو لا خلافًا للمعتزلة.

(فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري): منصوب بنزع الخافض، أي: إلى ضري.

(فتضروني): منصوب جوابًا للنفي.

(ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني): أي: لا يتعلق بي ضر ولا نفع فتضروني وتنفعوني، فالطاعة والمعصية لا تضره ولا تنفعه؛ لأنه غني عن العالمين، وأنتم الفقراء إلى الله، إن أحسنتم يحصل نفعها لكم وإن أسأتم فعليكم إثم سيئاتكم.

فالنفي غير متوجه إلى القيد، بل إلى مجموع الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿**بغير عمد ترونها**﴾ [الرعد:٢]، على وجه ذكره العلامة أيضًا، نحو: "ألا يرى الضب بها ينجحر".

(يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم): سمي إنسًا لظهورهم أو لأنهم يؤنسون أي يبصرون كما سمي جنًا لاجتنانهم.

(كانوا على أتقى): أي: تقوى، أتقى **(قلب رجل)**: أو على تقوى أحوال قلب رجل **(واحد منكم)**: وإنما قدر هكذا ليصح الحمل.

أراد بأتقى رجل : محمدًا ﷺ ، أراد بأفجر رجل: الشيطان، وهو من الجن عند أكثر المتكلمين.

(ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على): فجور **(أفجر قلب رجل واحد)**: أي: على أفجر أحواله، يعني: اتفقوا على القلب الفجور، لم يقل لفظة "منكم" هنا لئلا يخاطبهم بالأفجرية تفضلاً وإحسانًا.

(ما نقص ذلك في ملكي شيئًا): لأن واجب الوجود لذاته واجب في جميع صفاته، لابد أن يكون غنيًا عن جميع الحاجات، منصفًا بكل الكمالات، وقوله : "شيئًا" مفعول مطلق، إن قلنا: إن "نقص" لازم، أو مفعول به، إن قلنا: إنه متعد.

(يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني): الصعيد: وجه الأرض وظاهرها.

وقيد السؤال بالاجتماع في صعيد واحد لأن تزاحم الأسئلة وترادف الناس في السؤال مع كثرتهم وكثرة مطالبهم مما يضجر المسئول منه ويدهشه، وذلك يوجب حرمانهم وتخييهم، أو تعسر إنجاح مطالبهم وإسعاف مآرهم.

(**فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي**): من خزائن الرحمة والفضل التي في أمري وحكمي وتدبيري.

(**إلا كما ينقص المخيط**): بكسر الميم وفتح الياء: الإبرة (**إذا أدخل البحر**): أي: لا ينقص شيئًا لأن ما عند الله لا يدخله نقص، بل يدخل المحدود الفاني، وإنما ضرب المثل بالمخيط والبحر لأنه وإن كان يرجع بشيء قليل محسوس لكنه لقلته بالنسبة إلى أعظم المرئيات عيانًا لا يرى ولا يعد شيئًا، فكأنه لم ينقص منه شيء، وهذا من باب تشبيه المعقول بالمحسوس للتفهيم، لأنه في التحقيق لا تنتقص خزائن الله بشيء، وينتقص ماء البحر، فأين هذا من ذاك.

فإن قلت: مقتضى هذا الكلام الرباني أنه ينجح سؤال كل سائل، ويعطي مطالب كل طالب، وكم داع يدعو ولا يجاب، وكم من مؤمل يؤمل شيئًا فيخيب؛ فما وجهه؟

فالجواب: ما ذكره ابن عطاء من أن للدعاء أركانًا وأجنحة ومراقبة وأسبابًا وأوقاتًا، فإن وافق أركانه قوي، وإن وافق أجنحته طار إلى السماء، وإن وافق مراقبته فاز، وإن وافق أسبابه أنجح، وإن وافق وفاته استقر:

فأركانه: حضور القلب والاستكانة والخشوع وتعلق القلب بالله وقطعه من الأسباب.

وأجنحته: الصدق.

ومراقبته: الاستخارة.

وأسبابه: الحمد لله والصلاة على رسول الله ﷺ.

وأوقاته: بعد الصلوات ومظان الإجابة للدعوات، ولابد من شرط هو الأصل وحده تناول حل، وقلما يتيسر، وللخلق فيما يطلبون مذاهب ومقاصد، وقد يحصل الشيء الذي يتعسر، فالعوام يطلبون الدنيا وزهراتها، والخواص متوجهون إلى العقبى ولذاتها، والعارفون: يقصدون الحضرة الأحدية ومناجاتها.

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه   من فيض جودك ما علمتني الطلبا

وذلك بعد أن فاح عليهم نفحات الجذبات، وزكاهم الحق من كدورات الصفات، وحلاهم بأجمل الحلي وأحياهم بعد فنائهم بعين البقاء وسقاهم من شراب الوداد وأسكرهم بحقيقة المراد، وكشف لهم الأستار وأطلع عليهم شموس الأسرار، ورقاهم حالاً بعد حال من بسط وقبض وجذب وحجب وجمع وفرق وكشف وستر وصحو ومحو وتمكين وتلوين، كما قيل:

كأن شيئًا لم يزل إذا أتى   كأن شيئًا لم يكن إذا مضى

فلا يشاهدون في الملك والملكوت الأبدي ذي العزة والجبروت.

قال الشاذلي: إنا لا نرى مع الحق من الخلق أحدًا، إن كان ولابد فكالهباء، إن فتشته لم تجد شيئًا، وما اشتهر من أنه قيل: "ما رأينا شيئًا إلا ورأينا الله بعده، وما رأينا شيئًا إلا ورأينا الله فيه، وما رأينا شيئًا إلا ورأينا الله قبله، وما رأينا شيئًا سوى الله" فإشارة إلى ترقيهم في معارج المشاهدة ومناهج الطلب والمجاهدة.

(**يا عبادي إنما هي**): الضمير راجع إلى ما يفهم من قوله: "أتقى قلب رجل، وأفجر قلب رجل" وهي الأعمال الصالحة والطالحة.

(**أعمالكم أحصيها عليكم**): أي: بعلمي وملائكتي الحفظة أحفظها عليكم، قاله الطيبـــي.

وقال المظهر: "هي" ضمير مبهم يفسره قوله: "أعمالكم" يعني راجع إلى متعقل ذهني أشير إليه ثم أخبر عنه بما بعده، كما ذكره صاحب الكشاف في: ﴿**هذا فراق بيني وبينك**﴾ [الكهف:٧٣]، أنه قد تصور فراقًا بينهما عند حلول ميعاده، فأشار إليه. لا يقال: "هي" ضمير قصة إذ في الجملة مؤنث غير فضلة، لأنا نقول: ليس المعنى أعمالكم أحصيها لأنه لا يصلح تفسيرًا والجمل بعدها بيان، أي إنما أحصي أعمالكم.

(**ثم أوفيكم إياها**): أي: أؤدي جزائها إليكم تامًا وافيًا، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

(**فمن وجد خيرًا**): يثاب عليه (**فليحمد الله**): على توفيقه للطاعات والأعمال الصالحة.

(**ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**): لبقائها على الظلمة الأصلية واكتساب المعاصي والمظالم، وهي السبب فيها.

قال القاضي : أفعال العباد وإن كانت غير موجبة للثواب والعقاب بذواتها إلا أن الله تعالى أجرى عادته بربطهما بها ربط المسببات بالأسباب، وأنشد بعض أرباب الألباب:

أخاف وأرجو فضله وعقابه ... وأعلم حقًا أنه حكم عدل

فإن يك عفوًا فهو منه تفضل ... وإن يك تعذيبًا فإني له أهل

والتحقيق: أن السبب الفاعلي للخير والشر ليس إلا الله وحده بمقتضى فضله وعدله، وأما السب القابلي فهو وإن كان أيضًا منه في الحقيقة إلا أن قابلية الخير من الاستعداد الأصلي الذي هو من الفيض الأقدس الذي لا مدخل لاختيار فيه، وقابلية الشر من الاستعداد الحادث بسبب ظهور النفس بالصفات والأفعال الحاجبة للقلب، المكدرة لجوهر الروح، حتى احتاج إلى الصقل بالرزايا والبلايا، ولذا قال: ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير**﴾ [الشورى: ٣٠].

(رواه مسلم).



الحديث الخامس والعشرون

عن أبي ذر ﷺ أيضاً: أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون، إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة»، قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر». (رواه مسلم) [(١)].



الكلام على الحديث الخامس والعشرين

(**عن أبي ذر** ﷺ **أيضًا أن ناسًا من فقراء المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للنبي ﷺ : ذهب أهل الدثور**): جمع: دثر ، كفلوس وفلس ، والباء في قوله: (**بالأجور**): للتعدية، وفيه معنى المصاحبة، أي ذهب أهل الأموال بالدرجات العلى واستصحبوها معهم في الدنيا والعقبى و لم يتركوا لنا شيئًا، فما حالنا؟

(**يصلون كما نصلي**): لفظة "ما" كافة، تصحح دخول الجار على الفعل وتفيد تشبيه مضمون الجملة بالجملة، كقولك "يكتب زيد كما يكتب عمرو" أو مصدرية، كما في قوله تعالى: ﴿فما ربحت﴾، أي: صلاتهم مثل صلاتنا.

(**ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم**): أي: بزوائدها ويترجحون علينا في الثواب، وليس لنا مال.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٩٨/١)ح(٧٢٠).

(**قال**: «**أوليس**): الهمزة للإنكار التكذيبي، والواو للعطف على مقدر، أي: يكون كذلك، وليس (**قد جعل الله لكم ما تصدقون**): بتشديد الصاد والدال جميعًا، أي: تتصدقون (**به، إن لكم بكل تسبيحة صدقة**): قال القاضي عياض: تسميتها صدقة، تشبيهًا لها بالمال في إثبات الأجر أو على سبيل المشاكلة، وقيل: معناه: إنها صدقة على نفسه.

(**وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة**): هي قول: "لا إله إلا الله.

(**وأمر بمعروف صدقة ونهي عن منكر صدقة**): أسقط المضاف ههنا اعتمادًا على السابق، ويدل عليه رواية الجر، أو ليعلم أن قليلاً من هذا النوع يقوم مقام الأمور السابقة، فكيف الكثير.

قال المصنف: فيه إشارة إلى ثبوت حكم الصدقة في كل فرد من أفراد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا نكره.

وإلى أن الثواب فيهما أكثر من غيره لأنهما فرض كفاية، وقد يتعين ، ومعلوم أن جزاء الفرض يزيد على النفل.

وفي كلام إمام الحرمين: إن المزيد بسبعين درجة؛ لحديث ورد فيه، والمعروف هو الصنائع الجميلة، والخصال الجليلة، لأنها عرفت في الشرع ، ولذا عرف باللام، والمنكر مما ينكره الشرع ولا يرتضيه العقل، ولذا نكره للتحقير.

(**وفي بضع أحدكم صدقة**»): البضع: الفرج يطلق غالبًا عليه وعلى الذكر أيضًا، وقيل: الجماع، وكلاهما يصح هنا ، أي: في جماع أحدكم صدقة إذا نوى إعفاف النفس وطلب ولد صالح وقضاء لحقِّ الزوجة.

ولما كان الجماع من المباحات سألوا عن كيفية كونه صدقة.

(**قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال**: «**أرأيتم**): أخبروني (**لو وضعها في حرام أكان**): أقحم همزة الاستفهام التي للتقرير بين "لو" وجوابها تأكيدًا للاستخبار (**عليه فيها وزر؟**): هو العقوبة الثقيلة التي تنقض ظهر صاحبها.

(**فكذا إن وضعها في الحلال كان له أجر**»): بالرفع والنصب، كذا في شرح مسلم، أي كان ذلك الوضع له أجر.

والحديث دليل لمن جوز القياس وهم أكثر الأصوليين ، والمذكور قياس العكس، واختلف فيه أيضًا.

(رواه مسلم): وفي رواية له أخرى: "فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا له : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ : «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**» .

فإن قلت: مقتضى الحديث أن الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر، وهو خلاف ما اختاره جمهور المحققين، فما وجهه؟

فجوابه يتوقف على تمهيد مقدمة، وهي:

إن الفقر اسم للبراءة من رؤية الملك بأن لا يرى الملك والتصرف في نفسه وماله، بل في الوجود إلا للحق، وله مراتب بعضها فوق بعض، من قبض اليد عن الدنيا ضبطًا وطلبًا والإعراض عنها لسانًا وجنانًا.

ثم الرجوع إلى سابقة الأزل وهو عدمه الذاتي، فيعلم أن وجوده واستعداده وأحواله وكمالاته ومقاماته من فضل الله وفيضه الأقدس، فيتجرد عن الكل راجعًا إلى الله تعالى فقيرًا.

ثم يتحقق اضطراره بأن يعلم أن الوجود الحقيقي لله، وأن ما يجري عليه حكم سابقة الأزل، فلا فعل له ولا وجود ولا وصف، فهو مضطر تحت تصرف وجود حضرة الجمع، وهذا هو فقر الصوفية الذي هو فقد الأنانية في الغناء في أحدية الذات.

وأما الغنى فهو اسم للملك التام وهو إما غنى القلب بالمؤثر الحقيقي عن جميع الوسائط، ومسالمته لحكم الله، وغنى النفس المطمئنة عن حظوظها وتعلقاها باستقامتها على طلب الحق، أو الغنى بغنى الحق بالفناء في ذاته، والبقاء ببقائه، وغنائه إذا تقرر ذلك فنقول: الفقر الذي تكلموا في شرفه وتفضيله على الغنى هو فقر الزهاد المشار إليه أولاً والأغنياء الذين فضلهم رسول الله ﷺ ، هم الذين اختارهم الله في سابق علمه وخصهم من مواهب فضله بسائر مراتب الفقر والغنى، فلم يكن فضلها إلا بها، لا بسبب إنفاقهم وأعمالهم المشتركة، كما ظنه الفقراء، وتمنوا أن يسابقوهم أو يساووهم بها.

فنبههم أولاً بأحوالهم حتى تنقطع عنهم تلك الأمنية، فلما لم ينتبهوا أعلمهم بخصوصيات المواهب والعطاء بقوله: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**» [المائدة : ٥٤]، ليعلم أنهم أصفياء الفقراء وأخفياء الأغنياء في سرادقات العزة، وحجب الاعتلاء.

كما أشار إلى ذلك بعض الأولياء:

لله تحت قباب العـــز طائفــــة ... أخفاهم في رداء العز إجـــلالا

هم السلاطين في إطمار مسكنة ... استعبدوا من ملوك الأرض أقيالا

غبر ملابسهم شم معاطسهـــم ... جروا على قلل الخضراء أذيـــالا



الحديث السادس والعشرون

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة». (رواه البخاري ومسلم) [١].



الكلام على الحديث السادس والعشرين

(عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «كل سُلامى): قال في الصحاح: السلاميات عظام الأصابع [٢]، وذكر عن ابن عبيد أن السلامى في الأصل: البعير واحده وجمعه سواء، وقد جمع على سلاميات.

وقال في النهاية: جمع سلامية، وهي الأنملة من أنامل الأصابع أو كل عظم مجوف من صغار العظم [٣].

قال المصنف: المراد: المفاصل والأعضاء، وهي ثلاثمائة وستون مفصلاً، ثبت في صحيح مسلم، وهو مبتدأ موصوف بقوله:

(من الناس) ولفظة "من" للتبعيض، وخبره قوله:

(عليه صدقة): والعائد الضمير المجرور، وحق العائد إلى "كل" إذا أضيف إلى نكرة أن يجيء على وفق المضاف إليه، وقد يجيء على وفق المضاف، أي: على كل أحد بعدد كل مفصل وعضو صدقة تليق به، فإن كتبه مكتوبًا وإعانته على حمولة من صدقته اللائقة

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٣/١٠٥٩)ح(٢٧٣٤)، ومسلم (٢/٦٩٩)ح(١٠٠٩).

(٢) انظر مختار الصحاح (١/١٣١) (س ل م).

(٣) وقال الزجاج : السلاميات: العظام التي بين كل مفصلين من أصابع الإنسان ، انظر الفائق (٢/١٩١).

فليشكر الله تعالى عليه حيث جعل في عظامه مفاصل يقدر على القبض والبسط، ولسلامته عن الآفات.

(كل يوم): منصوب ظرفًا لقوله "صدقة"؛ لأنه بمعنى التصدق، أو مرفوع على الاستئناف لأنه لما قيل: "على كل سلامى صدقة"، توجه لسائل أن يقول: من يقدر عليه؟ أو بأي شيء يتصدق ؟ فقال: "كل يوم"، وهو مبتدأ موصوف بقوله:

(تطلع فيه الشمس): للتأكيد لا للكشف، كما قيل.

وقوله: **(تعدل)**: مع خبره خبره، والعائد من الإخبار محذوف، أي: تعدل فيه **(بين اثنين)**: أي: تصلح بين الخصمين أو تدفع ظلم الظالم، وهو مبتدأ على تأويل المصدر أو تقدير "إن" وارتفاع الفعل بعد جذفه، وخبره قوله: **(صدقة)**: وقد ثبت بالآيات والأخبار أن الإصلاح بين الناس من أفضل القربات وأكمل العبادات، قال ﷺ : **«ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟»** قالوا: بلى يا رسول الله ، قال: **«إصلاح ذات البين»** [1] ، وإفساد ذات البين هي الحالقة، ويباح فيه الكذب كما عند الحرب، وحديث الرجل امرأته وغيرها؛ لأن أسرار الحرب لو وقف عليها العدو، وأسرار الزوج لو اطلع عليها المرأة نشأ عنه فساد أعظم منه، وكذلك المتخاصمين يدوم بينهما العداوة، فالصدق يفضي إلى محذور أشد.

(وتعين الرجل في دابته فتحمله): أي الرجل **(عليها)**: أي: الدابة.

(أو ترفع له عليها متاعه صدقة): فيه إشارة إلى استحباب مراعاة حقوق الأصدقاء المعروفين، بل العوام المجهولين، وهي الإعانة بالنفس في الحاجات على سبيل المبادرة من غير التماس، والإيثار بالمال وكتمان السر وستر العيب والسكوت عن تبليغ مذمة الناس، وإبلاغ ما يسره وترك المماراة والذب عنه في غيبته والعفو عن زلته وغير ذلك مما يجب أن يعامل

---

(١) صحيح : أخرجه ابن حبان (٤٨٩/١١)ح(٥٠٩٢)، والحاكم في مستدركه (٣٥٦/٢)ح(٣٢٥٩)، وقال: صحيح على شرط مسلم و لم يخرجه، وأبو داود (٢٨٠/٤)ح(٤٩١٩)، والترمذي (٦٦٣/٤)ح(٢٥٠٩)، وقال: حديث صحيح، والإمام مالك في الموطأ (٩٠٤/٢)ح(١٦٠٨) موقوفًا على سعيد بن المسيب، والإمام أحمد في مسنده (٤٤٤/٦)ح(٢٧٥٤٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٨٩/٧)ح(١١٠٨٨)، والبخاري في الأدب المفرد (١٤٢/١)ح(٣٩١)، وابن المبارك في الزهد (٢٥٦/١)ح(٧٣٨)، وانظر نصب الراية (٣٥٤/٤-٣٥٥).

به»، وقد ورد أنه ﷺ قال: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**»[١].

(**والكلمة الطيبة صدقة**): أي: عطية يبغي بها الثواب من الله؛ لأنها مما يروح القلب ويدخل السرور في قلوب المؤمنين، وهو من أعظم الأجور.

وقد ورد أنه "**إذا التقى المسلمان تنزل عليهما مائة رحمة، تسعون لأكثرهما بشرًا وعشرة لأقلهما**"، رواه في العوارف مرفوعًا.

وقيل: المراد كلمة التوحيد، قالها تطيب بها القلوب علمًا ومعرفة ومشاهدة، وهي أفضل الذكر لأنها أجمع للقلب مع الله، وأنفى للغير، وأشد تزكية للنفس وتصفية للباطن وتنقية للخاطر من حديث النفس وطرد للشيطان، وذلك لأنه ينفي بها الآلهة التي تدعي الربوبية من النفس والهوى والشهوة والشيطان، ويثبت سلطان الحق مع عسكره، فإذا ظهر السلطان خرج القلب من بين الطبيعة إلى فضاء قرب الحق، فيرى "ما لا عين رأت، ولا خطر بالقلب، وله لب هو المقصود، وقشور ثلاثة:

فالأعلى ذكر اللسان فقط. ثم ذكر القلب تكلفًا بحيث يحتاج إلى مراقبته حتى يحضر. ثم ذكره طبعًا بأن يستمكن في القلب بحيث لا يحتاج إلى تكلف في صرفه عنه إلى غيره.

ثم استيلاء المذكور وانمحاء الذكر والذاكر بأن يفنى عن نفسه وذكره، ولا يلتفت إلى فنائه أيضًا ذاهبًا إلى ربه أولاً، ثم ذاهبًا فيه بالاستغراق به آخرًا، إذ لو التفت إلى شيء من ذلك لكان معرضًا عن الله غير منفك عن الشرك الخفي، وهذه الحالة سماها العارفون: الفناء؛ لأنه جاء الحق وزهق الباطل، وأولاً تكون كالبرق الخاطف فإن دامت عرج به إلى العام الأعلى وطالع الوجود الحقيقي الأصفى وانطبع فيه نقش الملكوت، وتجلى له قدس اللاهوت، وأول ما يتمثل له جواهر الملائكة وأرواح الأنبياء والأولياء في صور جميلة يفيض إليه بواسطتها بعض الحقائق إلى أن تعلو درجته عن المثال، فيكافح بصريح الحق في كل الأحوال، هذا زبدة ما ذكره حجة الإسلام في الأربعين.

(**وبكل خطوة تمشيها**): أي تمشي بها (**إلى الصلاة صدقة**): فعلم أن أعظم الناس أجرًا في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى، وإن الترجل والهينة مستحب، وكذلك في العيد

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤/٢٠٠٠)ح(٢٥٨٦).

والجنازة والعيادة، فلا يركب إلا لعذر، ويسير المركوب بالهننة، وقد نزل قوله تعالى: ﴿**ونكتب ما قدموا وآثارهم**﴾ ، أي: خطاهم إلى المسجد في بني سلمة حين شكت بعد منازلهم، وقال لهم رسول الله ﷺ : «**دياركم تكتب آثاركم**» ، وعن عمر بن عبد العزيز: "لو كان الله مغفلاً شيئًا لأغفل هذه الآثار التي تعفيها الرياح".

(**وتميط الأذى**): أي: إزالة ما يؤذي الناس كالحجر والشوك.

(**عن الطريق صدقة**»): قال العارف العاشق : أصل التوحيد: كشوف سبعين بابًا من غيوب صفات الحق، كما أشير إليه في حديث: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة**» ، أفضلها: عين كشف عين الذات، وأدنى المقام منها: إفراد القدم عن الحدوث، وهو إماطة قذى الكونين عن عين عيان القدم.

(**رواه البخاري ومسلم**): وفي رواية له: «**ويجزئ عن ذلك ركعتان يركعهما في الضحى**» ؛ لأن الصلاة فعل جميع الأعضاء، فإذا صلى فقد أدى حق كل عضو.

وحاصل الحديث يرجع إلى التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله.

قال بعض الأكابر: مجامع الخيرات وكمال الطريق: صدق مع الحق وخُلق مع الخَلق، وهذه مقدمة برهانية؛ لأن الموجود، إما واجب وهو الحق أو ممكن وهما يشتركان في صحة الوجود الخارجي ويفترقان في أن الواجب ذاته كافية في إيجاب الوجود له، والممكن لا يكفي ل يحتاج في إيجاب وجوده الخارجي إلى الغير، ولا ريب أن الأول أقرب إلى حقيقة الوجود من الثاني؛ لأن الموقوف على مقدمات أكثر وأعسر وجودًا، والثاني: واقع بالضرورة، فالأول أولى، ولذا قال بعض العرفاء: لولا صمديته وظهوره في صورة الممكن الأجوف الذي ليس إلا نقشًا خياليًا لا معنى له لم يكن شيئًا، وحينئذ نقول: كمال العبودية في الحق: أن يصير العبد مكاشفًا بأن له الحكم والأمر والوجود مع الخلق بأن يحسن إليهم ويهديهم بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وما أحسن قول الشاعر:

إن الفضائل كلها لو حصلت	رجعت بأجمعها إلى شيئين
تعظيم أمر الله جل جلاله	والسعي في إصلاح ذات البين



الحديث السابع والعشرون

عن النواس بن سمعان ﷺ عن النبي ﷺ قال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس». (رواه مسلم) [١]. وعن وابصة بن معبد ﷺ قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «جئت تسأل عن البر؟» قلت: نعم، قال: «استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك». (حديث حسن رويناه في مسندي الإمامين: أحمد بن حنبل والدارمي بإسناد حسن) [٢].



الكلام على الحديث السابع والعشرين

(عن النواس بن سمعان): بكسر السين وفتحها: الكلابي، كان من أصحاب الصفة، سكن الشام.

(رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:): حين سأله عن البر والإثم.

(«البر حسن الخلق): أي: أعظم خصاله.

قال الترمذي: البر هنا : الصلة والتصدق والطاعة، ويجمعها حسن الخلق.

وقال الطيبي: قد فسر البر في حديث آخر بالإيمان، وفي آخر بما يقربك إلى الله، وكلها متقاربة، لكن مراعاة المطابقة تقتضي أن يفسر حسن الخلق بما في حديث وابصة،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٨٠/٤)ح(٢٥٥٣).

(٢) قلت: إسناده ضعيف لأن فيه أيوب بن عبدالله بن مكرز: مجهول. قلت: فلا يلتفت لتحسين الحافظ النووي، والحديث تقدم تخريجه، قلت: وقد حسنه ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢٤٩/١)، والمنذري (٣٥١/٢) ح(٢٦٨٣)، والحسيني في البيان والتعريف (٩٣/١)، ولا يلتفت إلى تحسينهم، فالحديث معلول.

وهو : «**ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب**» [(١)] ، تم كلامه، ولعله أخذه من المصنف حيث قال عقبه به.

وتلخيص الكلام في هذا المقام أن يقال:

البر اسم جامع لأنواع الطاعات وأعمال القربات، ومنه بر الوالدين وهو استرضاءهما بكل ما أمكن، والتركيب يدل على الاتساع، ومنه: البر خلاف البحر، واعتبر في تحقيق ماهيته أمور يفصح عنها الكلام المجيد، وهي أمور يعسر اجتماعها، ولذا قيل: إن البر من خواص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أي: كمال البر، إذ لا يستبعد أن يوجد في الأمة من يوصف به، وقد أشار إليها من أوتي جوامع الكلم عليه الصلاة والسلام بقوله: «**حسن الخلق**» ، لأنه عبارة عن حسن العشرة والصحبة مع الخلق بأن يعرف أنهم أسراء الأقدار وأن كل ما لهم من الخلق والخلق والرزق والأجل بمقدار فيخشى الله يحسن إليهم بحسب الاقتدار فيأمنون منه ويحبونه بالاختيار ومع الخالق بأن يشتغل بجميع الفرائض والنوافل ويأتي بأنواع الفضائل عالمًا بأن كل ما يأتي منه ناقص يحتاج إلى العذر، وكل ما صدر من الحق كامل يوجب الشكر، ثم يتخلق بأخلاق الله تعالى بدوام الإعراض عما سواه، والإقبال عليه ودوام ذكره حتى ينجلي القلب بنور ذكر الذات، وصار بحرًا مواجًا من نسمات القرب، وجرى في جداول أخلاق النفس صفاء النعوت والصفات، وحينئذ يحصل التحقيق.

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الدارمي (٣٢/٢)ح(٢٥٣٣)، والإمام أحمد في مسنده (١٦١/٣)ح(١٥٨٦). وإسناده فيه :

- أيوب بن عبدالله بن مكرز قال الحافظ ابن حجر: مستور. انظر التقريب (٨٣/١)ح(٦٢٣)، ولا يلتفت لقول الحسيني: إسناده حسن في البيان والتعريف (٩٣/١)ح(٢٢٠).

- الزبير أبو عبدالسلام: ضعيف، بل كذبه الدارقطني.

- الانقطاع بين الزبير أبي عبدالسلام، وأيوب فإنه لم يسمع منه بدليل رواية الإمام أحمد(٢٢٨/٤)، وترجمة أيوب في التاريخ الكبير، وله إسناد آخر عن وابصة في التاريخ الكبير (١٤٤/١/١)، والبزار (١٨٣/كشف الأستار)، والطبراني في الكبير (١٤٧/٢٢-١٤٨)، من طريق معاوية بن صالح ثني أبو عبدالله الأسدي عن وابصة بنحوه، وأبو عبد الله الأسدي هذا سماه البخاري محمدًا، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في الثقات (٣٧٠/٥)، وقال فيه : لا أدري من هو، فالرجل مجهول، وقال أحمد بعدما رواه من طريق معاوية عن أبي عبد الرحمن السلمي: سمعت وابصة ولا يعرف من حديث أبي عبد الرحمن السلمي البتة، والصواب أبو عبدالله الأسدي. اهـ.

(**والإثم ما حاك**): أي: تردد وتحرك (**في النفس**) ولم تنشرح له؛ لقبحه وحل في القلب منه الشك والخوف من كونه ذنبًا يستحق صاحبه العقاب، ومنه قيل لعقوبة الآثام فعال منه. والهمزة فيه عوض عن الواو، كأنه يثم الأعمال أي يكسرها بإحباطه، كذا في الكشاف.

والحيك: أخذ القول في القلب، يقال : ما يحيك فيه الملامة إذا لم يؤثر فيه، كذا في الصحاح.

(**وكرهت أن يطلع عليه الناس**»): أي: أعيانهم وأماثلهم، إذ الجنس ينصرف إلى الكامل، وذلك لأن النفس بطبعها تحب اطلاع الناس على خيرها، فإذا كرهت الاطلاع على بعض أفعالها في غير ما يتقرب به إلى الله أو غير ما أذن الشرع فيه علم أنه لا خير فيه ولا بر، فهو إذًا إثم وشر.

قال بعض العارفين: الإثم هواجس النفس، وهو تحك الصدر بنعت التنغيص والاضطراب والضيق؛ لأنها ثقيلة على الأرواح، والبر لطف ممزوج بنور الذكر، فتطمئن به القلوب وتنفتح منه الغيوب.

(**رواه مسلم، وعن وابصة بن معبد**): الأسدي، أسلم سنة تسع، كان كثير البكاء، لا يملك دمعته، نزل الكوفة ثم تحول إلى الجزيرة ومات بالرقة.

(**رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال**: «**جئت تسأل عن البر؟**»): وهذا من دلائل النبوة لأنه أخبره عما في ضميره قبل أن يتكلم به.

(**قلت: نعم. فقال**: «**استفت قلبك**): أي: اطلب الفتوى من قلبك لأنه أبلغ في سلوك طريق الكمال وطلب الوصول بعين الوصال إلى مقام القلب، وبيان ذلك أن سير الإنسان إلى الحق إنما هو بالباطن، وإن كان مع استعانة بالظاهر لصعود الهيئات البدنية إلى حيز النفس والقلب، وهبوط الهيئات النفسانية والقلبية إلى الظاهر للعلاقة بينهما.

ومراتب غيوب الباطن عشرة:

غيب القوى، ويقال له : غيب الحس.

وغيب النفس، وهي قبل التوجه إلى الحق أمارة بالسوء، ثم تصير لوامة، ثم مطمئنة.

وغيب القلب.

وغيب العقل والسر، وهي مرتبة للعقل عند ترقيه إلى مقام الروح في التجرد والصفاء.

وغيب الروح ، وله مرتبة تسمى: الخفاء، وهو عند ترقيه إلى مقام الوحدة، فهي لطيفة بين الروح والحضرة الإلهية، ومحل المشاهدات والمكاشفات وحقائق العلوم اللدنية.

وغيب الغيوب الذي هو غيب الذات الأحدية.

واشتقاق الفتوى من الفتي؛ لأنها جواب في حادثة أو إحداث حكم أو تقوية مشكل، كذا في المغرب، يعني: أنه يلاحظ في الفتوى ما ينبئ عنه الفتي من القوة والحدوث.

(**البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب**): أي: إذا التبس عليك شيء و لم تدر أنه من أي القبيلين، فلتتأمل فيه إن كنت من أهل الاجتهاد واسأل المجتهدين إن كنت من أهل التقليد، فإن وجدت ما تسكن إليه النفس واطمأن به القلب، فلتأخذ به وإلا فدعه، قاله القاضي.

ولعل عطف اطمئنان القلب على اطمئنان النفس للتأكيد، فإن النفس إذا ترددت في أمر استتبع ذلك خفقانًا في القلب ؛ للعلاقة بينهما، فإنه المتعلق الأول لها، وربما سرى إلى سائر القوى والأعضاء، فيحس بها انحلال وانخزال، فإذا زال ذلك عن النفس وحدث بها طمأنينة انعكس الأمر.

والنفس لغة: حقيقة الشيء.

واصطلاحًا: لطيفة في الجسد ، تولدت من ازدواج الروح بالبدن واتصالهما معًا.

فإذا أقامت في ظلمتها لا يغشاها نور العلم والمعرفة، مائلة إلى الشهوة وسائر الأخلاق الرذيلة؛ لإلفها إلى العالم الحسي، سميت: "أمارة"، وإذا تنفس صح الهداية وانزعجت من دواعي طبيعتها متطلعة إلى مقار الطمأنينة، منجذبة مرة إلى العالم العلوي وأخرى إلى السفلي، سميت: "لوامة"؛ لأنها تلوم نفسها لعلمها بمحل الطمأنينة، وإذا طلعت شمس العناية صارت ملهمة، وإذا بلغت شمس العناية وسط سماء الهداية أشرقت الأرض بنور ربها وامتلأ القلب من السكينة اليقينية وخلع على النفس خلع الطمأنينة، فصارت: "مطمئنة"، محدثة مكملة مستعدة لجذبة ﴿**ارجعي إلى ربك راضية مرضية**﴾ .

(**والإثم ما حاك في النفس**): أي: أثر فيها و لم يستقر .

(**وتردد في الصدر**): و لم ينشرح له (**وإن أفتاك الناس**): أي: إن قالوا لك: إنه حق، فلا تأخذ بقولهم، فإنه قد يوقع في الغلط أو في أكل الشبهة، كأن ترى من له مال حلال

وحرام فلا تأخذ منه شيئًا وإن أفتاك المفتي مخافة أن تأكل الحرام؛ لأن الفتوى غير التقوى، وهي شرطية قطعت عن الجزاء وتتميمًا للكلام السابق وتقريرًا له وقوله:

(وأفتوك»): تأكيد، وفي هذا المعنى ينشد:

اتخذ طاعة الإلــه ســـبيلاً	تجد الفوز بالجنان وتنجو
واترك الإثم والفواحش طرا	يؤتك الله ما تروم وترجو

(حديث حسن رويناه في مسندي الإمامين أحمد بن حنبل): الشيباني الإمام المشهور، ولد ببغداد سنة مائة وأربع وستين، ومات بها ضحوة جمعة الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين، وله سبع وسبعون سنة.

(والدارمي): منسوب إلى دارم بطن من بني تميم، هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن السمرقندي الإمام الكبير الورع الرفيع، مات سنة خمس وخمسين ومائتين.

(بإسناد جيد).



الحديث الثامن والعشرون

عن أبي نجيح العرباض بن سارية ﷺ قال: وعظَنا رسول الله ﷺ موعظةً وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودّ ع، فأوصنا، قال: أوصيكم بتقوى الله ﷻ ، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، فإنه مَن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار». (رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح) [١].



الكلام على الحديث الثامن والعشرين

(**عن أبي نجيح العرباض بن سارية**): السلمي، كان من أصحاب الصفة البكائين المشتاقين إلى لقاء الله تعالى يقول في دعائه: "كبر سني ووهن عظمي فاقبضني إليك"، مات بالشام سنة خمس وسبعين ومروياته أحد وثلاثون حديثًا، روى له أصحاب السنن الأربعة.

(**رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت**): أي: خافت. والوجل: الخوف مع الحذر.

(**منها القلوب وذرفت منها العيون**): أي: سالت بسببها الدموع من العيون لتأثير الموعظة في النفوس في استيلاء سلطان الخشية في القلوب. فالإسناد عقلي أو هو من باب الاستعارة المكنية كما اختاره السكاكي، وفي المسألة خمسة مذاهب.

---

(١) إسناده حسن: أخرجه الحاكم في المستدرك (١/١٧٤)ح(٣٢٩)، وقال: حديث صحيح ليس له علة، والترمذي (٥/٤٤)ح(٢٦٧٦)، والدارمي (١/٥٧)ح(٩٥)، والبيهقي في الكبرى (١٠/١١٤)، وابن ماجه (١/ ١٥)ح(٤٢-٤٣)، والطبراني في الكبير (١٨/٢٤٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/٦٧)ح(٧٥١٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١/٢٩)ح(٥٤)، وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (١٢٤) ، والبيهقي في الاعتقاد (١/٢٢٩)، والمروزي في السنة (١/٢٧)ح(٧٠).

قال في الصحاح: ذرف الدمع ذرفًا وذرفانًا، أي: سال، والمذارف: المدامع، ومعنى الحديث: أن تلك الموعظة أثرت فيهم وأخذت منهم بمجامعهم ظاهرًا وباطنًا.

(**فقلنا : يا رسول الله، كأنها**): أي : تلك الموعظة (**موعظة مودع**): أي: شخص يودع أهله وأحبابه، فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فيه.

(**فأوصنا**): أي: أرشدنا بما فيه صلاح الدارين، وفلاح المنزلتين.

ففيه: أن للأبرار الإكثار من خصال الخير، سيما في آخر العمر، وأنه يجوز الاستدلال بالأقوال على الأحوال، وأنه يستحب الاسترشاد من أكابر الدين وانتهاز فرصة الاستفاضة من عظماء اليقين.

(**قال**: «**أوصيكم بتقوى الله**): هذا من جوامع الكلم؛ لأن التقوى: امتثال المأمورات، واجتناب المنهيات، وهي زاد الآخرة، تنجيك من العذاب الأبدي، وتبلغك إلى دار السرور السرمدي، وتوجب الوصول إلى عتبة الجلال والقدس والنور المحمدي، كما قيل:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

وهذا فيما بينهم وبين الله تعالى.

(**والسمع والطاعة**): فيما بينهم وبين من يلي أمرهم، أي: أوصيكم بقبول قول الأمير وطاعته ما أمر بالمباح عادلاً كانِ أو جائرًا، وإلا فلا سمع ولا طاعة، لكن لا تجوز محاربته.

(**وأن تأمر**): أي: صار (**عليكم**): أميرًا (**عبد**): أي: أدنى الخلق فلا تستنكفوا عن طاعته لئلا يؤدي إلى تهييج الفتن وظهور الفساد، وهذا وارد على سبيل المبالغة في الأمر بطاعته والنهي عن مخالفته والفرض أن الأئمة من قريش أو إن استعمله الإمام الأعظم (**وأنه**): أي: الشأن (**من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا**): يعني تظهر الفتن وتختلف الآراء، فمن قبل وصيتي والتزم تقوى الله وقبل طاعة الوالي أمن بعدي مما يرى من وقوع الفتن التي وقعت بين الصحابة والتابعين، كما هو المشهور.

وفي رواية المصابيح والمشكاة: "فإنه" بالفاء، وهي للسببية، ثم أكد تلك الوصية بقوله:

(**فعليكم**): اسم فعل بمعنى: الزموا (**بسنتي**): وهي : ما وضعه رسول الله ﷺ من أحكام الدين واجبًا أو مندوبًا.

(**وسنة الخلفاء الراشدين المهديين**): الذين هداهم إلى طريق الصدق والصواب، وأرشدهم إلى اتباع منهاج أولي الألباب.

ووصف الراشد بالمهدي؛ لأنه إذا لم يكن مهتديًا في نفسه لم يصلح أن يكون هاديًا لغيره لأنه يوقع الخلق في الضلال من حيث لا يشعر.

وهم: الصديق والفاروق وذو النورين وأبو تراب علي المرتضى رضي الله تعالى عنهم، كانوا أفضل الصحابة، وواظبوا على استمطار الرحمة من السحابة، وخصهم الله بالمراتب العلية والمناقب السنية ، ووطنوا أنفسهم على مشاق الأسفار، ومجاهدة القتال مع الكفار، أنعم الله عليهم بمنصب الخلافة العظمى، والتصدر للمراتب القصوى، والمنازل العليا والرياسة الكبرى، لإشاعة أحكام الدين، وإعلاء أعلام الشرع المتين، رفعًا لدرجاهم، وازديادًا لمثوباهم.

فخلف الصديق بإجماع الصحابة سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام، لحلمه ووقاره وسلامة نفسه ولين جانبه، والناس متحيرون، والأمر غير ثابت، فحمى بيضة الدين، ودفع غوائل المرتدين، وجمع القرآن وفتح البلدان.

ثم استخلف الفاروق؛ لأن الأمر مستقر، والقوم مطيع، والفتن ساكنة، فرفع رايات الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وفتح أكثر الأقاليم؛ لأنه كان في غاية الصلابة وكمال الشهامة ومتانة الرأي وحسن التدبير، وخلافته عشر سنين وستة أشهر وعشر ليال.

ثم بويع لعثمان لشوكة أقاربه، وبسط أيدي بني أمية في حكومة الأطراف زمن عمر، فلو نصب غيره لوقع الخلاف[١]، فأظهر في مدة اثنتي عشرة سنة مساعي جميلة في الإسلام، وجمع الناس على مصحف واحد بعدما كانوا يقرأون بقراءات مختلفة على حسب السماع، وبعث به إلى الآفاق، ولذا نسب المصحف إليه، وجعل إمامًا.

---

(١) هذا الكلام فيه تنقص من قدره ﷺ، وأن غيره كان أولى منه لولا غلبة الأقارب كما زعم المصنف، وفيه اتهام لمن قام بتفقد منزلتهم عند الرعية من المسلمين، فنعوذ بالله من الخذلان، ونشهد أن هؤلاء الأربعة هم أفضل الصحابة، كما ذكر المصنف، وأن أفضليتهم هي كما جاءت على ترتيب الخلافة : أبو بكر، ثم عمر ، ثم عثمان، ثم علي، رضي الله عن الجميع. هذا والله أعلم.

ثم بويع بعده لعلي المرتضى؛ لأنه أفضل الصحابة بعدهم ، وسيد بني هاشم ما خلا رسول الله ﷺ ، فلو لم تقع الخلافة على الترتيب المذكور لحرم واحد منهم ذلك المنصب المشكور، ولا يخفى أن هذا من جملة معجزاته ﷺ الدالة على صدق نبوته؛ لأنه استبد بذكر هذا الغيب وقال: «**الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكًا عضوضًا**» ، ووقع كما قال.

قال التوربشتي: وإنما ذكر سنتهم في مقابلة سنته؛ لأنه علم أنهم لا يخطئون فيما يستخرجون من سنته، أو أن بعضها لا يشتهر إلا في زمانهم، وليس المراد انتفاء الخلافة عن غيرهم حتى ينافي قوله ﷺ : «**يكون في أمتي اثنا عشر خليفة**» ، بل المراد: تصويب رأيهم وتفخيم أمرهم.

وقيل: الخلفاء يشملهم ومن سار سيرهم واقتفى آثارهم في استخراج الأحكام وإذاعة الحق بين الأنام.

(**عضوا عليها**): أي: على تلك السنة، يقال: عض فلان: إذا أخذ شيئًا بالعض.

(**بالنواجذ**): جمع ناجذة بالذال المعجمة، وهي الأنياب أو الأضراس أو الضواحك، وهو كناية عن شدة التمسك بها أو استعارة تمثيلية، شبه حال المتمسك بالسنة المحمدية بجميع ما يمكن من الأسباب المعينة عليه بحال من تمسك بشيء برمته، ثم يستعين عليه بأسنانه، استظهارًا للمحافظة في ذلك؛ لأن تحصيل السعادات الحقيقية بعد مجانبة كل صاحب يفسد الوقت، وكل سبب يفتن القلب، كما أشار إليه بقوله: «**ومحدثات الأمور**» ، منوطة باتباع السنة، بأن يتمثل الأمر على مشاهدة الإخلاص ويعظم النهي على مشاهدة الخوف، بل باقتفاء آثار الرسول ﷺ في جميع موارده ومصادره وحركاته وسكناته، يقظته ومنامه، حتى تلجم النفس بلجام الشريعة، ويتجلى في القلب حقائق الحقيقة، بتصقيله من مقابيح الأخلاق ، وتنويره بأنوار الذكر والمعرفة والوفاق ، وتعديله بإجراء جميع حركات الجوارح على قانون العدل، حتى تحدث فيه هيئة عادلة مستوية من آثار الفضل ، مستعدًا لقبول المعارف والحقائق، تصلح لأن ينفخ فيها روح الله المخصوصة لسلاك أحسن الطرائق.

(**وإياكم**): عطف على قوله فعليكم للتقرير والتوكيد.

(**ومحدثات الأمور**): أي: اتقوها واحذروا إحداثها.

(فإن كل بدعة ضلالة)): البدعة: كل عمل على غير مثال سابق.

وفي الشرع: إحداث ما لم يكن في عهد رسول الله ﷺ ، قال في شرح مسلم: هذا عام مخصوص؛ لأن البدع على خمسة أنواع:

واجبة: كتعلم النحو وأصول الفقه والكلام.

ومحرمة: كمذاهب المرجئة والمجسمة وغيرها.

ومندوبة: كإحداث المدارس والكلام في دقائق التصوف.

ومكروهة: كزخرفة المساجد وتزويق المصاحف.

ومباحة: كالمصافحة عقيب الصبح والعصر، تم كلامه.

ولو أجرى الحديث على عمومه لم يبعد، إذ المعنى: كل ما لا يرجع إلى أصل ولا يساعده دليل شرعي فهو ضلالة ولتلك الأحكام أصول ومأخذ في الشرع، ويؤيد ذلك ما قاله الخطابي في شرح السنة، من أن المحدث ما أحدث على غير قياس أصل من أصول الدين، فأما إذا كان مردودًا إليه فليس بضلالة.

واعلم أن أصول البدع كما نقل في المواقف ثمانية، المعتزلة القائلون بأن العباد خالقوا أعمالهم، وبنفي الرؤية، وبوجوب الثواب والعقاب، وهم عشرون فرقة.

والشيعة المفرطون في محبة علي، وهم اثنان وعشرون فرقة.

والخوارج المفرطة في بغضه المكفرة له ومن أذنب ذنبًا كبيرًا، وهم عشرون فرقة.

والمرجئة القائلة بأنه لا يضر مع الإيمان معصية ولا ينفع مع الكفر طاعة، وهم خمس فرق.

والنجارية الموافقة لأهل السنة في نفي خلق الأفعال ، وللمعتزلة في نفي الصفات وحدوث الكلام وهم ثلاث فرق.

والجبرية القائلة بسلب الاختيار عن العباد وهم فرقة واحدة.

والمشبهة الذين يشبهون الحق بالخلق في الجسمية والحلول، وهم فرقة أيضًا.

فتلك اثنتان وسبعون فرقة، كلهم في النار، والفرقة الناجية هم أهل السنة البيضاء المحمدية، والطريقة النقية الأحمدية.

ولها ظاهر وسمي بالشريعة، شرعت للعامة. وباطن وسمي بالطريقة، منهاجًا للخاصة، وخلاصة خصت باسم الحقيقة معراجًا لأخص الخاصة، فالأول نصيب الأبدان من الخدمة، والثاني نصيب القلوب من العلم والمعرفة والحكمة، والثالث نصيب الأرواح من المشاهدة والرؤية.

قال القشيري: الشريعة: أمر بالتزام العبودية. والحقيقة: مشاهدة الربوبية، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة غير مقبولة، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصولة، فالشريعة قيام بما أمر، والحقيقة شهود لما قضى وقدر وأخفى وأظهر، والشريعة: حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره، والحقيقة شريعة من حيث إن العارف به سبحانه وجبت بأمره.

ولله در من قال:

ألا فأكرموا سـنة الأنبياء ... ألا فاحفظوا سيرة الأصفياء

ومن يبتدع بدعة لم يكرم ... بوجدًا مرتبـة الأتقيـاء

(رواه أبو داود): هو الإمام سليمان بن الأشعث السجستاني، كان من فرسان الحديث، قيل: ألين لأبي داود الحديث كما ألين لداود الحديد، ولد سنة اثنين ومائتين، وتوفي بالبصرة لأربع عشرة خلت من شوال خمس وسبعين ومائتين.

(والترمذي وقال: حديث حسن صحيح).



الحديث التاسع والعشرون

عن معاذ بن جبل ﵁ قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار؟

قال: «لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت».

ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل»، ثم تلا: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ حتى بلغ ﴿يعملون﴾ .

ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» .

قلت: بلى يا رسول الله.

قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد».

ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» .

قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه، وقال: «كفّ عليك هذا».

قلت : يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟

فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم –أو قال: على مناخرهم– إلا حصائد ألسنتهم». (رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح) [١].



(١) إسناده حسن: أخرجه الترمذي (٥/١١)ح(٢٦١٦)، وابن ماجه (٢/١٣١٤)ح(٣٩٧٣)، والبيهقي في الكبرى (٦/٤٢٨) ح(١١٣٩٤)، والإمام أحمد في مسنده (٥/٢٣١)ح(٢٢٠٦٩)، والطيالسي في مسنده (١/٧٦)ح(٥٦٠)، وعبد بن حميد في مسنده (١/٦٨)ح(١١٢)، والطبراني في الكبير (٢٠/١٣١)ح(٢٦٦)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/٩٥)ح(١٠٤)، وفي إسناده: عاصم بن أبي النجود، صدوق له أوهام.

الكلام على الحديث التاسع والعشرين

(عن معاذ بن جبل ﷺ قال): بينما نحن نخرج مع النبي ﷺ في غزوة تبوك وقد أصابنا الحر فتفرق القوم، فإذا رسول الله ﷺ أقربهم مني، فدنوت منه.

(قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل): التنوين للتعظيم أو التنويع أي عمل عظيم أو معتبر في الشرع، فلا يرد ما ذكره المظهر من أنه إذا جعل "يدخلني" جواب الأمر يبقى بعمل نكرة غير موصوفة، وهي لا تفيد.

(يدخلني الجنة): مرفوع على أنه صفة "عمل" إما مخصصة أو مادحة أو كاشفة فإن العمل إذا لم يكن بهذه الحيثية كأنه لا عمل، أو مجزوم جوابًا للأمر، أي: أخبرني بعمل إن تخبرني يدخلني الجنة، بمعنى أن الخبر وسيلة إلى العمل، والعمل إلى الإدخال، فتأمل.

وإسناد الإدخال إلى العمل إسناد إلى السبب أو شبه العمل لكونه سببًا للمطلوب بالفاعل الحقيقي وجعل نسبة الإدخال تخييلاً للمكنية.

(ويباعدني عن النار): أخرج على صيغة المفاعلة، مبالغة في البعد. والنار جوهر مضيء لطيف حارّ محرق من نار ينور، أي: تفرق لأن فيها حركة.

وفي كلام أهل التحقيق:

إن الجنة : جنة الوصول إلى معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله من الملائكة الكروبية والروحانية، وطبقات الأرواح ، وعالم السموات بحيث يصير روح السالك كالمرآة المحاذية لعالم القدس.

وأشجارها: الملكات الحميدة والأخلاق الفاضلة.

وثمراتها: المكاشفات والمشاهدات والإشارات وغيرها من المواهب.

ومن رضي بالجنة الحسية فهو أبله، ومن أعرض عن الحق وانتقل من روح المحبة والقرب إلى سياسة القهر والبعد وانحط عن الجهة العلوية وعالم النور يعذب بنار روحانية نشأت من استيلاء صفة القهر الإلهي فتكون أشد وأدوم إيلامًا من النار الجسمانية؛ لأن حرارتها تابعة لنار روحانية ملكوتية هي شرر من نار غضب الله بعد تنزلها في مراتب كثيرة، كتنزلها في مرتبة النفس بصورة الغضب، وهي غير متناهية، وهذا معنى ما يقال: "إن نار جهنم غسلت بالماء سبعين مرة، ثم أنزلت إلى الدنيا ليمكن الانتفاع بها".

ولما كان هذا، أي: قوله: "أخبرني بعمل" من المسائل السنية مهد للجواب مقدمة ونبه على فخامة المسئول عنه بأن أكدها تأكيدًا بليغًا.

(**قال:** «**لقد سألت عن عظيم**): أي شيء عظيم متعسر الجواب؛ لأن الدخول والتباعد أمر عظيم فسببه الذي هو اجتناب كل محظور وامتثال كل مأمور كذلك، أو لأن معرفة العمل المدخل مما استأثر الله به من علم الغيب، ولا يظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول.

والأولى أن يقال: عن عمل عظيم ليطابق السابق واللاحق والعظيم ضد الحقير كالكبير، نقيض الصغير، وكما أن الحقير دون الصغير، فكذلك العظيم فوق الكبير ويستعملان في الصور والمعاني تقول: رجل عظيم وكبير، أي: جثته أو قدره.

(**وإنه ليسير على من يسره الله عليه**): بالتوفيق على إتيان الأوامر وانتهاء المناهي وأكده "بأن" لما فيه من شائبة الإنكار لتهاونه في السؤال.

(**تعبد الله**): حذف المسند إليه أي: هو أن تعبد الله وحده، تعويلاً على أقوى الدليلين وعدل عن صيغة الأمر تنبيهًا على أن المأمور كأنه متسارع إلى الامتثال وهو يخبر عنه إظهارًا للرغبة في وقوعه، وفصله عن الجملة الأولى لكونه بيانًا أو استئنافًا، وفيه براعة الاستهلال؛ لدلالته على مضمون الكلام إجمالاً كما أن قوله: «**كف عليك**» يدل على حسن المقطع والعبادة أقصى غاية الخضوع والمراد به التوحيد لقوله:

(**لا تشرك به شيئًا**): أو الأعم منه ليعم امتثال كل مأمور واجتناب كل منهي. والضمير في "به" ما يمكن أن يعود إلى الله أو إلى العبادة، والثاني أولى؛ لأنه إذا لم يشرك في العبادة فلأن لا يشرك بالله أولى.

والتنوين في "شيئًا" للإفراد شخصًا كما أن التنوين في قوله: "عظيم" للتعظيم وفي " يسير" للتقليل.

والعبادة: فعل اختياري مناف للشهوات البدنية تصدر على نية يراد بها التقرب إلى الله تعالى طاعة للشريعة، قاله الراغب.

وهي الغاية القصوى من إبداع الخلق وإرسال الرسل، وكل ما ازداد العبد معرفة ازداد عبودية، ولذا خص الأنبياء وأولو العلم بخصائص ولا ينفك العبد عنها ما دام حيًا بل في البرزخ عليه عبودية أخرى لما يسأله الملكان عن ربه ونبيه.

وفي القيامة: ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود﴾ وإذا دخل الجنة كانت عبادته : سبحانك اللهم مقرونًا بأنفاسه.

وفي كلام الصوفية: إن العبادة حفظ الحدود، والوفاء بالعهود، وقطع العلائق والشركاء عن سرك، والغنى عن مشاهدتك في مشاهدة الحق، ولها ثلاث مراتب؛ لأنه إما أن يعبده رهبة من العقاب، ورغبة في الثواب وهو المسمى: بالعبادة، وهذا لمن له علم اليقين. أو يعبده تشرفًا بعبادته وقبول تكاليفه وتسمى: بالعبودية، وهذا لمن له عين اليقين. أو يعبده لكونه إلهًا وكونه عبدًا، والإلهية توجب العبودية والهيبة وتسمى: بالعبودية، وهذا لمن له حق اليقين.

والشرك: رؤية ضر أو نفع عمن سواه ، وإثبات وجود غير الله ذاتًا أو صفة أو فعلاً.

(**وتقيم الصلاة**): من باب عطف الخاص على العام تنبيهًا على إناطته إن عمم العبادة.

(**وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت**»): فعلم أن دخول الجنة يتوقف على تلك الأعمال.

وهذا الحكم ليس مخصوصًا بمعاذ بل يعم كل مؤمن، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فإن قلت: إذا بلغ الرجل عارفًا بالله ومات قبل أن تجب عليه الأعمال فهو من أهل الجنة وفاقًا مع خلوه عن الأعمال، فكيف يتوقف دخول الجنة عليها؟

قلت: الحديث دل على أن كل من صام وصلى فله الجنة، فلا يلزم العكس الكلي، إذ الموجبة الكلية لا تنعكس كنفسها مع أنه علم من دليل آخر.

(**ثم قال**): لما فرغ من جوابه، وكان كلامًا في شأن الدين استطرد أمر النوافل تكميلاً للفرائض.

(«**ألا أدلك**): وهي مركبة من همزة دخلت على منفي ليفيد التحقيق، أي: لا ينبغي لي أن لا أدل مع أني المرشد المكمل أدلك وذكر الدلالة ليلائم الباب كما أن الإخبار موافق للمغيبات.

(**على أبواب الخير؟!**): أي: الطريق الموصلة به، شبه الخير بدار له فيها كل ما تتمناه النفس وهو استعارة مكنية وأثبت له الباب تخييلاً.

واللام فيه للجنس؛ لأن الصوم والصدقة والتهجد شديد على النفس فمن اعتادها يسهل عليه كل خير؛ لأن المشقة في دخول الدار يكون بفتحها، أو للعهد بقرينة السياق، أي: أبواب الفرائض.

وإنما سميت النوافل أبوابًا لها؛ لأنها مقدمات ومكملات لها، فمن فاتته حرم الفرائض ومن ترك الأدب عوقب بحرمان النوافل، ومن عوقب به عوقب بحرمان السنن ، ومن عوقب به عوقب بحرمان الفرائض، ومن عوقب به يوشك أن يعاقب بحرمان المعرفة.

وإنما لم يتوقف ﷺ حتى يقول معاذ: "بلى"، كما في السؤالين، بل سرد الكلام تنبيهًا على أنه لا ينبغي أن ينتظر تصديقه اهتمامًا واعتناءً بمضمونه.

(الصوم): أي: صوم النفل. فاللام بدل عن المضاف إليه، كذا قيل، وفيه بحث ولعل قائله كوفي. قال في الكشاف في قوله تعالى **﴿فإن الجحيم هي المأوى﴾** أي: مأواه إن اللام ليس بدلاً عن الإضافة، بل للتعريف العهدي؛ لأنه لما علم أن الطاغي صاحب المأوى تركت الإضافة فكذا ههنا؛ لأنه لما ذكر الفرائض أولاً علم أن المذكور بعدها هو النوافل، فاللام للعهد الخارجي، ولا يجب فيه تقدم المعهود كما ظن، بل قد يستغني عنه لعلم المخاطب بالقرائن، كقولك لمن دخل البيت: اغلق الباب، وكم مثلها.

(جنة): أي: وقاية من سورة الشهوة في الدنيا والنار في العقبى، كالجنة، ففيه تشبيه المعقول بالمحسوس عند المحققين. واختار بعض الأفاضل: أن مثله استعارة، فمن كان الصوم جنته يسد طرق الشياطين في قلبه، فيكشف بعد إزالة ظلمتهم ويرى بنور الغيب خزائن لطائف حكم الصفات، فيستتر بأنوارها عن جميع المخالفات والآفات.

(والصدقة تطفئ الخطيئة): أي: تمحوها وتذهب آثارها إذا كانت متعلقة بحق الله تعالى، وإن كانت من حقوق العباد فيدفع تلك الحسنة إلى خصمه عوضًا عن مظلمته، فقوله "تطفئ" استعارة تبعية، شبه إذهاب الصدقة بالإطفاء واستعير له ثم اشتق منه الفعل، أو يقال: شبه الخطيئة بالنار، وأثبت له ما يلازمها من الإطفاء تخييلاً.

وأورد المسند في الأولى اسمًا ليدل على الدوام، وفي الثانية مستقبلاً ليفيد مع الاستمرار التقوى.

(كما يطفئ الماء النار): لتنافي آثارهما بإيجاد الله إذ الأشياء لا تعمل بطبعها فلا الماء يروي ولا الخبز يشبع ولا النار تحرق.

(وصلاة الرجل في جوف الليل»): أي: وسطه أو آخره كذلك، أي: تطفئ الخطيئة، أو هي من أبواب الخير، والأول أظهر، قاله القاضي .

والأظهر: أن يقدر الخبر: شعار الصالحين، كما في جامع الأصول، ويفيد هذا فائدة زائدة على القربتين وهي: أنهما كما أفادتا المباعدة عن النار فتفيد الإدخال في الجنة، ويتم الاستشهاد بالآية لأن قرة العين هو الفوز والسرور، ولا يحصل هذا إلا بدخول الجنة والخروج عن النار، ذكره الطيبـــي.

ولك أن تقول: قدم الصلاة على الزكاة والصوم، وعكس ثانيًا لأن الأول مسوق لبيان أمر الدين، فقدم الأهم فالأهم، والثاني: لتكميله فالترقي فيه أولى، ولذا شبه الصوم بالجنة التي هي دون الماء؛ لأنها تدفع العدو والماء يقمعه ويطفئه.

إذا تقرر هذا فالأولى أن يقال: حذف الخبر منه إشعارًا بأنه لا يكتنه كنهه، ولا يمكن التعبير عنه، أي: صلاة الرجل في جوف الليل، فلا تعلم نفس ما أخفي لها، ولهذا استشهد بالآية، وذكر الرجل للتغليب وإثبات الجوف له مجاز، ولفظه: "من" ابتدائية، أي: ابتداء قيامه من جوف الليل ليكون من القائمين لأن من قام فيه قام في سائر الأوقات.

(ثم تلا ﴿تتجافى﴾): تتنحى **(﴿جنوبهم﴾ حتى بلغ: ﴿يعملون﴾)**: يعني قوله: **﴿عن المضاجع﴾** ، أي : مواضع النوم، وهو كناية عن التهجد **﴿يدعون﴾** يعبدون **﴿ربهم﴾** خوفًا من سخطه، وطمعًا في رحمته **﴿ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس﴾** لا ملك ولا نبي **﴿ما أخفي لهم من قرة أعين﴾** مما تقر به عيونهم سرورًا من الثواب.

وإنما جعل هذه الأشياء أبواب الخير؛ لأن من اعتادها لشدتها على النفس يسهل عليه كل خير، ولأن الأعمال إما بدنية أو مالية، فالصدقة مالية، والصوم وصلاة الليل بدني نهاري وليلي.

(ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر): أي: بأصل الدين **(وعموده وذروة)**: بكسر الذال وبضمها: أعلى الشيء الجمع الذري .

(سنامه؟): بفتح السين: ما ارتفع من ظهر الجمل.

(قلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام): وهي الشهادتان؛ لأنه المفتاح ولا بقاء للأعمال دونه وهو من باب التشبيه المقلوب، إذ المقصود تشبيه الإسلام

برأس الأمر ليشعر بأنه من سائر الأعمال بمترلة الرأس من الجسد في احتياجه إليه وعدم بقائه دونه.

(وعموده): أي: ما يقوم به الدين ويرتفع به أساسه، كعمود الخيمة.

(الصلاة): لأنها الفارقة بين الكافر والمؤمن.

(وذروة سنامه الجهاد»): لأنه الذب عن الدين ودفع غوائل المشركين، ويرفع ويخفض فيكون من أعلى شعبه.

وهذه استعارات متعاقبة، شبه الدين بالباذل، واستوفى له معظم أركانه من الرأس والظهر وذروة سنامه. أو يقال: شبه الإسلام بالرأس للاحتياج إليه وعدم البقاء دونه. والصلاة بعمود الخيمة ليعلم أن بها قوامه. والجهاد بالذروة؛ ليعلم أن رفعته به.

والجهاد : من الجهد بالفتح، وهو المشقة، أو بالضم وهو الطاقة؛ لأنه يبذل الطاقة في قتال العدو عند فعل العدو مثل ذلك، ويضم جهده إلى جهد أخيه في نصرة دين الله، كالمساعدة وهي ضم ساعده إلى ساعد أخيه لتحصيل القوة، وله أنواع: من جهاد الأعداء ليكون الدين كله لله، وجهاد النفس بحملها على اتباع الأحكام وترك الحظوظ وأداء الحقوق وتكليف الخصلة المذمومة المفرطة خلاف مقتضاها والعمل بنقيض موجبها حتى اعتدلت وتناسقت قوة العلم والغضب والشهوة والعدل، وهو أشد من الأول، ولذا قال ﷺ : **«رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»** [١] ، لأن النفس كالملك في داخل الإنسان وعسكره: الروح الحيوانية والطبيعة والهوى والشهوة، وهي في نفسها عمياء لا تبصر المهالك، ولا تميز الخير من الشر إلى أن ينور الله بلطف حكمته بصيرتها فتبصر الأعداء والمعارف وتجد البنيان الإنساني مملوءاً من خنازير الحرص وأكالب الكلب، ونمر الغضب، وحرارة الفيح والشهوة الحمارية، وحية الشيطان، ونيران الحس، فكنسها من الرذائل وزينها بشعب الإيمان وسائر الفضائل.

---

(١) إسناده ضعيف: قال الحافظ العجلوني: قال العراقي: رواه البيهقي بسند ضعيف عن جابر، ورواه الخطيب في تاريخه عن جابر، وقال الحافظ ابن حجر في "تسديد القوس": هو مشهور على الألسنة، وهو من كلام إبراهيم ابن عيلة، انظر: كشف الخفاء للعجلوني (١/٥١١) ح(١٣٦٢).

وأما جهاد القلب: فبتصفيته وقطع تعلقه عن الأغيار، وجهاد الروح بإفناء الوجود في وجود الواحد القهار.

ولما أتم جوامع الإرشاد ومهد قواعد الاعتقاد جاء بفذلكة في ضمن كلام جامع له.

(**ثم قال: «ألا أخبرك بملاك**): بكسر الميم هو ما به إحكام الشيء وقوامه الذي يملك به.

(**ذلك**): المذكور وأكده بقوله: (**كله؟**): لئلا يظن خلاف الشمول، أي: بما تقوم به تلك العبادات.

(**قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ**): النبي ﷺ (**بلسانه**): لصعوبة أمره وكثرة مفاسده، والباء لتضمين معنى التعليق.

(**وقال: «كف عليك هذا»**): أي: احبس عليك لسانك فيما عليك، أو لك، فإن آفته عظيمة ولا نجاة منها إلا بالصمت، وصيغة الأمر للتحريم أو للتنزيه، وتقديم المجرور على المنصوب للاهتمام به وتعديته "بعلى" للتضمين أو بمعنى "عن" وإيراد اسم الإشارة لمزيد التعيين أو للتحقير.

(**قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك**): ظاهره الدعاء بالموت عليه، وليس هو بمراد، بل هذا مما جرت به عادة العرب للتحريض على التيقظ أو لاستعظام شيء بحسب مقتضى المقام.

(**وهل يكب الناس**): أي: يلقيهم (**في النار**): وهو عطف على مقدر، أي: هل تظن غير ما قلت، وهل يكب الناس في النار.

(**على وجوههم أو قال: على مناخرهم**): جمع المنخر ثقبة الأنف، والمراد: الأنف ولفظة "أو" ترديد من الراوي.

(**إلا حصائد**): جمع حصيدة، وهي ما يحصد من الزرع (**ألسنتهم»**): شبه ما يتلفظ به الإنسان بالزرع المحصود بالمنجل، وكما أنه يقطع ولا يميز بين الرطب واليابس، والجيد والرديء، فكذلك لسان بعض الناس، فيكون استعارة مصرحة، والجامع خلط النفيس مع الردي من غير تمييز والاستثناء مفرغ؛ لأن في الاستفهام معنى النفي، أي: ما يكب الناس في النار شيء من الأشياء إلا ما تتلفظ به ألسنتهم أي: من الكلام القبيح شرعًا، فهو عام مخصوص، والتركيب من باب قصر المفعول على الفاعل إفرادًا، والقصر ادعائي للمبالغة، إذ

العمل القبيح كذلك ، فالمراد أكثر ما يكب الناس وإسناد الكب إلى الحصائد وهو لله مجاز عقلي، أو استعارة مكنية.

ولعمرك إن هذه الخاتمة فاتحة للسعادة الكبرى، فائحة منها نسائم الكرامة العظمى؛ لأنه إذا نظر إلى الشريعة: فكف اللسان نعم العون على حفظها والحديث المرفوع: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالاً يرفع الله بها درجاته، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**» ، متفق عليه.

وفي شعب الإيمان مرفوعًا: «**مقام الرجل بالصمت أفضل من عبادة ستين سنة**».

وإذا نظر إلى الطريقة، فهو الركن المشار إليه، والقطب المدار عليه؛ لأنه إذا سكت اللسان نطق القلب ويحصل له المسامرة مع الرب، ويمطر عليه سحائب الرحمة بقطرات النور، ويمتلئ من الخيور والحبور.

وإذا نظر إلى الحقيقة: فهو انتهاء مراتب السالكين، وقصارى مقامات العارفين، ولذا قال سيد المرسلين ﷺ : «**من عرف الله كل لسانه**» ، أي: عن ذكر غير الله ، هو في مقام المراقبة، وكل لسانه عن الدعو، وهو في مقام الهيبة، وكلّ لسانه عن نشر حاله وبيان مقامه، وهو في مقام صولة المحبة، وعن وصف الله وثنائه، وهو مقام الحيرة في المعرفة، كما قال ﷺ في أقصى الدنو، لما رأى الحق بالحق، وفني عن الصفات في الذات، ووجد معنى من معاني البقاء: «**لا أحصي ثناء عليك**» ؛ لأن ثنائه يصدر عن الحدوثية، وثناء الخليقة لا يليق إلا بهم، ثم قطع لسان الثناء بمقراض التنزيه عجزًا في جلال الأبد، وأضاف ثنائه تعالى عليه لأنه لا يعرف الله إلا هو فقال: «**أنت كما أثنيت على نفسك**».

وفي معنى الحديث أنشد الشافعي رضي الله عنه:

احفظ لسانك أيها الإنســـان ... لا يلدغنك إنه ثعبـــــان

كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقائه الشجعان

(**رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح**).



الحديث الثلاثون

عن أبي ثعلبة الخشني جرثوم بن ناشر ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: « إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمةً لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها». (حديث حسن رواه الدارقطني وغيره) [(١)].



الكلام على الحديث الثلاثين

(**عن أبي ثعلبة الخشني جرثوم بن ناشر ﷺ**): خشن: بطن من قضاعة، كان ممن حضر بيعة الرضوان تحت الشجرة، مات سنة خمس وسبعين، ومروياته أربعون حديثًا.

(**عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى فرض فرائض**): أي: أوجب أحكامًا مقدرة مقطوعة كالإيمان والإسلام والصلاة والزكاة.

(**فلا تضيعوها**): بتركها وعدم المحافظة على شروطها وأدائها، والفرائض: جمع الفريضة، بمعنى المفروضة، والتاء للنقل من الوصفية إلا الإسمية، والفرض بمعنى القطع، والتقدير يقال: فرضت له من المال شيئًا إذا قطعت له، ولأنصباء المواريث فرائض لأنها مقدرة لأصحابها، وبمعنى العطاء، يقال: ما طلبت منه قرضًا ولا فرضًا، والقسمة يقال: فرض لفلان في الديوان أثبت رزقه فيه، قاله في الأساس.

وقال في الصحاح: الفرض : ما أوجبه الله، سمي بذلك لأن له معالم وحدودًا.

واصطلاحًا: هو ما يمدح فاعله شرعًا ويذم تاركه قصدًا مطلقًا، ويرادفه الواجب، هذا عند الشافعي.

---

(١) حسن : أخرجه الدارقطني (٤/١٨٤-١٨٥)ح(٤٢)، والحاكم في المستدرك (٤/١٢٩)ح(٧١١٤)، والبيهقي في الكبرى (١٠/١٢)، والطبراني في الكبير (٢٢/٢٢٢)ح(٥٨٩)، والأوسط (ح٨٩٣٨)، وصححه الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٧١)، وحسنه ابن رجب، انظر جامع العلوم والحكم (١/٢٧٥).

وعند أبي حنيفة: ما ثبت بدليل قطعي، والواجب بدليل ظني [(١)] .

وعند العارفين: هي المعرفة الإلهية التي هي مقصود الخلق، كما أشار إليه الحق بقوله: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ ، أي: ليعرفون، ولا تحصل المعرفة غالبًا إلا بالمجاهدة، وهي تزكية النفس عن ظلمة أخلاقها وتخليتها عن أوصاف الرذائل وتحليتها بأنوار الفضائل كالتوبة والتقوى والزهد والاستقامة وسائر الأخلاق الحميدة والارتقاء من حال إلى حال والتصاعد من مقام إلى آخر حتى تتجلى شمس صفات الجلال وتظهر طوالع أنوار الجمال ويستوي سلطان الحقيقة على ممالك الخليقة، ويطوى بأيدي سطوات الجود سرادقات الوجود، فما بقي الأرض ولا السماء، ولا الظلمة ولا الضياء، وتلاشي العبد في كعبة العندية، ونودي بفناء الفناء من معالم البقاء، رفعت القبلة وما بقي إلا الله، فأينما تولوا فثم وجه الله، وهذا حال السالك المجذوب أو المجذوب السالك، ومعنى الجذبة أنه يناجي المجذوب من أمر الملكوت ما يدهش عقله ويأخذه عن نفسه.

(وحد): أي: فصل وبين **(حدودًا)**: الحد لغة: المنع والتبيين والحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر[(٢)].

ومنه: حد الماهية، لما يبين المحدود ويمنع دخول غيره فيه.

وحد الزنا : لكونه مانعًا لمتعاطيه عن معاودة مثله ولغيره أن يسلك مسلكه.

وحد الدار لما يتميز به عن غيره.

وحد الشيء: منتهاه، هذا خلاصة ما في الصحاح والنهاية .

قال في الكشاف: حدود الله: أحكامه أو أوامره ونواهيه.

وقال في النهاية : هي محارمه التي قرنها بالذنوب[(٣)]؛ لأنها تفصل بين الحلال والحرام، فمنه ما لا يقرب منه كالفواحش، قال الله تعالى: **﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾** [البقرة: ١٨٧]، ومنه ما لا يتعدى، كالمواريث المعينة وتزويج الأربع، قال الله تعالى: **﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾** [البقرة: ٢٢٩].

---

(١) انظر هذه المسألة في : اللمع لأبي إسحاق الشيرازي (ص١٢-١٣)، إحكام الأحكام للآمدي (١/١٣٩-١٤١)، المستصفى لحجة الدين الغزالي (١/٦٦)، حاشية التلويح على التوضيح (٢/١٢٤)، المحصول لفخر الدين الرازي (١/١٩).

(٢) انظر لسان العرب (٣/١٤٠) (مادة/ حدد).

(٣) انظر النهاية في غريب الحديث (١/٣٥٢).

والتلخيص: أن حدود الله ما منع من مخالفتها بعد أن قدرها بمقادير مخصوصة وصفات مضبوطة، ومنه تعيين الركعات والأوقات وما وجب إخراجها في الزكاة وإثباتها في الحج، وحدود العقوبات وغير ذلك.

ولما كان العامل بها متصرفًا في حيز الحق فإذا تعداه وقع في حيز الباطل، فالمنهي هو التعدي، ولذا قال:

(**فلا تعتدوها**): أي: فلا تتجاوزوا عنها بتركها إلا أن الأحوط أن لا يقرب الحد الذي هو الحاجز بين حيزي الحق والباطل؛ لئلا يقع فيه، وسياق الحديث يقتضي تخصيصهما بحد الزنا والشرب والسرقة وغير ذلك، فينبغي أن لا تهمل لئلا تضيع حقوق الشرع.

قال في النهاية: العداء بالفتح والمد: الظلم ومجاوزة الحد، ومنه: المتعدي هذا.

وفي كلام بعض الصوفية: إن العبد ينقلب في جميع الأوقات على الحدود لكل عمل حد ولكل وقت حد، ولكل حال ومقام حد، فمن تخطاها فقد ضل سواء السبيل.

(**وحرم أشياء**): كالميتة والدم (**فلا تنتهكوها**): أي: لا تتناولوها ولا تقربوا منها.

قال في الصحاح: انتهاك الحرمة تناولها بما لا يحل، وهي عند الطائفة متابعة الشيطان والهوى والإقبال على الدنيا ، والإعراض عن العقبى، إذ يجب أن ينقطع المحب عن كل مطلوب وينقطع عما سوى المحبوب، ولذا قال من بالحق مصحوب:

بحق الهوى يا أهل ودي تفقهوا	لسان وجودي في الوجود عجيب
حرام على قلب تعرض للهوى	يكون لغير الله فيه نصيب

(**وسكت عن أشياء**): أي: لم يحكم فيها بوجوب أو حل أو حرمة.

(**رحمة لكم**) : مفعول له (**غير نسيان**) : هو ترك الفعل بلا قصد بعد حصول العلم بخلاف السهو (**فلا تبحثوا عنها**») : ولا تسألوا عن حالها ؛ لأن السؤال عما سكت الله عنه يفضي إلى التكاليف الشاقة ، بل يحكم بالبراءة الأصلية والحل في المنافع والحرمة في المضار.

والبحث لغة: التفتيش، واعلم أن الله تعالى تجليًا لعامة عباده بأفعاله وآياته المنبثة في أرضه وسمائه. ولخواص أصفيائه بصفاته العظمى ولأعظم أنبيائه بذاته وحقائق صفاته، وخصه بذلك دون غيره من عرفانه رحمة لهم غير نسيان، إذ ما قام عظيم عند عظمته إلا كل مذل، ولا استقام كبير دون كبريائه إلا هام وخام، كما قال جل جلاله: "لا يراني حي

إلا مات، ولا يابس إلا تدهده، ولا رطب إلا تفرق، وإنما يراني أهل الجنة في الجنة الذين لا تموت أعينهم، ولا تبلى أجسادهم".

فلذا قال: "فلا تبحثوا عنها"، أي: لا تتفكروا فيها، فإن الباب إلى وصول معرفة كنه الذات مردود، والطريق إلى تقدير كمية الصفات مسدود، تفكروا في آيات الله، ولا تتفكروا في ذات الله، ولذا قال بعضهم:

العجز عن درك الإدراك إدراك ... والبحث عن سر ذات الرب إشراك

(حديث حسن رواه الدارقطني وغيره).



الحديث الحادي والثلاثون

عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله دلّني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس». (حديث حسن، رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة)[١].



الكلام على الحديث الحادي والثلاثين

(عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي): الأنصاري، كان اسمه: حزنًا، فسماه النبي ﷺ : سهلاً، وهو آخر صحابي مات بالمدينة سنة إحدى وتسعين، وهو ابن مائة سنة.

(رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله): بإرادة الرحمة والثواب.

(وأحبني الناس): بإرادة النفع ، والجملة الشرطية صفة عمل.

(فقال: «ازهد في الدنيا): اعرض عنها ولا تبال بإقبالها وإدبارها ولا تتصرف فيها إلا بما يعينك على التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، وقد أنشد الإمام الشافعي رحمه الله تعالى حيث قال:

أيا نفس يكفيك طول الحـياة	إذا ما قنعت ورب الفلـق
رغيف بفوذنـج يـابـس	وماء روي ولبس خلـق
وحفش يكنك جدرانـه	فماذا العناء وماذا القلـق

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٢/١٣٧٣)، والطبراني في الكبير (٦/١٩٣)ح(٥٩٧٢)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/٣٧٣)ح(٦٤٣)، والبيهقي في الشعب الإيمان (٧/٣٤٤)ح(١٠٥٢٢)، وانظر مصباح الزجاجة (٤/٢١٠)، الترغيب والترهيب (٤/٧٤)، علل ابن أبي حاتم (٢/١٠٧)، العلل المتناهية (٢/٨٠٨).

والدنيا: عبارة عن أعيان موجودة، وهي الأرض وما عليها لأن المواليد الثلاثة للإنسان فيها حظ ولذة مالية أو جاهية وله في صلاحها شغل لحظه أو لحظ غيره، فتندرج فيه الصناعات.

والزهد: عبارة عن غروب النفس عن الدنيا مع القدرة عليها لأجل الآخرة، خوفًا من النار، أو طمعًا في الجنة أو ترفعًا عن الالتفات إلى ما سوى الحق، ولا يكون ذلك إلا بعد انشراح الصدر بنور اليقين، ولا يتصور ذلك ممن ليس له مال ولا جاه، وثمرته القناعة من الدنيا بقدر الضرورة، من زاد الطريق، وهو مطعم يدفع الجوع وملبس يستر العورة، ومسكن يصونه عن الحر والبرد، وأثاث يحتاج إليه، ذكره حجة الإسلام.

وفي المنازل ما حاصله: أن الزهد إسقاط الرغبة في الشيء عنه بالكلية، وهو على ثلاث مراتب: الزهد في الشبهة بالحذر عن معتبة الحق عليه، ثم الزهد فيما زاد على البلاغ من القوت باغتنام التفرغ إلى عمارة الوقت بالاشتغال بالمراقبة، ثم الزهد في الزهد باستحقار ما زهد فيه بالنسبة إلى عظمة الرب، واستواء الزهد وعدمه عنده والذهاب عن اكتساب أجر بتركها ناظرًا بعين الحقيقة إلى وحدانية الفاعل الحق فيشاهد تصرف الله في العطاء والمنع والأخذ والترك.

(**يحبك الله**): مجزوم على أنه جواب الأمر أو مرفوع على الاستئناف، وفيه إشارة إلى أنه من المقامات العلية؛ لأنه جعل سببًا لمحبته تعالى، وأن محبة الدنيا سبب لبغضه، والورع أعلى منه؛ لأنه يطهر القلب عن دنس التعلق بالحرام في الشريعة أو الطريقة أو الحقيقة.

(**وازهد فيما في أيدي الناس**): من الجاه والمال (**يحبك الناس**»): لارتفاع مواد الشحناء، وفي هذا المعنى أنشد بعض الأتقياء:

وما الزهد إلا في انقطاع علائــق ... وما الحق إلا في وجود الحقائــق

وما الحب إلا حب من كان قلبه ... عن الخلق مشغولاً برب الخلائق

(**حديث حسن رواه ابن ماجه**): أبو عبدالله محمد بن يزيد، وماجه: اسم أمه، كان من كبار مشاهير أئمة الحديث، مات يوم الإثنين لثمان بقين من رمضان سنة ثلاث وسبعين ومائتين.

(**وغيره بأسانيد حسنة**).

الحديث الثاني والثلاثون

عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا ضرر ولا ضرار». (حديث حسن رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما مسندًا، ورواه مالك في الموطأ مرسلاً عن عمرو بن يحيى عن أبيه عن النبي ﷺ فأسقط أبا سعيد، وله طرق يقوي بعضها بعضاً) [١].



---

(١) ضعيف من كل الطرق، وحسن لمن حسن بكثرة الطرق: قال الحافظ ابن رجب: حديث أبي سعيد لم يخرجه ابن ماجه، إنما خرجه الدراقطني (٣/٧٧)، (٤/٢٨٨)، والحاكم في مستدركه (٢/٥٧-٥٨)، والبيهقي في الجوهر النقي (٦/٦٩)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم، وقال البيهقي : تفرد به عثمان عن الدراوردي، وخرجه الإمام مالك في الموطأ مرسلاً (الأقضية ص٧٤٥)، قال ابن عبد البر: لم يختلف عن مالك في إرسال هذا الحديث. وفي إسناد الدارقطني والحاكم والبيهقي الدراوردي: ضعيف.

وقال خالد بن سعد الأندلسي : لم يصح حديث: "لا ضرر ولا ضرار" مسندًا.

ومن حديث عبادة بن الصامت: أخرجه ابن ماجه (ح٢٣٤٠)، قال الحافظ ابن رجب: وهذا من جملة صحيفة تروى بهذا الإسناد، وهي منقطعة مأخوذة من كتاب، قاله ابن المديني وأبو زرعة وغيرهما.

وإسحاق بن يحيى قيل: هو ابن طلحة، وهو ضعيف لم يسمع من عبادة . قاله أبو زرعة وابن أبي حاتم والدارقطني في موضع.

وقيل: إنه إسحاق بن يحيى بن الوليد بن عبادة، و لم يسمع أيضًا من عبادة، قاله الدراقطني، وذكره ابن عدي في كتابه الضعفاء، وقال: عامة أحاديثه غير محفوظة.

وأما حديث ابن عباس فأخرجه ابن ماجه (ح٢٣٤١)، وفيه جابر الجعفي: ضعيف.

وأما حديث أمّنا السيدة عائشة رضي الله عنها، فأخرجه الدارقطني (٤/٢٢٧)، وفيه الواقدي، وهو متروك.

وأما حديث جابر بن عبد الله فأخرجه الطبراني في الأوسط وقال الحافظ : هذا إسناد مقارب، وهو غريب، وقال : الأصح أنه مرسل.

وأما حديث أبي هريرة، فأخرجه الدارقطني (٤/٢٢٨)، وفيه: ابن عطاء، هو يعقوب، وهو ضعيف.

وأما حديث عمرو بن عوف المازني: ففيه: كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، وقال ابن عبد البر وقد أخرجه: إسناده غير صحيح، قال الحافظ ابن رجب: قلت: كثير هذا يصحح حديثه الترمذي، ويقول البخاري في بعض حديثه: هو أصح حديث في الباب، وحسن حديثه إبراهيم بن المنذر الحزامي، وقال: هو خير من مراسيل ابن المسيب، وكذلك حسنه ابن أبي عاصم، وترك حديثه آخرون منهم الإمام أحمد وغيره.

قال الحافظ ابن رجب: وقد ذكر الشيخ النووي رحمه الله أن بعض طرقه يقوى ببعض، قال: وهو كما قال، وانظر القاعدة الذهبية.

الكلام على الحديث الثاني والثلاثين

(عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخزرجي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا ضرر ولا ضرار»): بالبناء على الفتح فيهما رواية والدراية تقتضي خمسة أوجه، كما في "لا حول ولا قوة إلا بالله" .

قال في النهاية: الضرر: ضد النفع، يقال: ضره يضره ضرًا وضرارًا [1] ، أي: لا يضر الرجل أخاه فينقص شيئًا من حقه، والضرار فعال منه، أي: لا يجازيه على إضراره بإدخال الضرر عليه، والضرر فعل الواحد، والضرار فعل الاثنين، والضرر ابتداء الفعل، والضرار: الجزاء عليه، وقيل: الضرر ما تضر به صاحبك وتنتفع به، والضرار: أن تضره من غير أن تنتفع به، وقيل: هما بمعنى، والتكرير للتأكيد، تم كلامه.

فإن قلت: ظاهر الحديث يقتضي: أن ولي الدم مندوب إلى ترك القصاص، كما صرح به العلماء امتثالاً لقوله تعالى ﴿**والعافين عن الناس**﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وهو ينافي قوله: ﴿**كتب عليكم القصاص**﴾ [البقرة: ١٧٨]، إذ معناه: فرض وأوجب، ولفظة "على" تدل عليه أيضًا؟

قلت: إنما يلزم ذلك أن لو كان الخطاب لولي الدم لكن قد نص بعض المحققين أن ذلك إما للإمام لأنه متى حصلت شرائط وجوب القود فلا يحل له تركه، فالمعنى يا أيها الأئمة كتب عليكم استيفاء القصاص، أو للقائل؛ لأنه وجب عليه تسليم النفس عند المطالبة، على أن في شرعية القصاص نفعًا عظيمًا للقاتل بالارتداع وللمقتول، فيبنغي للمؤمن أن يعاشر الخلائق بأجمل الخلائق، ويسلك في مصاحبتهم أحسن الطرائق، وإذا اعتدى عليه أحد لا يكافيه، وإن أساء مسيء فلا يقابله ولا يساويه، بل يتشبث بأزيال الكظم والإغماض ويعتصم بحبل الله في العفو والإعراض، حتى يستعبد القلوب بإحسانه، ويستميل النفوس إلى امتنانه، ويكتسب المحبة في الله المحمودة في الشرائع التي هي من أفضل القرب والذرائع الباعثة للاجتماع في الجوامع لاستنزال الرحمة الإلهية، والبركات الشوائع، ولذا نقل في العوارف: أن ارتفاع الأصوات في بيوت العبادات بحسن النيات وصفاء الطويات تحل ما عقدته الأفلاك الدائرات، وأنشد بعض ذوي المعارف فقال:

---

(١) انظر النهاية في غريب الحديث (٣/٨١).

إن كنت تطمع رتبة الأشراف فعليك بالإحسان والإنصاف
وإذا اعتدى خل عليك فخله والدهر فهو له مكاف كاف

(**حديث حسن رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما مسندًا**): هو ما اتصل إسناده سواء كان مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ أو موقوفًا عليه.

(**ورواه مالك**): بن أنس الأصبحي أستاذ الأئمة، ولد سنة ثلاث وتسعين، وحمل به في البطن ثلاث سنين، ومات بالمدينة سنة تسع وسبعين ومائة، وله أربع وثمانون أو تسعون سنة.

(**في الموطأ عن عمرو بن يحيى عن أبيه عن النبي ﷺ مرسلاً**): وهو أن يقول عدل غير صحابي: قال رسول الله ﷺ كذا أو فعل كذا .

واختلف فيه، فقيل: يحتج به مطلقًا، ورد مطلقًا.

وقال الشافعي: يقبل إن أسنده غيره، أو وصله آخر وعلم أن شيوخهما مختلفة، أو أن يعضده قول صحابي أو أن يعلم أنه لا يرسل إلا بروايات عن عدل.

وقيل: إن كان الراوي من أئمة نقل الحديث قبل وإلا فلا، وهذا هو المختار، كذا في شرح المختصر[١] .

(**فأسقط**): أي: مالك (**أبا سعيد، وله طرق يقوي بعضها بعضًا**).



(١) يقصد مختصر المنتهى لابن الحاجب، وهو قيد الطبع بتحقيقنا، وانظر هذه المسألة في : المستصفى للغزالي (١/ ١٦٩- ١٧١)، المحصول لفخر الدين الرازي (٢/٢٤٤-٢٥١)، نهاية السول للأسنوي (٣/١٩٧-٢٠٤)، فواتح الرحموت شرح سلم الثبوت (٢/١٧٤-١٧٧).

الحديث الثالث والثلاثون

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعطى الناس بدعواهم، لادعى رجال أموال قوم ودماءهم، لكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر». (حديث حسن رواه البيهقي وغيره هكذا، وبعضه في الصحيحين).



الكلام على الحديث الثالث والثلاثين

(عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «لو يُعطى الناس): أموال الناس ودمائهم، والمفعول الثاني محذوف.

(بدعواهم): أي: بمجرد الادعاء من غير تصديق المدعى عليه، أو بينة المدعي.

(لادعى رجال أموال قوم ودمائهم): فيفضي إلى الهرج والمرج، فلفظة "لو" للدلالة على أن انتفاء الثاني في الخارج بسبب انتفاء الأول، وقد يستعمل للدلالة على أن انتفاء الجزاء لازم الوجود في جميع الأزمنة، إذا كان الشرط مما يستبعد استلزامه للجزاء، ويكون نقيضه أنسب بالاستلزام نحو : "نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه"، هذا عند أهل العربية، وقد تستعمل في الميزان للدلالة على أن العلم بانتفاء الثاني علة العلم بانتفاء الأول من غير التفات إلى أن علة انتفائه في الخارج ما هي نحو ﴿**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**﴾ ، والقوم: الرجال خاصة؛ لأنهم القوام بأمر النساء، كقوله: "أقوم آل حصن أم النساء"، وهو في الأصل جمع قائم، كزور أو تسميته بالمصدر، كذا في الكشاف.

وإنما أورد صيغة الجمع إعلامًا بأقوام غير واحد من رجالهم على التداعي ونكرها لقصد الإشاعة.

(ولكن البينة): فعيلة من البينونة أو البيان، وهي ما تثبت به الدعوى باعتبار إفادته للبيان وباعتبار أنه يغلب به على الخصم، سمي : "حجة".

(على المدعي): وهو المكلف الملتزم للأحكام الذي يذكر أمرًا خفيًا يخالف قوله الظاهر، ولذا جعل البينة عليه لأنها أقوى من اليمين التي جعلت على المنكر لينجبر ضعف جهته، فإن كان ما يدعي عقوبة سواء كان حق الله أو حق الآدمي، فلابد من رجلين أو أربعة رجال في الزنى، وإن كان من غيرها فما ليس بمال ولا يقصد به ذلك، فإن كان مما يطلع عليه الرجال غالبًا، كالنكاح والإسلام والردة، لا يثبت إلا برجلين، وإن كان مما يختص بمعرفة النساء غالبًا، كالولادة والبكارة والرضاع، فيثبت بأربع نسوة وبرجلين، أو رجل وامرأتين، وأما ما هو مال أو يقصد به كالعقود المالية من البيع والإجارة والحوالة، تثبت برجلين ورجل وامرأتين، وجوز الشافعي القضاء بالشاهد واليمين وأنكره أبو حنيفة.

هذا وقد كتب الله مبايعة جرت بينه وبين عباده في الميثاق ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**﴾ إلى قوله: ﴿**فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به**﴾ ، واستشهد الملائكة الكرام ﴿**وإن عليكم لحافظين كرامًا كاتبين**﴾.

(واليمين على من أنكر): وهو المدعى عليه، يعني من يوافق قوله الظاهر بأن يذكر أمرًا جليًا إلا في القسامة، فإنه يحلف المدعي خمسين يمينًا ويذكر فيها المدعى عليه، وهي عبارة عن الأيمان التي تقع الابتداء فيها بالمدعي إذا قتل معصوم في محل اللوث وهو قرينة يغلب على الظن صدق المدعي.

قال في شرح مسلم: هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الدين، ودلالة على مذهب الشافعي، حيث قال: اليمين متوجهة على المدعى عليه سواء كان بينه وبين المدعي معرفة ومداينة أم لا، خلافًا لمالك وأصحابه، والفقهاء السبعة.

وفيه إشارة إلى أن كل دعوى لابد أن يكون لها معنى، وكل حال أو مقام لا يقبل إلا باتباع الشرع الأعلى، فمن أراد أن يسلك بقدم العقل القاصر والفهم الفاتر بساط سرادقات العرفان أو يرتقي من حضيض النقصان إلى ذروة الإيقان بدون اتباع حضرة الرسول، فهو شيطان مردود مخذول.

لقد طفت في تلك المعالم كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعـالم
فلم أر إلا واضعًا كف حـائرٍ ... على ذقن أو قارعًا من فهم نادم

(حديث حسن رواه البيهقي): هو أبو بكر أحمد بن الحسين الإمام الناقد الكامل، ولد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، ومات بنيسابور سنة ثمان وخمسين وأربعمائة.

(وغيره هكذا وبعضه في الصحيحين): هكذا : «**لو يعطى الناس بدعواهم لادعى ناس دماء رجال وأموالهم، ولكن اليمين على المدعى عليه**».

الحديث الرابع والثلاثون

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». (رواه مسلم).



الكلام على الحديث الرابع والثلاثين

(**عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرًا**): أي: ما أنكره الشرع ولا يرتضيه.

(**فليغيره بيده**): أي: بأن يمنعه بالفعل بأن يكسر الآلات ويريق المسكر ويرد المغصوب إلى مالكه.

(**فإن لم يستطع**): التغيير باليد (**فبلسانه**): أي: فليغيره بلسانه بأن يمنعه بالقول وتلاوة ما أنزل الله من الوعيد.

(**فإن لم يستطع**): التغيير باللسان (**فبقلبه**): بأن لا يرضى به وينكر على متعاطيه.

(**وذلك**): أي: الإنكار بالقلب (**أضعف**): خصال (**الإيمان**): أي: أقلها ثمرة، فمن غير المراتب مع القدرة كان عاصيًا، ومن تركها بلا قدرة أو يرى المفسدة أكثر ويكون منكرًا بقلبه فهو من المؤمنين، ولا يثير فتنة نائمة.

قال في شرح مسلم: الأمر ههنا للوجوب، أراد به: أنه إذا كان المنكر حرامًا وجب الزجر عنه، إذ لو كان مكروهًا لم يجب، بل يندب، ثم الوجوب على الكفاية إذا لم يتعين شخص، فإذا قام واحد سقط عن الآخرين لحصول الغرض به، وإذا ظن طائفة أنه لم يقم به الآخر أثم الكل.

والأمر بالمعروف أيضًا تبع لما يؤمر به، فإن وجب فواجب، وإن ندب فمندوب، و لم يتعرض له في الحديث؛ لأن النهي عن المنكر شامل له إذ النهي عن الشيء أمر بضده، وضد

المنهي إما واجب أو مندوب أو مباح، والكل معروف، وشرطهما أن لا يؤدي إلى الفتنة، كما علم من الحديث وأن يظن قبوله، فإن ظن أنه لا يقبل فيستحسن إظهارًا لشعار الإسلام، ولفظة: "من" لعمومه، يشمل كل أحد رجلاً أو امرأة، عبدًا أو فاسقًا، أو صبيًا مميزًا إذا كان عالمًا بما يؤمر وينهى عنه، ولا يكون مما اختلف فيه، ولا يختص ذلك بأرباب الولايات، كذا في الروضة ولا يسقط ذلك عن الفاسق، إذ الواجب عليه أمران، فبترك أحدهما لا يسقط عنه الآخر، لكنه قبيح جدًا، كما قال بعض المحققين في المعنى.

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي الناس وهو مريض

اعمل أن المنكر إما أن يتعلق بحقوق الله ويؤمر به الجميع بالجمع، كإقامة الجمعة أو الإفراد أو بحقوق الناس عامًا كالأمر بإعادة شرب البلد المنقطع ماؤه، أو خاصًا كمنع الموسر المطل أو بالحقوق المشتركة، كمنع المفتي والمدرس إذا لم يصلح له.

وفي الإحياء ما حاصله: إنه لابد للمحتسب أن يكون مسلمًا مكلفًا قادرًا عالمًا بما يباشره ، وآدابه : العلم والورع وحسن الخلق والمداراة، ولما فيه الحسبة: أن يكون منكرًا مقطوعًا به، ظاهرًا بلا تجسس، وموجودًا في الحال، وللمحتسب عليه أن يكون مكلفًا أولاً، وللحسبة مراتب من :

الابتداء بالتعريف على وجه لا يؤدي إلى النسبة إلى التجهيل.

ثم الوعظ والنصح.

ثم السب والتعنيف على قدر الحاجة.

ثم التغيير باليد.

ثم التهديد.

ثم الضرب بقدر الحاجة.

وإن احتاج إلى شهر السلاح فله.

ثم الاستمداد بالغير.

(رواه مسلم).



الحديث الخامس والثلاثون

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يكذبه ولا يحقره، التقوى ههنا -ويشير إلى صدره ثلاث مرات- بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه». (رواه مسلم)[1].



الكلام على الحديث الخامس والثلاثين

(**عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : لا تحاسدوا**): أصله: لا تتحاسدوا، فحذف إحدى التائين.

والحسد: انبعاث قوة الشهوة إلى محبة زوال نعمة الغير وإن لم تحصل له.

والغبطة والمنافسة: طلب حصول الخير له مع عدم الزوال عن الغير، وهي قد تكون واجبة إذا كانت دينية، كالإيمان، ومندوبة كتشهي العلم، ومباحة.

والحسد مذموم شرعًا وعقلاً «**الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»[2]، وله مراتب:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٨٦/٤)ح(٢٥٦٤).

(٢) إسناده ضعيف: من حديث أبي هريرة مرفوعًا، أخرجه أبو داود (٢٧٦/٤)ح(٤٩٠٣)، وعبد بن حميد في مسنده (٤١٨/١)ح(١٤٣٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٦٦/٥)ح(٦٦٠٨)، كلهم من طريق إبراهيم بن أبي أسيد عن جده عن أبي هريرة مرفوعًا به، وقال الحافظ ابن حجر: إبراهيم بن أبي أسيد روى عن جده و لم يسمه، انظر تهذيب التهذيب (٩٨/١)-(١٦٤)، ومن حديث أنس مرفوعًا : أخرجه ابن ماجه (١٤٠٨/٢) ح(٤٢١٠)، وأبو يعلى في مسنده (٣٣٠/٦)ح(٣٦٥٦)، وإسناده ضعيف جدًا فيه: عيسى بن أبي عيسى الحناط، قال عنه الحافظ ابن حجر: متروك، انظر التقريب (٥٣٠٨)، ومن حديث ابن عمر مرفوعًا: أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٣٦/٢)ح(١٠٤٨)، من طريق عمر بن محمد بن حفصة، ثنا محمد بن معاذ بن=

الأولى: أن يحب زوال النعمة وإن لم تحصل له أو زوالها عنه إليه أو لا يشتهي زوالها، بل يشتهي لنفسه مثلها، فإن عجز عنه أحب زوالها كي لا يظهر التفاوت بينهما، أو لا يحب، وهذا هو المعفو عنه إن كان في الدنيا، والمندوب إليه إن كان في الدين، والثالثة منها مذموم وغير مذموم، والثانية أخف، والأولى أخبث، ومنشؤه العداوة، فإن من أذاه إنسان غضب عليه وتولد منه الحقد المقتضي للانتقام، فإن عجز عنه أحب أن يتشفى منه الزمان والتعزز وحب الرياسة، وفوت المقاصد والشح بالخير على عباد الله.

وعلاجه: أن يعلم أن الكل بتقدير الله وأن يتذكر مضاره من سخط الله له، والهم اللازم وأنه لا يضر المحسود بل ينفعه ويضر لنفسه، ويأتي بالأحوال المضادة لمقتضيات الحسد بأن يمدحه ويتواضع له ويقطع أسباب العداوة، حتى يصير المحسود محبوبًا محبًا له **﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾** [فصلت: ٣٤]، وأنشد بعض الفضلاء في ذلك فقال:

إذا ما شئت أن تحيا حياة حلوة المحيا ... فلا تحسد ولا تبخل ولا تحرص على الدنيا

(ولا تناجشوا): من النجش، وهو إثارة الصيد، والمراد إثارة بعضهم بعضًا بالفتنة، أو رفع ثمن العروض على البيع، وهو غير راغب فيه ليخدع غيره.

(ولا تباغضوا): أي: لا تشتغلوا بأسباب العداوة إذ العداوة والبغضاء مما لا اختيار فيه. وقيل: لا توقعوا العداوة والبغضاء بين المسلمين فيكون نهيًا عن النميمة، لما فيه من تأسيس الفساد، وهذا إذا لم يكن فيه مصلحة، فإذا دعت كما إذا أخبر أن إنسانًا يريد الفتك به أو بأهله وماله فلا منع، بل قد يكون واجبًا، ولا يكون التباغض لله وفي الله وإلا فهو من أفضل الأعمال والبغض من نفار النفس عما ترغب عنه وأوله الكراهة وأوسطه النفرة وآخره العداوة، كما أن الحب من انجذاب النفس إلى ما ترغب فيه، ومبدأه الميل ثم الإرادة ثم المودة، وهما من غرائز الطبع.

(ولا تدابروا): أي: لا تقاطعوا لأنه إذا فعلوا ذلك أعرض كل عن صاحبه وولى دبره. قال في الصحاح: تدابر القوم: تقاطعوا [1]، قال الخطابي: هذا إذا كان بعتاب أو جفاء وما أشبه ذلك من باب الأخلاق، وأما إذا كان لمعصية فيجوز، أو لا تولوا أدباركم

= المستهل عن مالك عن نافع عن ابن عمر مرفوعًا به. قال الحافظ الذهبي بعدما ذكر الحديث وعزاه بإسناده للقضاعي في مسند الشهاب: وهذا بهذا الإسناد باطل، انظر الميزان (٥/٢٦٨)-(٦٢١٧/٦١٩١).

(١) انظر مختار الصحاح (١/٨٣)- (د ب ر).

استثقالاً، بل ابسطوا وجوهكم، والتباغض لا يستلزم التدابر؛ لأن المتعاديين قد لا يفترقان ويترافقان، والتدابر لا يستلزم التباغض لأن المتدابرين لمصلحة قد يتحابان.

(ولا يبع بعضكم على بيع بعض): بأن يدعو المشتري قبل لزوم البيع إلى الفسخ ويبيع منه مثله.

(وكونوا عباد الله إخوانًا): خبر كان و"عباد الله" منصوب على الاختصاص، أو خبر بعد خبر، يعني: أنتم مستوون في كونكم عبيد الله وملتكم واحدة، فالتحاسد والتباغض والتقاطع منافية لحالكم، فالواجب أن تعاملوا معاملة الإخوة والمعاشرة في المودة والتعاطف والتلطف والمعاونة على البر والنصيحة بكل حال، والأخ النسبي يجمع على الأخوة، قال الله تعالى: ﴿**فإن كان له إخوة**﴾، والمجازي على الإخوان، قال الله تعالى: ﴿**إخوانًا على سرر متقابلين**﴾[الحجر:٤٧]، وأما قوله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾ [الحجرات: ١٠]، فللمبالغة.

(المسلم أخو المسلم): استئناف **(لا يظلمه)**: استئناف آخر بيان للموجب. أو لوجه الشبه، فإن الظالِم:

أولاً : ينحط عن رتبة النبوة ﴿**لا ينال عهدي الظالمين**﴾ [البقرة: ١٢٤].

وثانيًا: عن درجة الولاية ﴿**ألا لعنة الله على الظالمين**﴾ [هود:١٨].

وثالثًا: عن مزية مرتبة السلطنة: «**بيت الظالم خراب ولو بعد حين**» .

ورابعًا: عن نظر الخلائق: «**جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها**» .

وخامسًا: عن حظ نفسه؛ ﴿**وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ [البقرة: ٥٧].

قال:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا	فالظلم آخر يأتيك بالنـــدم
نامت عيونك والمظلوم منتبـــه	يدعو عليك وعين الله لم تنم

(ولا يخذله): أي: لا يترك إعانته إذا ظلمه أحد كما ورد مرفوعًا: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، الظالم يدفعه عن الظلم، والمظلوم يدفعه عنه**» .

(ولا يحقره): بذكر المعايب وتنابز الألقاب والسخرية والاستهزاء إذا رآه رث الحال أو ذا عاهة في بدنه أو غير لائق في محادثته فلعله أخلص ضميرًا وأتقى قلبًا ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى.

قال ابن مسعود: "البلاء موكل بالنطق لو سخرت من كلب خشيت أن أجعل كلبًا".

(التقوى ههنا»): أي: محل التقوى هو القلب، فمن كان في قلبه التقوى فلا يوجد منه الظلم والتحقير.

(ويشير): أي النبي ﷺ **(إلى صدره ثلاث مرات)**: للاهتمام بشأنه وليعلم أن مستقره القلب. والعدول إلى المضارع لاستحضار تلك الحالة في مشاهدة السامع.

قال بعض العارفين: معناه : أن حقيقة التقوى في صدري وفروعها في قلوب جميع الخلق؛ لأنه محل عين الجمع ومرآة كشوف الغيب، كما قال: «**أنا أعلمكم بالله وأخوفكم منه**» [(١)] ، بيد أن من زادت معرفته زادت خشيته وتقواه، وليس في الكونين أعرف منه، وقد ورد أنه قال: «**لكل شيء معدن ومعدن التقوى قلوب العارفين**» [(٢)] ، لأن العارف غائب في عظمة الله تعالى، تائق إلى لقائه، هائم في محبته، تجري عيون التقوى من بحار معرفته من روحه إلى قلبه، ومن قلبه إلى صورته، وسره: معدن التوحيد؛ لأن الحق تجلى فيه بنعت القدم. وروحه: معدن المعرفة؛ لأن الحق تجلى بوصف البقاء فيها، وقلبه: معدن الخشية؛ لأنه تجلى فيه بوصف الكبرياء والعظمة، فالتوحيد من عين القدم، والمعرفة من عين البقاء، والتقوى من عين الكبرياء.

(«بحسب امرئ من الشر): أي: كافيه من خلال الشر ورذائل الأخلاق، وهو مبتدأ خبره.

(أن يحقر أخاه المسلم): ويستوي فيه الواحد والتثنية والجمع والمذكر والمؤنث؛ لأنه مصدر.

---

(١) عن أمّنا السيدة عائشة رضي الله عنها مرفوعًا بلفظ : "إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا"، أخرجه البخاري (١/ ١٦)ح(٢٠).

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٥٩/٤) ، وفيه مجهول ح (٤٦٥١) ، والطبراني في الكبير (٣٠٣/١٢)ح(١٣١٨٥)، وقال الحافظ الهيثمي: وفيه محمد بن رجاء وهو ضعيف، انظر مجمع الزوائد (١٠/ ٣٦٨)، وعده الزرعي من الكذب، انظر نقد المنقول (٦٠/١)ح(٨٢)، وكذلك أبو عبد الله الحنبلي في المنار المنيف (٦٦/١).

قال النحاة: إذا كان ما بعده معرفته فرفعه على الخبرية والإضافة لفظية، أو على الابتداء، وإن كان نكرة فرفعه على الابتداء فقط والإضافة معنوية ألبتة.

ولما كان لهذا منشأ سؤال وهو أن يقال: حكم التحقير ماذا، أحرام أم لا؟ فقال:

(**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**)): وهذا المقصد الأعلى من الحديث وما سبق كالتمهيد له، فيجب على كل مسلم أن لا يقع في عرض أخيه بالغيبة والطعن والقذف والشتم والغمز والتجسس عن عوراته وإفشاء أسراره ، فإن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته فيفضحه ولو في جوف بيته، ولا يماريه ويرى الفضل لكل أحد على نفسه، أما الصغير فلأنه لم يعص الله وهو قد عصى؛ والكبير فلأنه أكثر عبادة.

والعالم لعلمه، والجاهل؛ لأنه عصى الله بجهله، وهو قد عصى بعلمه، فحجة الله عليه أوكد، والكافر؛ فلأن حسن العاقبة غير معلومة.

والمراد بالعرض: ما يجب أو يستحب حمايته، لا العصبية والحمية الجاهلية التي اعتادها كثير من الناس، فيصرفون الأموال لطلب الجاه والمترلة قلوب الخلق، إذ هو من الهوى المتبع المهلك لكثير من الناس، فما أهلك الناس إلا الناس، ولو أنصفوا لعلموا أن أكثر ما هم فيه من العلوم والعبادات فضلاً عن العادات ما يحملهم عليها إلا مراعاة الناس.

قال يحيى بن معاذ: الرياسة ميادين إبليس، يترل فيه هو وجنوده.

(**رواه مسلم**).



الحديث السادس والثلاثون

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من نفّس عن مؤمن كربةً من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه». (رواه مسلم بهذا اللفظ) [(١)].



الكلام على الحديث السادس والثلاثين

(**عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «من نفس عن مؤمن**): أي: فرج عنه، من التنفيس وهو التفريج، مأخوذ من قولهم: أنت في نفس، أي: سعة، كأن من كان في كربة سد عنه مداخل الأنفاس، فإذا فرج عنه فتحت.

(**كربة**): فعلة: من الكرب، وهي الخصلة التي يحزن بها. والتنوين للإفراد والتحقير، أي: همًا واحدًا من همومه، أي هم كان صغيره وكبيره، عرضه وعرضه عدده وعدده:

(**من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة**): التي لا تحصى؛ لأن الخلق كلهم عيال الله وتنفيس الكرب إحسان لهم وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، وليس هذا منافيًا لما ثبت من أن جزاء الحسنة بعشر أمثالها، لما ورد من أنها تجازى بمثلها وضعفها إلى عشرة إلى مائة إلى غير حساب، على أن كربة من كرب يوم القيامة تساوي عشرًا وأكثر من كرب الدنيا، ويدل عليه تنوين التعظيم وتخصيص يوم القيامة دون يوم آخر.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤/٢٠٧٤)ح(٢٦٩٩).

(**ومن يسر على معسر**): وهو من كربة الدين وعسر عليه قضاؤه إما بالإنظار أو بالإبراء كلاً أو بعضًا.

(**يسر الله عليه في الدنيا والآخرة**): فيه فضيلة التيسير وأنه يجازى بجنسه ولا يخفى أن المعسر صاحب الكربة هو المريد المحتاج إلى قطع العقبات والمنازل الظلمانية والنورانية كما اشتهر عن الكناني: أن بين العبد والحق ألف مقام من نور وظلمة، ويتلقاه الوساوس والهواجس، فعلى شيخه أن ينفس كربة الوساوس عنه بأمره بترك المبالاة بها، والتأمل في الحجج العقلية إن استأهله واستدامة الذكر والابتهال ويسهل عليه سواء الطريق، ويذيقه حلاوة التحقيق، حتى يسطع في قلبه أنوار حلاوة القبول ويطلع في سره شمول الوصول.

(**ومن ستر مسلمًا**): أي: ستر بدنه بالإلباس أو عيوبه بعدم الغيبة له والذب عن معايبه، وهذا على من ليس معروفًا بالفساد، وأما المعروف به فيستحب أن يرفع قضيته إلى الوالي، ولو رآه في معصية فينكرها بحسب القدرة، وإن عجز يرفعها إلى الحاكم إذا لم يترتب عليه مفسدة، كما في شرح مسلم.

(**ستره الله**): تعالى (**في الدنيا والآخرة**): وفيه إشارة لمن وقف على شيء من مقامات أهل العرفان وكرامات ذوي الإيقان أن يحفظ سره ويكتم عن غيره أمره، فإن كشف الأسرار على الأغيار يسد أبواب العناية ويوجب الحرمان والغواية، ولذا قال:

من أطلعوه على سر فباح به ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا

(**والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**): إشارة إلى فضيلة عون الأخ على أموره والمكافأة عليها بجنسها من العناية الإلهية، سواء كان بقلبه أو بدنه أو بهما لدفع المضار أو جذب المنافع، إذ الكل عون.

ولما فرغ من الحث على الشفقة على خلق الله أتبعه بما ينبئ عن التعظيم لأمر الله؛ لأن العلم وسيلة إلى العمل فقال:

(**ومن سلك طريقًا**): التنوين فيه للشيوع إذ النكرة في الإثبات قد تفيد العموم، أي: تعلق بسبب أي سبب كان من التعليم والتعلم والتصنيف ومفارقة الوطن والإنفاق فيه.

(**يلتمس فيه علمًا**): شرعيًا أيًا ما كان، بنية القربة والنفع والانتفاع.

(**سهل الله له به**): أي: بسبب ذلك السلوك أو الالتماس أو العلم .

(**طريقًا إلى الجنة**): مع قطع العقبات الشاقة دونها يوم القيامة.

والعلم: نور في قلب المؤمن مقتبس من مصباح الكلمات المحمدية والأفعال والأحوال الأحمدية يهتدي به إلى الله وصفاته وأفعاله وأحكامه، فإن حصل بواسطة بشر فهو الكسبي وإلا فهو العلم اللدني المنقسم إلى الوحي والإلهام والفراسة.

فالوحي لغة: إشارة بسرعة. واصطلاحًا: كلام إلهي يصل إلى القلب النبوي، فما أنزل صورته ومعناه معًا ولا يكون إلا بواسطة جبريل فهو الكلام الإلهي، وما أنزل معناه على الشارع فعبر عنه بكلامه فهو الحديث النبوي، وهذا قد يكون بغير واسطة في محل الشهود، كما قال تعالى: ﴿**فأوحى إلى عبده ما أوحى**﴾ [النجم: ١٠]، وقد يكون بواسطة نزول الملك، أي: تنزله من الصورة الملكية إلى الهيئة البشرية، وتحقيقه: أن المتكلم الحقيقي هو الحق، فكلم أولاً محمدًا عليه السلام بواسطة جبريل، وثانيًا أصحابه بواسطة محمد عليه الصلاة والسلام، وثالثًا التابعين بواسطة الصحابة، وهلم جرًا. وقد يكون بنفثه في قلبه بأن يلقي معناه من غير أن يتمثل بصورة: «**إن روح القدس نفث في روعي**».

والإلهام لغة: الإبلاغ وهو علم حق يقذفه الله من الغيب في قلوب عباده: ﴿**قل إن ربي يقذف بالحق**﴾ [سبأ: ٤٨].

والفراسة: علم ينكشف من الغيب بسبب تفرس آثار الصور والإلهام كشفها: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**».

والفرق بين الإلهام والفراسة: أنها كشف الأمور الغيبية بواسطة تفرس آثار الصور، والإلهام كشفها بلا واسطة.

والفرق بين الإلهام والوحي: أنه تابع للوحي من غير عكس.

ثم علم اليقين: ما كان من طريق النظر والاستدلال، وعين اليقين: ما كان بطريق الكشوف والنوال. وحق اليقين: ما كان بتحقيق الانفصال عن لوث الصلصال، لورود رائد الوصال.

(**وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى**): مسجدًا أو مدرسة أو رباطًا، ولهذا لم يقل: من المساجد.

(**يتلون كتاب الله تعالى**): جملة حالية وليس المراد بالتلاوة إجراء الألفاظ على اللسان فقط، بل لابد أن يقدر العبد أنه يقرأ على الله تعالى واقفًا بين يديه وهو ناظر إليه بل يشهد بقلبه، كأن ربه يخاطبه، بل يستغرق بمشاهدة المتكلم غير ملتفت إلى غيره سامعًا منه، كما

قال الإمام الصادق كرم الله وجهه، وقد سئل عن حالة لحقته في الصلاة حتى خر مغشيًا عليه، فلما سري عنه قال: ما زلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته، ثم يتفكر فيما يتعلق بذات الله وصفاته وأفعاله ويقتبس معرفة الجلال والعظمة، وفيما يتعلق بإهلاك الأعداء ويقتبس معرفة العلم والاستغناء والقهر، وفيما يتعلق بأحوال الأنبياء ويقتبس معرفة اللطف والفضل، وفي الآيات الدالة على التكاليف والإرشاد، ويقتبس معرفة العطف والحلم ويعمل بمقتضاها.

(**ويتدارسونه بينهم**): شامل لجميع ما يناط بالقرآن من التعليم والتعلم.

(**إلا نزلت عليهم السكينة**): أي: ما يسكن إليه القلب من الطمأنينة والوقار وصفاء القلب ونزول الأنوار وذهاب الظلمة النفسانية، وقيل: ريح هفافة لها رأس كرأس الهرة، أو جمع من الملائكة.

(**وغشيتهم الرحمة**): غطتهم وعلتهم.

(**وحفتهم الملائكة**): أحدقتهم وطافت بهم إلى سماء الدنيا ليسمعوا القرآن ويحفظوهم من الآفات ويصافحوهم ويؤمنوا على دعائهم.

(**وذكرهم الله فيمن عنده**): من الملأ الأعلى والطبقة الأولى من الكروبيين والروحانيين، مباهاة بهم، والمراد عندية الشرف لا المكان، شبههم في كرامتهم عليه بالمقربين عند الملوك.

وبلسان الإشارة: بيوت الله عبارة عما يذكر فيه الحق من النفس والقلب، والقلب والروح والسر والخفي.

فذكر بيت النفس: الطاعات.

وذكر بيت القلب: التوحيد والمعرفة.

وذكر بيت الروح الشوق والمحبة.

وذكر بيت السر : المراقبة والشهود.

وذكر بيت الخفي: بذل الجود وترك الموجود.

وقوله: "إلا نزلت.." إلخ، إشارة إلى ثمرات التلاوة، وهي الأنس والحضور مع الله، وتمثيل الأنبياء والملائكة والأرواح القدسية في صورة لطيفة، والصعود من حضيض بعد

البشرية إلى ذروة ملكوت الأعلى، بل الفرح بالبقاء، والدخول تحت الفناء والقرب من اللاهوت والتبرئ من الناسوت، وهذا مقام يضيق عن إعلانه نطاق النطق، ولا يسع إظهاره في ظروف الحروف، وإن قميصًا خيط من نسج تسعة وعشرين حرفًا من معانية قاصر.

قال الشيخ أبو سعيد الخراز: إذا أراد الله أن يوالي عبدًا من عبيده فتح عليه باب ذكره، فإذا استلذ بالذكر فتح عليه باب القرب، ثم رفعه إلى مجالس الأنس، ثم أجلسه على كرسي التوحيد، ثم رفع عنه الحجاب وأدخله دار الفردانية، وكشف له حجاب الجلال والعظمة، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقي بلا هو فحينئذ يصير العبد زمنًا فانيًا فوقع في حفظه وبرئ من دعاوى نفسه.

(**ومن أبطأ به عمله**): الإبطاء والتبطئة نقيض السرعة، أي: من جعله بطيئًا وأخره عمله السيىء عن بلوغ درجة السعادة فالباء للتعدية، كما في قوله:

(**لم يسرع به نسبه**»): أي: لم يقدمه نسبه إليها؛ لأن الإسراع إلى السعادة إنما هو بالتقوى والعمل الصالح، لا بالنسب إذ مثال ذلك إنما يعتبر في الدنيا لا في الآخرة، إذ الكل عبيد الله، وأكرمهم أتقاهم، ويؤيده ما ورد في الحديث من قوله ﷺ : «**يا صفية عمة رسول الله، يا فاطمة بنت محمد إيتوني يوم القيامة بأعمالكم لا بأنسابكم فإني لا أغني عنكم من الله شيئًا**» [١].

وما نقل عن أبي يزيد قدس الله روحه: أن مريدًا له يتبع خطاه من خلفه، فأقبل عليه قائلاً: والله لو سلخت جلد أبي يزيد ولبسته لم تنل مثقال ذرة من مقاماته ما لم تعمل عمله، وأنشد فقال:

ما بال نفسك ترضى أن تدنسهـــا ... وثوب جسمك مغسول من الدنس

ترجو النجاة و لم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري علـــى اليبس

والنسب: ما ينسب إليه الإنسان من مفاخر آبائه أو فضيلة نفسانية أو بدنية.

والحسب: يطلق على ما يعد من مفاخر نفسه، وعلى الكفاية من المال وما يجري مجراه، والسرعة والبطء من الأمور الإضافية التي لا تعقل إلا بالقياس إلى شيء آخر، وأما أن البطء بمعنى قطع المسافة في زمان أكثر والسرعة قطع مثلها أو أكثر في زمان أقل فذلك من تدقيقات الفلاسفة. (رواه مسلم بهذا اللفظ): والأسلوب.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٠١٢/٣)ح(٢٦٠٢)، ومسلم (١٩٢/١)ح(٢٠٥).

الحديث السابع والثلاثون

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملةً، وإن همّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملةً، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئةً واحدةً». (رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما بهذه الحروف) [١].

فانظر يا أخي –وفقنا الله وإياك– إلى عظيم لطف الله تعالى وتأمل هذه الألفاظ وقوله : "عنده" إشارة إلى الاعتناء بها، وقوله: "كاملة" لتأكيد وشدة الاعتناء بها، وقال في السيئة التي هم بها ثم تركها : "كتبها الله عنده حسنة كاملة" فأكدها بكاملة: "وإن عملها كتبها سيئة واحدة" فأكد تقليلها بواحدة، ولم يؤكدها بكاملة، فلله الحمدُ والمنة سبحانه لا نُحصي ثناء عليه وبالله التوفيق.



الكلام على الحديث السابع والثلاثين

(عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: «إن الله كتب): أي: قدر وأثبت في سابق علمه، مجازًا مرسلاً، أو أمر الحفظة بكتبها في اللوح فيكون مجازًا عقليًا.

والكتابة تنقيش ما في الذهن من العلوم بالخط بواسطة تركيب الحروف، ويستعار للإثبات والتقدير والإيجاب والقضاء.

(الحسنات): أي: ما يتعلق به الثواب والقربة .

(والسيئات): أي: ما يستحق فاعله العقاب.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥/٢٣٨٠)ح(٦١٢٦)، ومسلم (١/١١٨)ح(١٣٠).

(ثم بين ذلك): أي: بين مقدارهما وعين مبلغهما للسفرة الكرام بأن بعضها يجازى بعشر أو سبعين أو سبعمائة إلى غير ذلك، أو بينه في التنزيل، أو فصل النبي ﷺ ذلك الإجمال بما بعده، فيكون من كلام الراوي وذكر اسم الإشارة باعتبار المذكور.

(فمن هم): الفاء تفصيلية؛ لأن ما ذكره مجمل لا يفهم منه كيفية الكتابة، أي: فمن قصد.

(بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة): لأن الهم بالحسنة قصد الخير، فيكون خيرًا، وأما إرادة الشر وإن كان بنية سيئة لكنه يدفع بكف النفس عنها وهو حسنة.

وقوله: "حسنة" مفعول ثان باعتبار تضمين معنى التصيير أو حال موطئة.

(وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات): متصاعدة **(إلى سبعمائة ضعف)**: أي: مثل **(إلى أضعاف كثيرة)**: تفضلاً منه وإحسانًا، وهذه المراتب بحسب التفاوت في العمل، إخلاصًا ومراعاة لشرائطه وآدابه، والضعف : المثل، والأضعاف والتضعيف والمضاعفة: الزيادة على أصل الشيء، حتى يصير مثلين أو أكثر.

قال السدي: إن هذا التضعيف لايعلم أحدكم هو وما هو، وإنما أبهمه الله تعالى لأن ذكر المبهم في باب الترغيب أقوى من ذكر المحدود.

(وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة): لأنه إنما تركها بعد أن هم بها مراقبة لله وحذرًا منه مع القدرة عليها لا أن هم فلم يعمل للعجز.

قال العلماء: يحمل هذا على من لم يوطن نفسه عليها، وإنما ذلك تفكر بلا استقرار ويسمى هذا: "همًا".

وفرق بين الهم والعزم، وأما من عزم بقلبه على السيئة ووطن نفسه عليها أثم في اعتقاده وعزمه، فإن نفس العزم والإصرار معصية، فتكتب معصية، فإذا عملها كتبت معصية ثانية، وإن تركها خشية كتبت حسنة.

(وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة»): أخذًا بالتفضل في جانبي الخير والشر.

قال بعض الصوفية: إنما كان العشرة أقل درجات الثواب؛ لأن الحسنة تصدر بظهور القلب ، والسيئة بظهور النفس، فأقل درجات ثوابها أنه يصل بها صاحبها إلى مقام القلب الذي يتلو مقام النفس في الارتقاء، أو مراتب العشرات للآحاد في الأعداد، ومن عمل سيئة فلا تكتب إلا واحدة؛ لأنه لا مقام أدون من مقام النفس، فتنحط إليه فبالضرورة جزاه في

مقام النفس بالمثل، وهو حصول هيئتها فيها، ومن هنا يعلم أن الثواب من باب الفضل فإنه يتنور استعداده ويزداد قبوله لفيض الحق، فيتقوى على أضعاف ما فعل، ويكتسب بها أجورًا متضاعفة إلى غير النهاية بازدياده عند فعل كل حسنة وزيادة الفيض عند زيادة القبول، وزيادة القدرة عليها عند زيادة الفيض إلى ما لا يعلمه إلا الله، كما قال: ﴿**والله يضاعف لمن يشاء**﴾.

وإن العقاب من باب العدل المقتضي للمساواة، ومن فعل بالنفس إذا لم يعف عنه يجازى بالنفس.

والسيئة والحسنة المذكورتان هنا من قبيل الأعمال، والأقرب سيئة من شخص تعادل حسنة من غيره، كما قال: «حسنات الأبرار سيئات المقربين» ، إذ سيئاتهم بوجود القلب، ورب سيئة توجب حجاب الأبد، كاعتقاد الشرك.

(**رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما بهذه الحروف، فانظر**): أراد به الاعتبار العقلي والنظر بالبصيرة.

(**يا أخي وفقنا الله وإياك إلى عظيم لطف**): هو إجراء القضاء على وفق الإرادة. وقيل: إيصال نفع فيه دقة، قاله في الكشاف.

وقال الغزالي: اللطيف: من يعلم دقائق المصالح وغوامضها، وما لطف منها، ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح على سبيل الرفق، فمن اجتمع فيه الرفق في العقل واللطف في الإدراك تم فيه معنى اللطيف.

(**وتأمل هذه الألفاظ، قوله: "عنده" إشارة إلى الاعتناء بها**): إذ إجراؤها حقيقة محال لتقدسه عن المكان، فالمراد: عندية الرتبة كما سبق.

(**وقوله: "كاملة"، للتوكيد**): أي: صفة مؤكدة (**وشدة الاعتناء بها، وقال في السيئة التي هم بها ثم تركها: "كتبها الله عنده حسنة كاملة"، فأكده بـــ"كاملة"، و"إن عملها كتبها سيئة واحدة" فأكد تقليلها بواحدة ولم يؤكدها بكاملة**): لأن مفهوم الوحدة مشعر بالقلة.

فالحاصل: أن لفظ الحديث طابق معناه في إفادة فضل الله وطوله وتضعيف الحسنات وتكميلها والاعتناء بها، وإفراد السيئات وتقليلها بمسامحته تعالى عباده في المعاملة تضعيفًا في الخير، وتخفيفًا في الشر، لطفًا بهم ورحمة وتفضلاً، ولله در من قال:

يا خالق الخلق يا من لا شريك لـــه	طوبى لمن عاش بين الناس يهواكا
إني لأعجب ممن قد رأى طرفـــًا	من فرط لطفك ربي كيف ينساكا
والله ما فرحت روحي ولا أنست	في الدهر ما بقيت إلا بذكراكـــا
وكيف يأنس روح العارفـــين وإن	دام السرور لهم إلا بلقياكـــــا

(**فلله الحمد**): هو تعريف المحمود بنعت الكمال وذكره بما هو عليه من الفضائل ومحاسن الخصال والحامد إما الحق وإما الخلق، وكذلك المحمود، ولذا قدم الظرف لإفادة اختصاص جميع المحامد بالله تعالى.

(**والمنة**): هي النعمة الثقيلة، وتطلق على معنيين:

الأول: أن يكون بالفعل، نحو : "منَّ عليه: أي أثقله بالنعمة"، ومنه ﴿**لقد من الله على المؤمنين**﴾ .

الثاني: أن يكون بالقول، وهو عد الإحسان وهو مستقبح، ولهذا قيل: "المنة تهدم الصنيعة إلا عند الكفران".

(**سبحانه**): مفعول مطلق، أي: أنزهه عن النقائص وهو علم التسبيح لا يستعمل غالبًا إلا مضافًا، وفيه معنى التعجب، والأصل فيه أن يسبح الله في رؤية العجب من صنائعه، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه.

(**لا نحصي ثناء عليه**): أي: لا نطيق القيام بحق ثنائه، أو لا نعلم ولا نعقل لذاته، كما ينبغي من إحصائه ، أو لا نحصر ثناءه، إذ الحول البشري قاصر عنه.

(**أنت كما أثنيت على نفسك**): وهو الذكر الجميل، وقدم التسبيح وهو التنزيه؛ لأن النفي متقدم على الإثبات، فبالأول تزول العقائد الفاسدة، وبالثاني ترسم النقوش الحسنة، وهو أعم من التقديس؛ لأنه التنزيه عن الشرك والعجز والنقص ، والتقديس: هو التنزيه عما ذكر وعن التعلق بالجسم وقبول الانفعال وشوائب الإمكان وإمكان التعدد في ذاته وصفاته، وكون شيء من كمالاته بالقوة.

وختم بقوله:

(**وبالله التوفيق**): لعرض فقره واحتياجه إلى الإسعاد الرباني والإمداد السبحاني في كل الأحوال.



الحديث الثامن والثلاثون

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته في الحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه». (رواه البخاري)[1].



الكلام على الحديث الثامن والثلاثين

(عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى قال: من عادى**): أي: آذى وأغضب بالفعل أو بالقول، (**لي وليًّا**): أي: واحدًا من أوليائي (**فقد آذنته**): أي: أعلمته (**بالحرب**): أي: بمحاربته وبمعاداته معي، أو بأني سأحاربه وأقهره وأنتصر منه وأنتقم له، وفي رواية: «**وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث الجرد**». وفي أخرى: «**أنه ينتقم بعدوه**»؛ لأن أبعد الخلق وأغلظ القلب لا يرحم في تعذيب أسيره، كما انتقم ليحيى بعدوه بختنصر.

والولي: فعيل، بمعنى المفعول، وهو من يتولى الله حفظه وحراسته على التوالي. أو بمعنى الفاعل، أي: يتولى عبادة الله وطاعته ويتوالى عليها في غير تخلل معصية، وكلا الوصفين شرط في الولاية، ذكره القشيري.

قال الغزالي: الولي من كوشف بعض المغيبات، ولم يؤمر بإصلاح الناس.

وقال المتكلمون: الولي من كان آتيًا بالاعتقاد الصحيح مبنيّ على دليل بالأعمال الشرعية والتركيب يدل على القرب، فكأنه قريب منه لاستغراقه في نور المراقبة، وجمال جلاله.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥/٢٣٨٤)ح(٦١٣٧).

وتحقيقه أن يقال: هو أن يتولى الله بذاته أمره، فلا تصرف له أصلاً، إذ لا وجود له ولا ذات ولا فعل ولا وصف، فهو الفاني بيد المفني يفعل به ما يشاء، حتى يمحو اسمه ورسمه ويمحق عينه وأثره ويحييه بحياته ويبقيه ببقائه.

وقوله: "لي" حال من قوله: "وليًا"، قدم عليه لتنكيره، وجعله ظرفًا لغوًا، وإيراد صيغة المفاعلة للمبالغة.

واللام في قوله: " الحرب" للجنس، فينصرف إلى الكامل، فالحديث تحذير عن إيذاء الأولياء وترك حرمتهم وتنبيه على عظيم شأنهم وحفظ قلوبهم ودفع كربتهم.

ولي الله أشـــــرف في البرايا   له قدر عظيم بالكرامـــة
فمن ولاهم حـــــقًا وصدقًا   لجاءته الشفاعة في القيامة

(**وما تقرب إلي عبدي بشيء**): التقرب: طلب القرب من غير تخلل معصية وأخذ الثواب. والباء في "بشيء" للسببية.

وقوله: (**أحب إليّ**): صفته، وهو بمعنى المفعول، و"ما" في قوله (**مما افترضت عليه**): موصولة أو موصوفة، والعائد محذوف.

والمعنى: ما يطلب عبدي القربة من رحمتي وثوابي بوسيلة عمل أحب إليّ من الذي فرضته، أي: وسائل القرب كثيرة وأحبها إليّ أداء الفرائض والتكاليف، إذ هي الأمانة المعروضة على السموات والأرض والجبال.

(**ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل**): الزائدة على الفرائض، ويرتقي من مقام إلى آخر (**حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به**): السمع: قوة مرتبة في العصب المفروش على سطح باطن الصماخين، يدرك بهما صورة ما يتأدى إليه بتموج الهواء المنضغط بين قارع ومقروع مقاوم له، انضغاطًا بعنف يحدث منه تموج فاعل للصوت فيتأدى إلى الهواء المحصور الراكد في تجويف الصماخ ويموجه بشكل نفسه ويماس أمواج تلك الحركة تلك العصبة فتسمع.

والبصر: قوة مرتبة في العصبتين المجوفتين اللتين يتلاقيان فيفترقان إلى العينين، يدرك صورة ما ينطبع في الرطوبة الجليدية من أشباح الأجسام المتلونة المتأدية في الأجسام الشفافة بالفعل إلى سطوح الأجسام الصقيلة، كذا في كلام ابن سيناء، هذا في الشاهد فقط.

واختلفوا أيهما أفضل، فقيل: الأول؛ لتقديمه في اللفظ ولأنه شرط النبوة ولأنه سبب وصول المعارف إلى السمع. وقيل: الثاني؛ لأن متعلق الإبصار النور، ومتعلق السمع الريح، وهو يرى من بعيد وقد أسمع كلامه موسى ونوقش في الرؤية.

(**ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها**): أي: كنت حافظًا حواسه وجوارحه حتى ينقطع عن الشهوات ويستغرق في الطاعات، فلا سمع ولا يبصر إلا ما أتى به الشرع، وقريب منه قول الخطابي، معناه: توفيقه في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، يعني ييسر عليه فيها سبيل ما يحبه ويعصمه عن مواقعة ما يكره من الإصغاء إلى اللهو بسمعه والنظر إلى ما نهى عنه ببصره، وبطش ما لا يحل بيده، والسعي في الباطل برجله.

قال التوربشتي: أجعل سلطان حبي غالبًا عليه حتى يسلب عنه الاهتمام بشيء غير ما يقربه إليّ فيصير متخليًا عن اللذات منخلعًا عن الشهوات حيثما توجه لقي الله بمرأى منه ومسمع، ويأخذ حب الله بمجامع قلبه فلا يسمع ولا يرى ولا يفعل إلا بحبه، ويكون له في ذلك عونًا ويدًا وكفيلاً ووكيلاً يحمي جوارحه وحواسه.

وفي كلام القاضي: أنه يتقرب ويرتقي من مقام إلى آخر حتى يحبه الله، فيجعله مستغرقًا بملاحظة جناب قدسه بحيث ما لاحظ شيئًا إلا رأى الله تعالى فيه، وما التفت التفات حاس ومحسوس إلا لاحظ ربه وهو آخر درجات السالكين وأول مراتب الواصلين.

هذا وإن أردت تحقيق الكلام وتبيين المرام في هذا المقام الذي زلت فيه الأقدام وكلت دون الوصول إلى الحق الأفهام، فاستمع لما يتلى عليك من التدقيقات المحققة للأعلام الواصلين إلى أعلى مدارج الأنس السائرين في أرقى معارج القدس، التائهين في بيداء عظمة الملك والملكوت، المتلاشين في دوام ديمومية العز والجبروت الذين ورد في شأنهم الحديث ونطق بعزهم كل قديم وحديث.

فنقول: المحبة : إرادة ما تراه أو تظنه خيرًا، وهي:

إما محبة اللذة، كمحبة الطعام.

أو محبة النفع كمحبة ما ينتفع به أو المركب منهما.

أو محبة الفضل كمحبة العلماء، قاله الراغب.

ولا يخفى أنه أبلغ من الإرادة لأنها إذا تأكدت في القلب وانعقدت فيه فتلك المحبة المنقسمة إلى الطبيعية وهي ميل النفس إلى منافعها ولذاتها.

والشرعية: المأخوذة من الكتاب والسنة، والروحانية: وهي ميل القلب إلى مطالعة الملكوتية العلوية، فإذا استولت عليه وغلبت تصير عشقًا، فهو المحبة المفرطة ولا يجوز إطلاقه على الله عند الفقهاء، ووافقهم الشيخ الكبير محي الدين ابن العربي قدس الله سره.

وقال في شرح مسلم: معنى محبة الله: رحمته عليهم وإرادته للجميل لهم، ومدحه وإنعامه عليهم، ومحبة العبد بمعنى طاعته له وموافقته لأمره وتعظيمه وهيبته له.

قال في الكشاف: محبة العباد لله عبارة عن إرادة نفوسهم اختصاصه بالعبادة دون غيره، ورغبتهم فيها، وذلك لأن المتكلمين أطبقوا على أنها نوع من الإرادة، فيجب تعلقها بالحوادث، فلذا جعله الزمخشري استعارة مصرحة شبهت إرادة نفوسهم اختصاصه بالعبادة بميل قلب المحب إلى المحبوب ميلاً لا يلتفت إلى الغير، وحمله المصنف على الإضمار، أي: محبة طاعته وموافقته لكن الإمام استضعف قولهم وأثبت المحبة الذاتية؛ لأن كل شيء لو كان محبوبًا لآخر لتسلسل.

قال صاحب الكشاف: وهو غير ناهض لأنهم عللوا أن الإرادة لا تتعلق بالقديم لذاته، ولا يمنعون تعلقها بحادث لذاته، والذي رأيته للمتكلمين أنها تستدعي الجنسية بين المحب والمحبوب والمنع على الأول، أي على دليلهم الأول، وهو أنه نوع من الإرادة هو أن المحبة ليست نوعًا من الإرادة لتعلقها بالأعيان وتعلق الإرادة بالأفعال، بل لو عكس بأن يجعل الإرادة نوعًا من المحبة لكان صوابًا، وعلى الثاني: إن المحبة قد تتعلق بالأعراض، ولا جنسية بين الجوهر والعرض.

والتحقيق: أنها من الوجدانيات التي لا تحتاج إلى تعريف حقيقي بل إلى شرح اسم ليمتاز عن أخواتها بأن يقال: هي إدراك الكمال من حيث إنه مؤثر ، وكلما كان الإدراك أتم والمدرك أشد كمالية مؤثرة كانت المحبة أكمل.

وقالت الصوفية: المحبة: الميل الدائم بالقلب القائم وإيثار المحبوب على جميع المصحوب أو محو المحب بصفاته وإيثار المحبوب بذاته، أو معانقة الطاعة ومباينة المخالفة.

وفي المنازل ما معناه: إنها تعلق القلب بالمحبوب مقترنًا بهمة الحب بطلب الحق والأنس به في بذل الروح، ومنع القلب من التعلق بالغير على الإفراد، وهو فناؤه عن أفعاله وصفاته وذاته غير ملاحظ للثنوية.

قال الجنيد: هي دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب كما في الحديث.

قال العارف السهروردي في العوارف: وذلك لأن المحبة إذا صفت وكملت لا تزال تجذب بوصفها إلى محبوبها، فإذا انتهت إلى غاية جهدها وقفت والرابطة متأصلة متأكدة، وكمل وصف المحبة إزالة الموانع من الحب، وبكمال وصف المحبة تجذب صفات المحبوب تعطفًا على المحب المخلص من موانع قادحة في صدق المحبة، ونظرًا في قصوره بعد استيفاء جهده فيعود الحب بفوائد اكتساب الصفات من المحبوب فيقول عند ذلك:

أنا من أهوى ومن أهو أنا ... نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرتـــــه ... وإذا أبصرته أبصرتنا [1]

وفي تأويلات العلامة الكاشاني: إنها ظل نوري للوحدة في الأرواح توجب الأنس والألفة في القلوب، والعدالة في النفوس، وتقتضي طلب الاتصال بالأصل والكمال الذي تمكن له منه، فلذا يحكم على صاحبه بموافقة المحبوب، وأنشد في المعنى:

حقيقة الحب لا تجلى لفاقدهـــــا ... والواجد استشبع التعريف القيل

لا يعرف الشمس إلا من يشاهدها ... للكمه تعريفها في عين تضـــليل

وذكر الشيخ الرازي في حقائق التفسير: أن لمحبة المحب ثلاث مراتب:

محبة العوام التابعين للأعمال المحمدية، وهي مطالعة المنة في رؤية إحسان المحسن.

ومحبة الخواص التابعين لأخلاقه، يحبونه إجلالاً وإعظامًا ولكونه أهلاً له.

ومحبة أخص الخواص التابعين لأحواله، وهي الناشئة من الجذبة الإلهية في مكان كنت كنزًا مخفيًا.

وحقيقتها : أن يفنى المحب بسطوتها، ويبقى فيه بلا هو؛ لأنها نار لا تبقي ولا تذر.

ولمحبة المحبوب ثلاث درجات أيضًا:

محبة العوام باختصاصهم بالرحمة والغفران والتجلي عليهم بالأفعال والآيات.

---

(١) هذان البيتان من كلام الحلاج –وهو الذي ضحي به في عيد الأضحى لاعتقاده هذا الخبيث– وهو من المتصوفة الذين يقولون بالحلول والاتحاد، وهو مذهب كفري، بل ذكر ابن تيمية في رسائله أن كفر هؤلاء أشد من كفر اليهود والنصارى ، فنعوذ بالله من الخذلان، ويراجع في ذلك رسالة العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فقد أفاد فيها وأجاد، فجزاه الله خير الجزاء على ما قدم.

ومحبة الخواص باختصاصهم بتجلي صفات إجمال الغفران وستر ظلمة صفاقم بأنوار صفاته ومحبة.

ومحبة أخص الخواص باختصاصهم بالجذبات وستر ظلمة وجودهم بأنوار الوجود الحقيقي، فيتجلي أو لا بنار الإجلال فتحرق عن قلوبهم جميع ما كان فيه، ثم يتجلى بنور الجمال ويموحوهم عنهم ويثبتهم به ويسلب عنهم السمع والبصر والنطق، ويبدله بسمع وبصر يليق به، فهم بين روضة المحو وغدير الإثبات أحياء غير أموات.

وفي هذا المقام المحب والمحبوب والمحبة واحد، كما أن الرائي في المرآة يشاهد ذاته بذاته، وصفاته بصفاته، فيكون الرائي والمرئي والرؤية واحدًا. أهـ كلامه.

فيكون فحوى الحديث والله أعلم:

إن من استعلت به الدرجة المحبوبية ومكنته الرتبة المطلوبية، كنت مستويًا بنور وجهي على عرش قلبه، مفيضًا بنوري على فرش صدره، فيكون سمعه من نوري يسمع به، وبصره من نوري يبصر به، ويده من نوري يبطش بها، ورجله من نوري يمشي بها، فيكون قائمًا بنوري حيًا به؛ لأن مصدر أعماله وهو القلب صار عرشًا لنور الله، ولا يصدر من النور إلا النور، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور، وكما كان قبل استيلاء النور عليه مستويًا بنفسه على قلبه مؤثرًا بظلمتها على صدره فكان سمعه وبصره من ظلمتها يسمع ويبصر بها، فهذا العبد هو الذي قام بنور الحق ذاتًا وصفاتًا فني بشهوده وبقي بوجوده، لاستعداده لكمال المعرفة بسبق العناية.

وفي المعنى قال:

غذينا بالمحبة يوم قالت   له الدنيا : أتينا طائعينا

رزقني الله وإياكم الجذبات السبحانية والنفحات الصمدانية، وصفانا من الكدورات الناسوتية، ورقانا إلى المشاهدات اللاهوتية.

(**وإن سألني**): حذف المعمول للتعميم (**أعطيته**): مسئوله، بل لو أقسم على الله لأبره.

(**ولئن استعاذني**): بالباء التي للإلصاق أو النون التي للوقاية، فالياء منصوب بترع الخافض، وأورد اللام الموطئة للتوكيد وحذف المستعاذ منه ليعم، والعوذ والالتجاء

والالتصاق ، يقال: أطيب اللحم عوذه ، وهو ما التصق منه بالعظم، أي: إن التجأ برحمتي والتصق بفضلي وإعانتي (**لأعيذنه**)).

واعلم أن الاستعاذة إنما هي لدفع جميع المضار، ومعظمها بالنسبة إلى السالك الخواطر، ولابد من معرفتها، والخاطر ما يرد على القلب في صورة خطاب أو تعريف أو طلب وأنواعه أربعة:

خاطر الحق المسمى بالخاطر الأول: وهو علم يقذفه الحق من بطنان الغيب على قلب أهل القرب، ويبقى مطمئنًا لا ينفيه بشيء ولا يقتضي المهلة ويعبر عنه بالإلهام.

وخاطر الملك: وهو ما يرغب على الطاعات ويحذر عن المعاصي ويلوم عليها، وقد لا يطمئن ويقتضي المهلة.

وخاطر الشيطان: وهو ما يدعو إلى المعاصي والمكاره، فيدفع بالاستعاذة والانتهاء.

وخاطر النفس: وهو حركة في الباطن تنبعث إلى تحصيل ملاذها ومرامها من أشياء منكرة، يتحقق أن الله متره عنها وغيرها، ويقابل بترك المبالاة واستدامة الذكر، ويفرق بينهما بأن الشيطان إذا دعا إلى زلة و لم يجب يوسوس بأخرى، إذ مراده الإغواء كيف أمكن، بخلاف النفس فإنها لا تزال تلح حتى تظفر بمرادها إلا أن يعيذه الله، وهو أشد الخواطر على المريدين.

وحقيقة الوسوسة: أن الإنسان بينما هو ذاهل عن الشيء ذكره النفس والشيطان، فيحدث له ميل يترتب عليه فعل، هذا هو المشهور بين الجمهور.

وقد ذكر نجم الدين: الكبرى خاطر القلب، وهو بها يسلم من منازعة النفس وينطلق من قيد الشك وغيره.

وخاطر العقل، وهو ما يكون مع النفس والعدو لإثبات الحجة على العبد ليستحق العقاب، ومع الملك والروح يستوجب به الثواب.

وخاطر الروح، وهو ما ينبعث من همته التي هم بها إلى الحضرة الإلهية يستترل بها الإلهامات.

وخاطر ينشأ من ميلانه إلى معرفة الصفات، يستنزل المعارف من بحار الأسماء.

وخاطر اليقين وهو روح الإيمان ومريد العلم.

وخاطر الشيخ للمريد، يرد عليه على قدر وثوق العلقة المعنوية.

وخاطر النبي للتابع على قدر الاتباع.

والخاطر من الموتى على قدر صفاء الباطن، وتألف الروحين.

والخاطر من قلوب الإخوان على قدر خلوص الصحبة.

ولا يخفى اندراجها تحت الخواطر الأربعة، بل رجوع تلك الخواطر إلى الكلمتين المذكورتين في الحديث، كما حققه في العوارف، بل لا يبعد أن يقال: الأصل في الخواطر برمتها: الخاطر الحقاني والإلهام الرباني؛ لقوله تعالى: ﴿**فألهمها فجورها وتقواها**﴾ [الشمس:٨]، ولما كان هذا التحقيق من غوامض العلوم، وإدراك عوائد فرائده من دقائق الفهوم، أوردناه هنالك والله الهادي إلى سواء المسالك.

(رواه البخاري).



الحديث التاسع والثلاثون

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». (حديث حسن رواه ابن ماجه والبيهقي وغيرهما) (١).



الكلام على الحديث التاسع والثلاثين

(عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله تجـاوز) : أي: عفا. وتفاعل بمعنى فعل، ولعل معنى المجاوزة أن الله يطالب المذنب بالذنب ، والمذنب يطالبه بالعفو إلى أن يتمسك عند الخوف من عذابه برحمته، فإذا غفر الرب فقد تجاوز عن المطالبة.

---

(١) طرقه كلها معلولة، وحسن لمن حسن بكثرة الطرق: روي من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما، ومن حديث عقبة بن عامر، وحديث أبي ذر الغفاري:

أما حديث ابن عباس، فأخرجه الحاكم في مستدركه (٢/٢١٦)ح(٢٨٠١)، وابن ماجه (١/٦٥٩)ح(٢٠٤٥)، والبيهقي في الكبرى (٧/٣٥٦)ح(١٤٨٧١)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢/٥٩)، والطبراني في الأوسط (٨٢٧٣)، كلهم من طريق: محمد بن المصفى الحمصي ثنا الوليد بن مسلم ثنا الأوزاعي عن عطاء عن ابن عباس مرفوعًا به، وفيه:

- محمد بن المصفى: صدوق له أوهام، وكان يدلس، انظر التقريب (٦٢٩٤).
- عدم سماع الأوزاعي هذا الحديث من عطاء، قاله أبو حاتم وقال: إنما سمعه من رجل لم يسمه، أتوهم أنه عبدالله بن عامر، أو إسماعيل بن مسلم، انظر علل ابن أبي حاتم (١/٤٣١).
- وأما حديث عقبة بن عامر: فأخرجه البيهقي في الكبرى(٧/٣٥٧)، وفيه :
- محمد بن المصفى، ضعيف.
- ابن لهيعة: ضعيف، لكن في الشواهد.

وأما حديث أبي ذر الغفاري، فأخرجه ابن ماجه (١/٦٥٩)ح(٢٠٤٣)، وفيه : أبو بكر الهذلي ضعيف، وانظر علل ابن أبي حاتم (١/٤٣١)، كشف الخفاء (١/٥٢٢)، (٢/٤٥٥).

(لي): أي: لتعظيم أمري وإعلاء قدري وحصول مرام قلبي **(عن أمتي)**: أي: أمة الإجابة .

(الخطأ): أي: إثم الخطأ، فلو أتى بشيء من المعاصي أو أخل ببعض الفرائض لا يتعلق به ذم ولا مؤاخذة، ولهذا لو قتل إنسانًا خطأ بأن لا يقصد الفعل بأن خر على صبي فمات أو قصد الفعل دون الشخص كما إذا رمى إلى صيد فأصاب إنسانًا لم يقتص منه وأما إلزام الدية فيكون جابرًا لورثة المجني عليه، وهكذا الحال في ضمان المتلفات.

قال في النهاية: الخطأ ضد العمد، وهو أن يفعل شيئًا من غير قصده.

وقيل: إنه العدول عن الصواب بأن يريد غير ما تحسن إرادته، فيفعله، وهو المأخوذ به، أو يريد ما يحسن فعله ولكن يقع منه خلاف ما يريد.

ومنه: «**من اجتهد فأخطأ فله أجر**»[1]، أو لا يريد ما لا يحسن فعله ويتفق منه خلافه، فهو مخطئ إرادة مصيب فعلاً فهو مذموم بقصده غير محمود بفعله.

(والنسيان): أي: إثم ما صدر عنهم من اقتراف ذنب أو ترك طاعة نسيانًا، ولهذا لو أكل الصائم أو شرب أو جامع ناسيًا فلا إفطار ولا كفارة، ولو علق طلاقًا أو عتقًا على فعل من أفعاله ففعله ناسيًا، أو صلى الظهر خمسًا فلا بأس.

وأما إلزام الدية فلتكون جابرًا للمجني عليه وورثته، وكذلك في ضمان المتلفات.

والنسيان: ترك الفعل لتأويل فاسد أو ضد الذكر.

فإن قلت: فإذا كان الخطأ والنسيان متجاوزًا عن هذه الأمة المرحومة فما الحكمة في الأمر بالدعاء في قوله تعالى: ﴿**ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا**﴾ [البقرة: ٢٨٦]؟

فالجواب: أن يقال: النسيان منه ما يعذر صاحبه ومنه ما لا يعذر، وذلك إذا ترك التحفظ وأعرض عن أسباب التذكر، كمن رأى نجاسة في ثوبه، وأخر الإزالة، وصلى عُد مقصرًا ويجب القضاء، وكذا إذا تغافل عن تعاهد القرآن حتى نسي. فذكر النسيان والخطأ وأراد ما هو المسبب عنهما، فيكون مجازًا مرسلاً أو استعير للتفريط والإغفال للمشابهة، فإنهما سببان للوقوع في المخالفة، كالخطأ والنسيان، فتكون استعارة مصرحة تبعية، هذا تحقيق أشكل وجوه الكشاف.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦/٢٦٧٦)ح(٦٩١٩)، ومسلم (٣/١٣٤٢)ح(١٧١٦).

(وما استكرهوا عليه)): أي: تجاوز عن أمتي إثم ذنب صدر عنهم بالإكراه والإجبار، فلا يكفر من أكره على الردة، فتلفظ بها مطمئنًا قلبه ولا يفطر من أوجر الخمر، ولا يصح إعتاقه ولا طلاقه ولا شيء من تصرفاته، وهو مذهب مالك [١] والشافعي [٢] وأحمد [٣] ، خلافًا لأبي حنيفة في الطلاق [٤] .

والحديث مخصوص بما إذا لم يكن بمحرم، فإن أكره على القتل يجب القصاص على المُكرِه والمُكرَه، أو بالزنا أو غير ذلك فتجب العقوبة، وفروع هذا الأصل وشروطه مذكورة في كتب المذهب، ولا يخفى أنه من كنوز الحكم، وجوامع الكلم، فعليك باستخراجها.

ولعل معناه بلسان العارفين هو: أن الله لا يعاقب أمتي إن أخطأت في طريق طلب الله، وفي العمل لما سواه، والقرار على فراقه، أو نسيت عهد الله الذي عاهدهم أن يحبوه ولا يحبوا غيره؛ لأنهم غرباء بعد إطالة العهد بهم، مسافرين عنه، محتجبين بأنواع البلاء، لكن سيعودون إلى الفطرة الأصلية، والمحبة الأزلية لأنه حين لم يكن شيئًا مذكورًا، بل لم يكن في الكتاب مسطورًا، قد نطق الحق بمحبتهم أولاً، ورقم بها في اللوح ثانيًا، وأنزل عليهم قوله: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ [المائدة: ٥٤] ثالثًا.

ولله در القائل حيث أنشد في المعنى وقال:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى	ما الحب إلا للحبيب الأول
كم مترل في الأرض يألفه الفتى	وحنينه أبدًا لأول مترل

(حديث حسن رواه ابن ماجه والبيهقي وغيرهما).



(١) انظر المعونة (٢/٨٤١).

(٢) انظر روضة الطالبين (٨/٥٦).

(٣) انظر المغني لموفق الدين (٨/٢٥٩).

(٤) حيث قال الإمام الأعظم: يقع، انظر الهداية (١/٢٥٠).

الحديث الأربعون

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك. (رواه البخاري) [(١)].



الكلام على الحديث الأربعين

(**عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي**): ليوجه توجهًا بليغًا، ويتمكن في ذهنه ما يلقي إليه.

(**فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب**): أي: لا تركن إليها ولا تتخذها وطنًا، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق الغريب في غير وطنه، قاله المصنف، وذلك لأن الدنيا دار مردود، وجسر عبور، فينبغي للمؤمن أن ينتظر المسافرة عنها ساعة فساعة، متهيئًا لأسباب الارتحال برد المظالم والاستحلال مشتاقًا إلى الوطن الحقيقي، قانعًا في سفره ببلغة وسترة معولاً على ما أعد له من النزول في وطنه مستقبلاً للبليات الكثيرة في سفره غير مشتغل بما لا يعنيه من الأمل الطويل والحرص الكثير، ثم ترقى عن ذلك بلفظة: "أو" التي بمعنى بل، كقول الشاعر:

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى ... وصورها أو أنت في العين أملح

أي: بل أنت، كذا في الصحاح.

(**أو عابر سبيل»**): وهو المار على الطريق، القاطع لها بالسير؛ لأنه قد يسكن الغريب في غير وطنه، ويقيم في الغربة، فلله در طائفة رفضوا الدنيا وانعزلوا عن الناس وتجردوا عما عليهم من الأثقال واللباس، بل صاروا حفاة عراة حاسري الرأس، فهم العقلاء الأكياس، الخارج فضلهم عن حد العد ومقياس القياس.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥/٢٣٥٨)ح(٦٠٥٣).

إن لله عبادًا فطـــــنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما عرفوا أنها ليست لحي وطنـــا

جعلوها لجة واتخـــذوا صالح الأعمال فيها سفنا

(**وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء**): هذا مقتبس من الحديث؛ لأن الغريب إذا أمسى وأصبح لا يتوقع إلا سيره إلى وطنه، ويتبادر إليه كل وقت وكل ساعة.

فالمعنى: سر دائمًا ولا تفتر عن الطاعة ساعة، أي: تهلك في أودية الضلالة وتنقطع عن المقصود.

(**وخذ من صحتك لمرضك**): أي: بادر إلى أيام الصحة، واغتنم، فإن المرض المانع من العمل قد يطرأ. والصحة حالة تصدر بسببها الأفعال الحيوانية عن موضعها، وهو الأعضاء السليمة. والمرض عبارة عن عدم تلك الحالة، فبهما تقابل العدم والملكية.

(**و**): خذ (**من حياتك لموتك**): أي: ما تلقى نفعه بعد موتك، وإياك والتسويف، فإن الوقت سيف، وفي التأخير آفات، والموت يأتي بغتة. وما يروى من أنه ﷺ قال: «**العجلة من الشيطان**»[1] مخصوص على أنه لا يفيد علة الحكم، إذ هي قضية مهملة، والأمور متفاوتة، منها ما يحمد فيه التأخير، لكونه مما يحصل على مهل وتدريج، فلو طلب منه خلاف وضعه فات الغرض أو لكونه محمود العاقبة مفتقر إلى مزيد تأمل، ومنها ما يحمد فيه التعجيل لضد ما قلنا، فينتهز ويغتنم، فإن الفرصة تمر مر السحاب.

---

(١) صحيح: روي من حديث ابن عباس ، وسهل بن سعد، وأنس.

أما حديث ابن عباس، فأخرجه: الترمذي (٤/٣٦٧)ح(٢٠١٢)، وقال: حديث غريب، اهـــ، من طريق فيه عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد الساعدي، ضعيف، انظر التقريب (٤٢٢٦).

وأما حديث سهل بن سعد: فأخرجه: الروياني في مسنده (٢/٢٢٧)ح(١٠٩٦)، والطبراني في الكبير (٦/١٢٢) ح(٥٧٠٢)، وفيه أيضًا عبد المهيمن، وهو كما تقدم ضعيف.

وأما حديث أنس: فأخرجه: البيهقي في الكبرى (١٠/١٠٤)، والحارث في مسنده (٢/٨٢٨)ح(٨٦٨/البغية)، وأبو يعلى في مسنده (٦/٢٤٧)ح(٤٢٥٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/٨٩)ح(٤٣٦٧)، وإسناده صحيح، رواته ثقات.

وفي هذا المعنى أنشد لعلي كرم الله وجهه:

إذا هبت رياحـــك فاغتنمهـــا فإن لكل خافقـــة سكـــــون
ولا تغفل عن الإحسان فيهـــا فما تدري السكون متى يكون
إذا طالت يداك فلا تقصـــــر فإن الدهر عـــادته يخـــون

والحياة قوة تتبع الاعتدال النوعي، ويفيض منها سائر القوى الحيوانية.

والموت عبارة عن فساد بنية الحيوان، أو عرض مفارق للحياة، لا يصح معه اختيار، فبينهما تقابل التضاد، ذكره الأطباء.

والتحقيق : أن الموت زمانة مطلقة في جميع الأعضاء ببطلان قواها، فالموت يسلب منك قواك وحواسك وحقيقتك التي بها أنت باق كزمانة اليد فإنها تخرج عن طاعتك لبطلان القوة التي تستعمل مع وجوده شخصها، والدليل عليه أن الإنسان ليس عبارة عن هذه البنية لأن أجزائها تذوب وتنحل وتفرض السمن والهزال المشار إليه بأنه شيء واحد من أول عمره إلى آخره، والباقي غير المتبدل، ولأن الإنسان يكون عالمًا بنفسه حال ما يكون غافلاً عن جميع أعضائه، والمعلوم مغاير لغيره، وأيضًا أحوال النفس مضادة لأحوال البدن، لأنا نجد قوة أحدهما مقتضية لضعف الآخر؛ لأنه يضعف وقت النوم وتقوى النفس على مشاهدة المغيبات ونفوس عالم الأرواح، وإذا أعرضت عن ملاذها وأقبلت على مطالعة العالم العلوي انطبعت فيها الجلايا القدسية، وانكشفت لها المعارف الإلهية، ولأن جميع أرباب الملل والنحل يتصدقون على موتاهم، ويزوروهم، ولأن الميت يرى في المنام فيخبر عن أمور غائبة، ويكون كما أخبر، ولأنا نعلم ضرورة أن العالم الفاهم للخطاب إنما هو في ناحية القلب ليس جملة البدن، أولاً شيئًا من الأعضاء ، وكم مثل هذا إذا تقرر هذا.

فنقول: ذلك الشيء المغاير، سواء كان جوهرًا مجردًا، كما ذكره الغزالي والراغب، أو جسمًا قدسيًا ملكوتيًا خلق من حياة أبدية، رباه الله في ظل كامل جلاله وضياء صفاته، ونور بهائه، كما ذكره العارف الشطاح البقلي قدس سره، لا يدخل تحت سكرات الموت، بل ينفصل بعده وتنقطع علاقته أو لا، ثم يتعلق حين دفن بالأجزاء الفاهمة اللطيفة من قلبه ودماغه ويتوجه عليه سؤال الملكين، ويرد عليه ثواب القبر وعذابه، ثم يرتقي إلى الدرجات العليا، ويصل إلى السعادة الكبرى، ويبقى له العلاقة بالبدن بالتلذذ والتألم لا بالتحريك واكتساب الأعمال، فالموت أحد الأسباب الموصلة إلى النعيم المقيم، كما ورد: «**إنكم خلقتم للأبد، ولكن تنقلون من دار إلى دار**» ، فهو وإن كان في الظاهر فناء واضمحلالاً،

لكنه في الحقيقة بقاء وولادة ثانية على وجه أشرف، كالنوى المزروع لا تصير نخلاً مثمرًا إلا بعد فساد جثتها، وكالبذر الملقى في الأرض، ولذا من الله علينا بالموت فقال: **﴿الذي خلق الموت والحياة﴾** [الملك:٢]، وقدمه لكونه ذريعة إلى الحياة الأبدية الحقيقية، وعده علينا من نعمه فقال: **﴿كيف تكفرون بالله﴾** [البقرة: ٢٨]، الآية.

وأما التي تذوق الموت فهي النفس الحيوانية المركبة من الطبائع، يتهدم البدن إذا خرج منه الروح بخطاب: **﴿ارجعي﴾**، فيهدم أركانها، ويرجع كل شيء إلى أصله، لكن العارفون الذين صفت أجسادهم بسبب سبحان الوجه الكريم، وتجانست أرواحهم وأبدانهم لا يتطرق إليها البلى، بل تجذبها إلى حضرة اللاهوت وتطير معها في عالم الملكوت أبد الآبدين، كما قال في معراج سيد المرسلين: **﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾** [الإسراء: ١]، وفي شأن عيسى: **﴿بل رفعه الله إليه﴾** [النساء: ١٥٨]، وفي قصة إدريس: **﴿ورفعناه مكانًا عليًا﴾** [مريم:٥٧]، فافهم هذه الأسرار التي نطقت بها الأخبار، وشاهدها بالبصائر الثاقبة الأخيار.



الحديث الحادي والأربعون

عن أبي محمد ، عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به». (حديث حسن صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح)(١).



الكلام على الحديث الحادي والأربعين

(**عن أبي محمد عبدالله بن عمرو بن العاص**): السهمي القرشي، أسلم قبل أخيه وكان أكبر منه بإحدى أو اثنتي أو ثلاث عشرة سنة، كان عالمًا عابدًا، أكثر الناس أخذًا للحديث.

قال أبو هريرة: ما كان أحد أكثر حديثًا مني، إلا عبد الله بن عمرو؛ فإنه يكتب ولا أكتب. سكن بمكة ، ثم رحل إلى الشام وعاد إليها وتوفي بها سنة خمس وستين، وهو ابن اثنين وسبعين سنة، ومروياته : سبعمائة حديث.

(**رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يؤمن أحدكم**): قيل: أراد نفي الكمال، أي: لا يكمل إيمان أحدكم، قيل: نفي أصل الإيمان عنه.

(**حتى يكون هواه**): ليس الذي هو من أصل صفاته النفسانية، بل المعبود الباطل المطاع، والمحبوب المتحتم الاتباع.

(**تبعًا لما جئت به»**): من السنة الزهراء، والملة النقية البيضاء، حتى تصير هممومه المختلفة وخواطره المتفرقة التي تنبعث من هوى النفس وميل الطبع همًا واحدًا يتعلق بأمر ربه واتباع شرعه، تعظيمًا له وشفقة على خلقه، كما قال الشاعر:

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٢/١)ح(١٥)، وفيه نعيم بن حماد: صدوق كثير الخطأ، انظر التقريب (٧١٥٧)، وعزاه الحافظ ابن حجر للحسن بن سفيان وغيره، قال: ورجاله ثقات، قال: وقد صححه النووي في آخر الأربعين، انظر فتح الباري (٢٨٩/١٢)، فيض القدير للمناوي (٢٩٥/٥).

كانت لقلبي أهـــــواء مفرقـــة فاستجمعت مذ رأتك العين أهـــوائي

وصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الورى إذ صرت مولائي

تركت للخلق دنياهم ودينهـــم شـــغلاً بحبـــك يا دينـــي ودنيائـــي

فلا يميل إلا بحكم الدين، ولا يهوى إلا بأمر الشرع، فهو المؤمن الكامل التوحيد، الذي يقبل منه التوحيد ، ومن أعرض عنه متبعًا لهواه مبتغيًا لرضاه فهو الكافر الخاسر في دنياه وعقباه، ومن اتبع أصول الشريعة دون فروعه، فهو الفاسق، ومن عكس فهو المنافق.

لك ألف معبود مطاع أمره دون الإله وتدعي التوحيدا

والهوى : مصدر هويه: أحبه. وشرعًا: ميل النفس إلى خلاف ما يقتضيه الشرع؛ لأنه يهوي بصحبه إلى الداهية في الدنيا، والهاوية في العقبى، فكأنه من هوى يهوي هويًا، أي: سقط.

فإن قلت: ما جاء به الرسول ﷺ نور وضياء، والهوى ظلمة في النفس انبعثت من الطبيعة الترابية فكيف يصير الهوى الظلماني تبعًا للدين النوراني؟

قلت: الجواب: أن النفس لطيفة في الجسد تولدت من ازدواج الروح بالبدن، واتصالهما، والروح لطيف روحاني، والجسد كثيف ظلماني، والنفس متوسطة بينهما، تقبل اللطافة الروحانية، والكثافة الجسمانية، وهذا هو التسوية التي قال الله تعالى: ﴿**ونفس وما سواها**﴾ [الشمس: ٧].

فاستقامة الروح الروحاني في الروح الحيواني بمثابة النور في الحدقة، فصارت النفس بها قابلة للخير والشر والفجور والتقوى، فإذا غلب الأمر بالتقوى صارت مزكاة عن الكدرات، متوجهة إلى الدين، قابلة لليقين، وإذا غلب الأمر بالفجور صارت تابعة للهوى، سالكة مسالك الردى.

نون الهوان من الهوى مسروقة فصريع كل هوى صريع هوان

قال الراغب: مثل النفس في البدن كمجاهد بعث إلى ثغر يراعي أحواله. وعقله خليفة مولاه ضم إليه ليرشده، ويشهد له وعليه إذا أعاده. وبدنه بمنزلة مركوبه، وهواه وشهوته سائس خبيث، ضم إليه ليتفقد مركوبه.

والقرآن بمنزلة كتاب أتاه من مولاه تبيانًا لكل شيء ورحمة، والنبي رسول أتاه بالكتاب ليبين للناس ما نزل إليهم، فإن جاهد أعدائه وقهرهم واستعان بالعقل في اتباع الكتاب وسلطه على الهوى حمد أثره إذا عاد إلى حضرته، وهو من المفلحين، ومن ضيع ثغره، وأهمل رعيته وصرف همه إلى تفقد مركوبه، وأقام سائس المركوب مقام خليفة ربه فهو في الآخرة من الخاسرين.

(حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة): في اتباع المحجة، للحافظ أبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصفهاني.

(بإسناد صحيح): ورواه محيي السنة في المصابيح وشرح السنة.



الحديث الثاني والأربعون

عن أنس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة». (رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح)[١].



الكلام على الحديث الثاني والأربعين

(عن أنس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم): في هذا النداء نكتة وهي: أن أقوى المراتب: الاسم، وأضعفها: الحرف، فظن قوم أنه لا

(١) إسناده حسن: روي من حديث أنس بن مالك، وأبي ذر، وابن عباس، وأبي هريرة:
أما حديث أنس: فأخرجه الترمذي (٥/٥٤٨)ح(٣٥٤٠)، والطبراني في الأوسط (ح٤٣٠٥). من طريق سعيد ابن عبيد، ثنا بكر بن عبدالله المزني، ثنا أنس مرفوعًا به، ورجاله ثقات خلا سعيد بن عبيد وهو صدوق ربما وهم.
وأما حديث أبي ذر : فأخرجه الدارمي (٢ / ٤١٤) ح (٢٧٨٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٥/١٦٧) ح(٢١٥١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧١٢)ح(٧٤٢)، كلهم من طريق: شهر بن حوشب، ثنا عمرو ابن معد يكرب عن أبي ذر مرفوعًا، وفيه : شهر بن حوشب، صدوق كثير الإرسال والأوهام.
وأما حديث ابن عباس: فأخرجه الطبراني في الكبير (١٢/٩)ح (١٢٣٤٦)، والطبراني في الصغير (٢/٨٢) ح(٨٢٠)، من طريق إبراهيم بن إسحاق الصيني، ثنا قيس بن الربيع، ثنا حبيب بن أبي ثابت، ثنا سعيد بن جبير، ثنا ابن عباس مرفوعًا به، وإسناده ضعيف جدًا، فيه:
- إبراهيم بن إسحاق الصيني، متروك الحديث، قاله الدارقطني.
- قيس بن الربيع: صدوق تغير كثيرًا.
وأما حديث أبي هريرة: فأخرجه الأصبهاني في العطية (ح٥١٩)، ورجاله ثقات ، وقد قال أبو حاتم: هذا حديث منكر، العلل (٢/٢٨)، وعله يقصد بسنده الذي في العلل، وانظر كشف الخفاء (٢/١٩٩).

يتألف الاسم بالحرف، فكذا أقوى الموجودات هو الحق سبحانه، وخلق الإنسان ضعيفًا. فقالت الملائكة: ما للتراب ورب الأرباب!، فقيل لهم: قد يتألف الاسم مع الحرف في حال النداء، فكذا البشر يصلح لحضرة رب الأرباب حال التضرع والنداء: ﴿**ادعوني أستجب لكم**﴾ .

وآدم: أعجمي، لا اشتقاق له، ووزنه فاعل كآزر، لا أفعل، وقيل: من الأدمة. وقال ابن عباس: سمي آدم؛ لأنه خلق من أديم الأرض، أحمرها وأسودها، وطيبها وخبيثها.

(**إنك ما دعوتني**): أي: ما دمت تعبدني أو تسألني، فإن الدعاء قد فسر في القرآن بهما، و"ما" زمانية ظرف: "غفرت".

(**ورجوتني**): أي: رجوت مغفرتي ولا تقنط من رحمتي أو تخاف من عقابي إذ الرجاء جاء بمعنى الخوف، قال الله تعالى: ﴿**ما لكم لا ترجون لله وقارًا**﴾ [نوح: ١٣]، أي: لا تخافون لله حلمًا، كذا في الكشاف، إذ التدرج في العبادات إنما يتأتى بهما، كما قال ﷺ : «**لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا**» ، هذا إذا لم يقترب الموت، فإن قرب الأجل وانقطع الأمل، فالرجاء ليس إلا لوروده إلى ملك كريم، ووفوده إلى رب رؤوف رحيم.

(**غفرت لك على ما كان منك**): من الذنوب الكثيرة الصغيرة والكبيرة. والغفر: إلباس الشيء ما يصونه عن الدنس.

(**ولا أبالي**): أي: لا يعظم على كثرتها، فإن جرائم العباد وآثام أهل العناد في جنب رحمة الرب كذرة حقيرة، بل أقل منها.

قال في الصحاح: قولهم : لا أباليه، أي: لا أكترث به، و لم أبل محذوفة الألف لكثرة الاستعمال، كما قالوا: لا أدر محذوفة الياء، والأصل: أباليه، مثل : أعافيه. وقيل: كان أبالي من البال، أي: لا شغل لي بهذا الأمر.

فالحديث تحريض على الدعاء وتحسين الرجاء.

أما الدعاء: فحقيقته استدعاء العبد ربه للاستمداد والمعونة، وله شرائط وآداب، تقدم الإشارة إليها.

فإن قلت: ثبت أنه جف القلم بما هو كائن، فالدعاء لا يزيد شيئًا ولا ينقص شيئًا؟ وأيضًا: المطلوب إن كان من مصالح العبد فالجواد المطلق لا يبخل به، وإن لم يكن منها لم يجز طلبه ولأن الرضا بالقضاء باب الله الأعظم، والاشتغال بالدعاء ينافيه؟

فجوابه أن يقال: الدعاء من شعار المرسلين وآداب العرفاء الصديقين، والقرآن والحديث ناطقان بصحته.

والسبب العقلي فيه : أن كيفية علم الله وقضائه غائبة عن العقول والحكمة الإلهية تقتضي أن يكون العبد معلقًا بين الخوف والرجاء، اللذين بهما تتم العبودية، وبهذا الطريق صححنا القول بالتكاليف مع الاعتراف بإحاطة علم الله وجريان قضائه وقدره في الكل.

وقوله ﷺ : «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**» [١] ، في جواب يعم العمل مع أنه "قد كتب مقعد كل أحد من الجنة والنار"، يدل عليه، فإنه رهنهم بسابق القدر، ثم رغبهم في العمل؛ ليعلم أن الوسائط والروابط معتبرة في جميع أمور هذا العالم، ومن جملتها في قضاء الأوطار: الدعاء كما في الشاهد، فلعله قد جعل الدعاء سببًا لبعض مناجحه.

وأما الرجاء: فهو أن تأتي بحسنة ترجو ثوابها أو بسيئة ثم تبت عنها ، فترجو مغفرتها.

وأما الرجل الفاسق المتمادي المتواني القائل: أرجو المغفرة، فهذا من أكاذيب الأماني.

قال شاه الكرماني: علامة الرجاء حسن الطاعة، وقيل: الرجاء: رؤية الجلال بعين الجمال، أو قرب القلب من لطف الرب، أو سرور الفؤاد بعيد المعاد، وأنشد بعض الراجين:

إذا كثرت منك الذنوب فداوها ... برفع يد في الليل والليـــل مظلم

ولا تقنطن من رحمة الله إنمـــا ... قنوطك منها من خطاياك أعظم

فرحمته للمحسنين كرامـــــة ... ورحمته للمسرفـــين تكـــــرم

وأما الخوف : فهو عبارة ألم القلب بسبب توقع مكروه، وسببه: التفكر في تفاصيل أنواع العذاب المتوعد به على المعاصي، وهو نصيب أهل الظاهر.

أو معرفة الجلال والكبرياء وهو وظيفة أرباب القلوب، والأول يزول، والثاني لا يزول، ومن كان خوفه في الدنيا أكثر فأمنه في العقبى أكثر، وبالعكس، يروى: «**إنه ينادي يوم القيامة: وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين، فمن أمنني في الدنيا خوفته يوم القيامة، ومن خافني أمنته يوم القيامة**» [٢] .

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤/١٨٩١)ح(٤٦٦٦)، ومسلم (٤/٢٠٤٠)ح(٢٦٤٧).

(٢) إسناده ضعيف: روي من حديث أبي هريرة، وشداد بن أوس، والحسن.

(يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء): قال التوربشتي: العنان: السحاب، فإضافته إلى السماء غير فصيح، وأرى الصواب: "أعنان السماء" وهي صفائحها وما عرض من أقطارها، كأنها جمع عنن، فلعل الهمزة سقطت من بعض الرواة.

وفيه بحث: وهو أن الفائدة فيه: الإشعار بأن السحاب منطبق آخذ بآفاق السماء، لا في أفق واحد؛ لأنهم يطلقون على كل أفق سماء، كما يطلقون على كل طبقة سماء.

قال الشاعر:

من بعد أرض بيننا وسماء

فيفيد المبالغة في كثرة الذنوب، حتى ملأت جميع أقطار السماء، وهذا الذي ذكرنا مأخوذ من كلام الكشاف في قوله تعالى: ﴿أو كصيب من السماء﴾ [البقرة: ١٩]، وهو ماء المطر، فحم حوله.

وقال المصنف: العنان: ما عنّ لك، أي: ظهر من السماء إذا رفعت رأسك وهو كناية عن كثرة الذنوب بحيث لو كانت أجسامًا لملأت ما بينهما.

(ثم استغفرتني غفرت لك): والاستغفار: طلب المغفرة، وهو إنما يكون بالتوبة، وهي عبارة عن الندم على ما سلف من المعصية، وكف النفس عن مباشرتها من حيث هي معصية، مع العزم على أن لا يعود إليها إذا قدر عليها.

قوله: "من حيث هي معصية"، فإن ندم على شرب الخمر لما فيه من الصداع لم يكن تائبًا. وقوله: "إذا قدر" لأنه من سلب عنه القدرة على الزنا وانقطع طمعه عن عود القدرة فعزم على تركه لم يكن توبة منه، ذكره حجة الإسلام.

=أما حديث أبي هريرة فأخرجه: ابن حبان (٢ /٤٠٦) ح (٦٤٠) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٨٣/١) ح(٧٧٧)، من طريق عبد الوهاب بن عطاء، ثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة مرفوعًا. قال الدارقطني: ولا يصح هذا عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة، انظر العلل (٣٨/٨).

وأما حديث شداد بن أوس: فأخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢٦٦/١)ح(٤٦٢)، من طريق: إسماعيل بن موسى السدي، ثنا محمد بن يعلى عن عمر بن صبح عن ثور بن يزيد عن مكحول عن شداد بن أوس مرفوعًا، وإسناده ضعيف جدًا، فيه: إسماعيل بن موسى السدي: صدوق يخطئ. ومحمد بن يعلى: ضعيف. وعمر بن صبح: متروك.

وأما حديث الحسن: فأخرجه ابن المبارك في الزهد (١/٥٠- ٥١)ح(١٥٧). من طريق ابن المبارك أخبرنا عوف عن الحسن مرفوعًا، وهو مرسل، وقال الحافظ الدارقطني: وهو المعروف، انظر علل الدارقطني (٣٨/٨).

وفي كلام بعض العرفاء: إن التوبة هي الرجوع عن مخالفة حكم الحق إلى موافقته، فلابد من معرفة الذنب حتى يرجع عنه بالندم بالقلب، وكثرة الاستغفار وكف الجوارح، وأن توبة العوام: الاستكثار من الطاعة؛ لأن سيئاتهم تصير بالتوبة حسنات، كما أشار إليه التنزيل، وتوبة الأوساط من استقلال المعصية في جنب سعة رحمته، وهو عين الجرأة على الله، فلابد من تعظيمها واعتقاد أن توبته موقوفة وأنه أسوأ الناس حالاً.

وتوبة الخاصة من تضييع الوقت في غير المراقبة برؤية الغير والاحتجاب بصفات النفس، فيحرم صاحبه من نور المراقبة الموجب لحفظ الوقت بظلمة الحجاب، ويلزم من ذلك: كدورة الصحبة مع الله في مقام المشاهدة، ومن رام حقائق التوبة فعليه بكتاب المنازل.

(**يا ابن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض**): أي: بملئها (**خطايا**): تمييز من الذات المقدرة في الإضافة نحو : ملأه عسلاً، أو مفعول به، والتاء للتعدية، وخطايا: حال.

(**ثم لقيتني**): لفظة "ثم" للتراخي في الإخبار وأن عدم الشرك منه مطلوب أولي، ولذا أعاد "لقيتني"، وعلقه به، وإلا ليكفي أن يقال: لو لقيتني.

(**لا تشرك بي**): أي: بذاتي وصفاتي أفعالي أو بعبادتي (**شيئًا**): من النفس والشيطان والخلق، إذ الشرك قسمان جلي وخفي، والأول غير مغفور، والثاني يحبط العمل ويعاقب عليه.

(**لأتيتك بقرابها مغفرة**»): وهي إزالة العقاب، وإيصال الثواب، ونكرها ليفيد المغفرة العظيمة المتناهية، وأسندها إلى ذاته؛ لأن كمال قدرته وغناه كما أنه يقتضي العقاب، فكمال رحمته وعفوه يقتضي إزالته عنه، لكن صدور الرحمة عنه بالذات : «سبقت رحمتي غضبي»، فجانب المغفرة أرجح.

ولله در من قال:

مهما تذكرت ما زلت به قدمـــــــي   أرجو الذي عفوه للذنب محاء
وكيف أرجع صفر الكف عن صمد   كلتا يديه يمين وهي سخـــاء

والحديث دليل على أن الشرك قد تناهى في القبح والفساد إلى حد يمتنع في حكمة الرب أن يغفر لصاحبه؛ لأنه أظلم الظلم، ومصدره الاستخفاف بحق الربوبية، والتسوية بين خالقه ورازقه الذي يحبه ويميته وبين غيره في التعبد، وهذه فرية ما فيها مرية، إذ كيف يسوي رب العالمين بشيء من مخلوقاته الذي ليس له ذرة من ملكه وملكوته.

وإشارة إلى أن التوحيد يغفر به الذنوب ويكشف به الكروب، إذ الفطرة المنورة بنور التوحيد تغلب الهيئة المظلمة النفسانية لبقاء النورية الأصلية واتصال العبد بالحق.

واعلم أن عباد الله الذاهبين إليه قسمان: الواقفون والسائرون، والمراد بالواقف: من يقف في عالم الصورة ولم يفتح له باب في علم المعنى، كالفرخ المحبوس في قشر البيضة، فيكون شربه من عالم المعاملات البدنية ، ولا سبيل له إلى عالم القلب ومعاملاته، فهو محبوس في سجن البدن، وعليه موكلان يكتبان عليه من أعماله الظاهرة ﴿**ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**﴾ [ق:١٨]، فإذا لقي الله بريئًا من الشرك الجلي يغفر الله مساويه ويشكر له مساعيه.

أما السائر فلا يقف في محل، ولا ينزل في منزل، يسافر من عالم الصور إلى عالم المعنى، ومن مضيق الأجساد إلى متسع الأرواح، وهم صنفان : سيار وطيار.

فالسيار: من يسير بقدمي الشرع والعقل على جادة الطريقة، وخطاياه ما يحجبه عن الله من مراتب الدنيا والآخرة، ورؤية غيره والتعلق بما سواه، فإن أكبر الكبائر: إثبات وجود غير الله ذاتًا أو صفة وفعلاً، حتى وجوده كما قيل:

وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

وهو الشرك عندهم ، فإذا تخلص من ذلك تلقاه الله بالغفران، بل يستر بشواهد هويته ذنوب وجود الأغيار، وبجذبات العناية يرحمه برفع البينونة والأستار.

والطيار: عاشق مفقود القلب، مغلوب العقل، مجذوب السر، يطير بجناح العشق والهمة في فضاء الحقيقة، وفي رجله جلجلة الشريعة، وهو المتعين لأعباء الأمانة التي لم يوجد في السماء والأرض ولا في الدنيا ولا في الآخرة مؤتمن أمين لتحملها، فلما عرضت عليها نظر إليها وعشقها، وصار فراش تلك الشمعة حملها، فنسب في البداية إلى الإفساد وسفك الدماء، ولقب في النهاية بالظلوم والجهول.

فإن قلت: من أبى ولم يطع في حمل الأمانة نسب إلى المكانة والطاعة والأمانة بقوله: ﴿**مطاع ثم أمين**﴾ [التكوير:٢١]، ومن أطاعه وحمل نسب إلى الظلم والجهل والخيانة، فما الحكمة في ذلك؟

قلت: إن الذل والمسكنة وقعت في جانب العاشق، كما أن العزة والعظمة وقعت في طرف المعشوق، بل جمال عزة المعشوق لا تظهر إلا في مرآة ذلة العاشق، وأيضًا: كمال عزة الأمانة يلزم كمال ذلة المؤتمن في إصلاح كتمان أمر الأمانة، وقد يخص غيره بحسن الثناء

عليه؛ لتكون عزته في الظاهر، وذلته في الحقيقة يدلك على حقيقة السر خطاب ﴿**اسجدوا لآدم**﴾ وعتاب ﴿**إني أعلم ما لا تعلمون**﴾ .

(**رواه الترمذي رحمه الله وقال: حديث حسن**): ولما كان هذان الحديثان مما عليهما مدار الإسلام، ويتضمنان ما لا يحصى من الحكم والأحكام؛ لأن أولهما في الترهيب من اتباع الهوى، والترغيب في سلوك مسالك الهدى، والثاني في التحريض على الرجاء والدعاء الذي هو مخ العبادة، والإطماع بالاستغفار في سعة رحمة الله عباده أو ردهما في الكتاب، لصيحة لكل تواب أواه أواب.

وختم بهذا الحديث إشعارًا بأنه يجب على العبد أن يعتقد في مولاه الفضل والإحسان والمغفرة والرأفة والامتنان، وأن يحسن ظنه آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالعقبى، فإنه بتحقيق رجاء الراجين حقيق. وولي الإسعاد والإمداد والتوفيق.

فهذا آخر ما قصدته من بيان الأحاديث التي جمعت قواعد الإسلام، وتضمنت ما لا يحصى من أنواع العلوم في الأصول والفروع والآداب، وسائر وجوه الأحكام.

اعلم أن المذكور في هذا المختصر مما يتعلق بظاهر معاني الأحاديث، منقول غالبًا من أعلام الحديث للإمام الخطابي، وشرح صحيح مسلم للمصنف، وشرح المصابيح للقاضي البيضاوي، وشرح المشكاة للعلامة الطيبي، والنهاية للإمام الجزري، والكشاف، وما يكشف السحاب عن وجوه حقائقها ودقائقها فمأخوذ من نفائس كلام الشيخ الكبير أبي عبدالله محمد الخفيف، وحجة الإسلام الغزالي، والأستاذ أبي القاسم القشيري، والعارف العاشق روزبهان البقلي، والعارف صاحب العوارف السهروردي، وسلطان الشريعة عبد الله الأنصاري، وبرهان الطريقة نجم الملة الرازي، وغيرهم من عظماء الإسلام والعلماء الأعلام.

وما يوضح أحوال الرجال فمكتوب من الاستيعاب، والمنتظم، وشرح أسماء رجال المصابيح، وقد اشتمل بحمد الله كل حديث على فرائد شريفة، وفوائد نفيسة، جمعتها واستنبطتها مع ضيق البال، وبوادر العلل وضعف الحال، من كثرة الوسواس في فقد الحيل، والإعراض عن المطالعة والمذاكرة ومخالطة الناس. وتجرع البأساء والضراء كأسًا بعد كأس.

فلو أني وقلبي من حديد ... لذاب على صلابته الحديد
وقد لازم جفني الأرق ... وصاحب قلب الجوى والقلق
ولابس روعي لوعة تتلظى في الجوانح نارها ... ويظهر على صفحات الوجنات آثارها

وفي المعنى: لي قلب محترق، والدمع مستبق، والكرب مجتمع، والصبر مفترق، كيف القرار على من لا قرار له، مما جناه الهوى والشوق والقلق.

يا رب إن كان شيء فيه لي فرج، فامنن علي به مادام لي رمق، فيا من عرف مكائد الدهر فزهد فيه، وشغله هم الموت فلا يضحك بملء فيه، اعتصم بحبل لا انصرام له، واستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام له، وأقبل على القرآن والحديث فما دونهما جفاء، **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء﴾**.

والمأمول من أفضال الأفاضل، ولطائف ألطاف الأماثل، أن ينظروا في كتابي بعين الرضا، ويصلحوا ما فيه من الزلل والخطأ، فإنني قليل البضاعة قصير الباع في الصناعة، لكن رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

وقد تسجع الورقاء وهي حمامة وقد تنطق الأوتار وهي جماد

وأن يلتمسوا لي من الله تعالى النجاة، نجاة رسوله محمد ﷺ في الأولى والأخرى، والفوز بالدرجات العلى.

تم هذا الكتاب في شرح الأحاديث النبوية الأربعين النووية، رضوان الله تعالى على مؤلفه، ورحمته وغفرانه على شارحه، وتجاوز الله عن خطيئات كاتبه.

قال المؤلف رحمه الله تعالى ورضي عنه آمين:

(وقد نجز الفراغ منه ليلة الأربعاء، وقت الإفطار لست خلت من رمضان المعظم، سنة اثنتي عشرة وثمانمائة، أحسن الله ختامها وما بعدها، آمين.

حمدًا لك اللهم، يا من نزل أحسن الحديث، وصلاة تامة دائمة وتحية وافرة نامية على أفضل من أثنى عليه القديم والحديث، سيدنا محمد رسول الله ﷺ المخصوص بجوامع الكلم، وباهر الآيات، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، على الدهور والأوقات.

(**أما بعد**): فيقول أفقر العباد إلى مولاه الغني، خادم العلم الشريف، ومصحح الكتب الدينية، بالمطبعة العثمانية، أبو مظهر الحاج الحافظ أحمد طاهر القنوي الدرس المجيز سابقًا في جامع السلطان بايزيد، وفقه الله لما يتمناه مع ما يزيد، وأسبغ عليه ما يشاء من جميل هباته وما يزيد:

قد وقع الفراغ من تصحيح الشرح المشهور للفاضل محمد المعروف بأقكرماني على الأحاديث الأربعين، للعالم العامل الصوفي الولي، مولانا محمد الشهير ببركوي، مع ما بهامشه من الشرح المنسوب إلى المولى العالم الرباني والمحقق العلامة التفتازاني على الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، روح الله أرواحهم، وأفاض علينا وعلى المسلمين من بركاته، آمين.

ولما أراد طبعه الحافظ محمد أفندي السرويلي الصحاف في سوق الحكاكين التزمت تصحيحه، ونقدت من غثه سمينه، وبذلت الجهد فيه، ليكون لي سببًا للدعاء والتكبير؛ لأن النسخ المطبوعة غير سالمة عن الخطأ والتغيير، بحيث يؤدي للقارئين إلى السآمة والتنفير.

فجاء بحمد الله وحسن توفيقه مطبوعًا مهذبًا، ولمن وفق لخدمة أحاديث نبيه كتابًا مرغوبًا.

وهذا آخر ما وفقني الله لتصحيحه من الأحاديث النبوية، فنسأله جل اسمه أن يوفقنا لصالح الأعمال، ويوصلنا في النشأتين إلى خير الآمال، بجاه النبي الأمين وأصحابه والآل[1]، عليه من الصلوات أعلاها، ومن التحيات أنماها.



(١) جاه النبي ﷺ من النبي، وكما لا يجوز التوسل بالنبي ﷺ بعد موته، فكذلك جاهه؛ لأنه منه ﷺ، وعليه فهذه الصيغة: "بجاه النبي" لا تجوز، والله أعلم.

فهرس موضوعات الكتاب

